لاتیه

الكتاب: لاتيه
المؤلف: مروة الجمل
تصميم الغلاف: مروة الجمل
تدقيق لغوي: عاشور عطا
رقم الإيداع: 2019/26982
الترقيم الدولي: 978-977-778-122-3

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
info@noonpublishing.net
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

مروة الجمل

لاتيه

رواية

ن
للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى بقايا الدفء العالقة بين الجدران

بأحد شوارع العاصمة المزدحمة دائمًا، مبنى عريق يعلو ممرًا ضيقًا تعبر منه لتجد نفسك داخل مقهى راقٍ إضاءته الخافتة والموسيقى الهادئة المنبعثة بأركانه تجعل منه مكانًا مناسبًا للاسترخاء وصفاء النفس، على طاولة منزوية تجلس في هدوء تضع قدمًا فوق الأخرى، شعرها المموج يسترخي بعشوائية فوق ظهرها، دخان سيجارتها المشتعلة يتراقص على استحياء أمام عينيها، كرزتان مراهقتان تتلونان بلون داكن وكأنهما أوشكتا على القطاف يتزينان بوجهها الرقيق، تمسك بيدها قائمة الطعام تجول بعينيها بين سطورها المترجمة بالإنجليزية، تقف عند المشروبات الساخنة، تمعن النظر في مكونات كل مشروب منها، تتوقف عند السطر السادس لترى الاسم الصغير الذي تتشابه حروفه مع حروف اسمها الذي تحبه تالا، تبتسم وتغلق القائمة، ها قد اختارت لها مشروبًا مفضلًا حتى قبل أن تتذوقه، يقترب منها بزيه الأنيق ينحني تجاه الطاولة، يبدّل منفضة السجائر ويبتسم لها قائلًا:

- تؤمري بحاجة يا فندم!

- لاتيه من فضلك.

***

الشتاء يلملم بقاياه، لم يترك أثرًا كبيرًا هذا العام، كان الجو دافئًا جدًا يصل حد حرارة أيام مايو رغم كونه بأول فبراير، اليوم السابق لعيد الحب العالمي، الشوارع ممتلئة بالأحمر، والأرصفة تكسوها الأزهار من كل لون وشكل، البهجة تنتشر

بقلوب البعض والخيبة تدق قلوب البعض الآخر، بيت قديم بشبرا، في الطابق الخامس منه شقة صغيرة من غرفتين، في السادسة والنصف صباحًا يرن المنبه الموجود على طاولة صغيرة ملاصقة لسرير سماح، عدة مرات من الرنين تبدأ بعدها في محاولات بائسة لفتح عينيها، تجول بعينيها في سقف الغرفة، تصطدم بالشرخ الموجود على الجانب الأيسر من الباب، تدرك أنها عادت إلى الواقع وتركت الحلم الذي كانت تحلم به!

تعتدل في محاولة منها للنهوض، تتوجه إلى الغرفة المجاورة والتي تنام فيها عنان، ابنتها الوحيدة ذات الثمانية عشر عاما، الباب مغلق من الداخل، لم تعتد أن تحظى عنان بهذه الخصوصية إلا منذ أيام قليلة، هناك سرٌ بحياتها هي تدرك ذلك جيدًا، علّه شابًا تحبه، يا ويلتها من الحب، ذلك المرض العضال الذي ما إن تمكن من قلبك لم تفلح معه أي مضادات حيوية ولا تشعر بنفسك إلا وأنت تعاني مرارة الفقد؛ فلا حب يدوم في هذا الزمن.

تغلق عينيها على بضع قطرات كادت تفلت منها وتتنهد بعمق، طرقات خفيفة تخبط بها الباب علّه يفيق ويرسل تنبيهًا إلى الغافية بالداخل، ربما كانت تحلم بفارس أحلامها يخطفها خلفه على دراجته البخارية.

يداعب الصوت أذن عنان المُطلقة العنان لأفكارها في حلم بعيد لطالما تكرر معها، تهبط من فوق سحابة الحلم لتعود إلى غرفتها البالية، تفتح عينيها والابتسامة ترتسم برقة فوق الكرزتين، فقيرة تحصل على مرتب ضعيف بالكاد يكفيها حتى منتصف الشهر، بيضاء يشع وجهها نورًا تكاد تقسم أنه نورٌ ملائكي من شدة بهائه، زرقة عينيها بحر، عميق جدًا لا يمكنك أن تجد له برًا، جسدها الممشوق يخبرك بأن هناك خراطٌ ماهرٌ قام بخرطه بمخرطة من مرمر، تمامًا كما خرط سماح من قبلها.

تنتصف السابعة، تترك سماح عنان بالمنزل وتذهب للعمل، رحلة يومية

ومعاناة تلقاها كل يوم لتصل إلى مقر عملها بمجمع التحرير، والذي تعمل فيه كعاملة – خدمات معاونة - بإحدى المصالح الحكومية.

تصطدم بهذا وتلقى بعض المعاكسة من ذاك، لا تحب مترو الأنفاق، مزدحم ولا تستطيع أن تحظى فيه ببعض الهواء النقي؛ لذا كانت تفضل الذهاب بالحافلة، تقف على المحطة بانتظارها، رجل أصلع سمين يمطرها بوابل من كلمات الغزل - غير العفيف - تستدير بحركة مفاجئة وترى من المتكلم بهذه العبارات، تنحني فتخلع ما ترتديه بقدمها وتنهال به ضربًا على رأس اللعين، يتدخل الجميع لإنقاذه من بين يديها، تقترب الحافلة، تتركه منهالة عليه ببعض السباب، وتتجه مباشرة إليها، لم تختلف الحافلة كثيرًا عن المحطة؛ مزدحمة جدًا كعلبة يتراص بداخلها سمك السردين في عشوائية؛ تحارب يمينًا ويسارًا حتى وصلت إلى منتصف الحافلة تمامًا، تقف بجوار رجل نحيف يجلس بنفس المقعد يوميًا، ليتركه لها بعد محطة واحدة، وبذلك تكون قد ضمنت مكانا تجلس به وتتخلص من مضايقات الركاب.

الطريق مزدحم بهذا اليوم، توشك الساعة أن تدق الثامنة والنصف ولن تستطيع اللحاق بالتوقيع بدفتر الحضور، تترجل من الحافلة عند التاسعة إلا ربع، تهرول بمشيتها حتى تصل إلى المصعد وتتخذ لها دورًا في الطابور الطويل.

وصلت إلى المصعد فوجدت طابورًا يكاد أن يصل إلى الباب الرئيسي للمجمع مما سيجعلها تقف بالانتظار حوالي نصف ساعة على أقل تقدير، فكرّت بسرعة، وبدهاء أرملة فيحاء تصنعت التعب الشديد حتى كادت تسقط أرضًا، تركها الموجودون بالطابور تصعد دون انتظار دورها، الساعة الآن قد تخطت التاسعة بخمس دقائق، ورغم حيلتها إلا أن الموظفة المسئولة عن دفتر الحضور والانصراف، رفضت أن تدعها تنقش اسمها في الخانة المخصصة لها.

أصوات عالية، وعراك ينشأ بين سماح والموظفة المسئولة، يجلس هو بالغرفة

المجاورة يصنع كوبًا من الشاي، ينتبه للأصوات العالية، ينتفض من مكانه متوجهًا إليهما:

- مالك يا سماح؟ بتزعقي ليه؟

- مش عاوزاني امضي في الدفتر يا أستاذ عزوز، بتقول الساعة عدت تسعة وخمسة، وهي يادوب لسه ناطة على أربعة.

يقترب منها الأستاذ عزوز في هدوء شديد يتفحصها بنظرة ثاقبة، ثم يتوجه إلى الموظفة المسئولة قائلًا بصوت ناعم:

- سيبيها تمضي يا عزة، ماجاتش من خمس دقايق.

- ماتدخلش في شغلي يا أستاذ عزوز الله يسترك، الأستاذة هنا من نص ساعة لو سبتها تمضي هتئذيني، وانت ما ترضاليش بالأذى.

- طيب سيبيها تمضي بدفتر التأخيرات واكسِبِي ثوابها، عشان خاطري.

قالها بهمس في أذن مدام عزة، التي ترد بهدوء بعدما أزاحت الوجه الجامد عن وجهها وارتدت آخر أكثر ليونة:

- تكتب إذن صباحي، ولا تئذيني ولا آذيها.

يصل المصعد إلى ذات الطابق، تتدافع الأرجل خارجة منه، رجل تخطى الخمسين بأربع يقترب من الوقوف، بوجه عابس وعينين حادتين، يمسك بدفتر الحضور والانصراف ليوقع في خانته، فتخطفه عزة من يده قائلة:

- أستاذ محفوظ! الساعة تسعة وربع خلاص ما ينفعش تمضي.

- هامضي تأخير.

- ولا التأخير، خلاص الوقت عدى على إنك تمضي في أي دفتر.

- ولا يشغلني اللي بتقوليه ده، أنا همضي غصب عن التخين هنا.

يقترب منه عزوز بحركة ثقيلة قائلًا:

- خلاص بقى ياعزة، يعمل إذن هو كمان، يسريها ربنا ييسرها عليكِ.

بصوت مرتفع ترد عزة بعصبية:

- ماشي يا أستاذ عزوز عشان خاطرك أنت بس، بس قل له مايرفعش صوته عليا تاني، أنا شغالة في الحكومة مش في عزبة أبوه.

- ما تغلطيش أنا بقولك أهو.

يقولها محفوظ بنبرة حادة، متجهًا بحديثه إلى عزة التي تستشيط غضبًا فتقفز من فوق مقعدها الخشبي، لتقف أمام محفوظ مهددة إياه بشكوه للمدير العام إن لم ينته عن نهرها بصوته المرتفع، فيجذبه عزوز من أمامها ويمسك بقلم وورقة ليكتب عنه إذنًا صباحيًا.

***

أصوات عالية، متداخلة، لا تميّز منها سوى صوت عزوز المرتفع بضحكة متقطعة ههها ههها ها، يضحك وكأن شيئا قابع فوق صدره، نشرة إخبارية رياضية يلقيها محفوظ، وعبد البديع، صديقهم الثالث من الغرفة المقابلة، ساعة تمر ومازالت النشرة مستمرة والأصوات في ارتفاع، صوت أنثوي رقيق يأتي من خلف عبد البديع الذي يوجه ظهره للباب، فيلتفت للخارج بينما يهب عزوز ويقذف برقبته تجاه الصوت، شاربه الرفيع الأشبه برباط حذاء قديم، دهسه الزمن على مهلٍ، يتحرك إلى اليمين واليسار مع أنفه الذي يشم رائحة عطرها الفواح، تقترب منهم الحسناء ترمق نظراتهم الشهوانية لها، فتأخذ خطوة إلى الخلف، تدور بعينيها في فراغ الغرفة، تصطدم عيناها بعين الأستاذ محفوظ الجالس في نهايتها والذي تختلف نظرته لها عن غيره، تتوجه إليه بالسؤال:

- لو سمحت! فين الشئون الإجتماعية؟

- أنتِ هنا بعيدة جدًا، امشِي لآخر الممر على إيدك الشمال هتلاقي ساحة مدورة وسلم، انزلي دورين واسألي.

تبتسم له وتشكره، عزوز يثبت نظره على تفاصيلها الأنثوية اللائحة بقوة خلف ملابسها، ابتسامة بلهاء يرسمها فوق وجهه الأسمر، عيناه الضيقتان تزدادان ضيقا:

- هها هها ها، أنا ممكن أوصلك لو تحبي.

- لا! شكرًا.

ترد بها الحسناء في ضيق وتتركهم متوجهة حيث وصف لها الأستاذ محفوظ، يعبث عزوز برباط الحذاء النابت فوق فمه، ويضحك ضحكته المتقطعة قائلًا بصوت ناعم:

- صنف ممتاز.

- اه ونظيف.

يرد عليه محفوظ غامزًا بإحدى عينيه، مادًا لحرف الياء فيضحك عبد البديع ضحكة قصيرة مكملًا حديثه عن الكرة:

- بس أنا ما شفتش الجول اللي جابه صلاح إمبارح في ماتش الليفر.

- والله أنا أقدر أجيب بدل الجول عشرة، هها هها ها.

يرد بها عزوز، فيضحك ثلاثتهم ثم يكملون نشرتهم الرياضية في حماس زائد.

******

العاشرة صباحًا، يرن الهاتف بنغمة هادئة، أشبه بموسيقى تصويرية لحلم، حمزة المتخذ من كفيه وسادة له بعد ليلة طويلة قضاها بمحادثة إلكترونية مع صديقته الألمانية، يبدأ بفتح عينيه، تنتهي النغمة ويعاود النوم، خمس دقائق

أخرى ويعلو صوت الهاتف مرة أخرى بشكل مفزع، ينتفض حمزة من السرير جالسًا على طرفه، ينظر للشاشة المضاءة وكلمة بابا تتوسط الجزء الأعلى منها، يتأفف ثم يجذب علامة السماعة الخضراء بإصبعه ناحية اليمين ويتلقى الرد على الجهة الأخرى:

- هو أنا المفروض اتصل كام مرة بالبيه عشان يصحى؟

- ما أنا صحيت أهو يا بابا.

- الساعة عشرة يا أفندي، ومحاضرتك كانت الساعة تسعة، متأكد إنك كده صحيت؟.

- مش مهم يا بابا هلحق محاضرة 12.

- ابقى تعالى تف على قبري لو فلحت، امتحاناتك قربت يا بشمهندس يا محترم.

- مش هتفرق يا بابا، الدكتور مش هيقول حاجة جديدة يعني، هيهبدلنا أي كلمتين عشان يحلل فلوس الملازم وخلاص.

- طب والعملي؟

- أسهل من النظري، وابنك شاطر يا حاج، المهم سيبك من كل ده، سبت لي الفلوس اللي طلبتها؟

- سبتهم مع أمك، دور عليهم أو اتصل بيها شوف سايباهم لك فين ولا هتعدي تاخدهم منها.

- ماشي يا حاج، نهارك أبيض.

- نهارك بلون فشلك.

عشرون عاما، قضاها حمزة في منزل عائلته، محاط بهالة من العيب والحرام،

كل شيء بنظر الوالد خطأ طالما لا يتفق مع رأيه، كل شيء بنظر الأم صحيح طالما يتفق مع إمكانياتها المادية، أسرة سعيدة جدًا بائسة جدًا، يعيشون في شقة كبيرة بمنطقة نصف راقية، حمزة الابن الأكبر طالب بكلية الهندسة، ناجح دراسيًا، متمرد على عادات والده وتدينه الظاهر، ريبيكا صديقته الألمانية، تعرّف عليها من موقع التواصل الاجتماعي الأزرق منذ عام ونصف، تكبره ببضعة أشهر عمرية، وتكبره عقليًا بعدة سنوات، يعتبرها نافذته على العالم ومرشده في أوقات الظلمة الفكرية التي يحيطه بها والده، يعود ليلقي بجسده فوق السرير، يمسك بوسادته ويضمها بقوة، يستنشق عطرًا من مخيلته ثم يقوم لخارج الغرفة، يبحث عن ورقته المنشودة فئة المائتي جنيه ولا يجدها، يتأفف ويعود لهاتفه يطلب رقم الوالدة ليأتي صوتها عصبيًا على الجهة الأخرى:

- عاوز إيه ياحمزة! أنا مش فاضية.

- بابا سايبلي معاكِ ميتين جنيه، حطيتيهم فين؟

- نسيت أسيبهم، عدي عليا خدهم مني لو محتاجهم.

يطلق زفرة قوية، متأففًا ثم يعود للرد عليها:

- طيب يا... ألو.. ماما! ماما!

أغلقت الأم المنشغلة الخط دون أن تخبر المتأفف على الناحية الأخرى، تبًا للعمل يا أمي تبًا وألف تبًا لانشغالك الدائم، قالها في نفسه ثم عاد ليجلس على السرير، مد يده داخل حقيبته الملقاة أرضًا بجواره وأخرج منها علبة سجائر وأشعل واحدة وجلس يدخنها وينفث دخانها في السقف سابحًا في بحر عميق من الأحلام الأوروبية، ينظر لهاتفه، يمسك به ويبدأ بتصفح عالمه الأزرق غير مبالٍ بموعد محاضرته القادمة.

***

في الغرفة المجاورة وفي وفضاء سقفها الأبيض تطير عائشة ذات السبعة عشر ربيعًا فوق زرقة بحر شاسع بفستان طويل عاري الكتفين، تدور حول نفسها وتصنع دوامة سوداء من شعرها الطويل، تتراقص على نغمات موسيقى هادئة خاصة بذلك الحلم الذي تعيشه كل ليلة وصباح، العصافير تغرد خارج نافذتها المغلقة دومًا، يعلو صوت الموسيقى فتسقط في البحر مفزوعة من صوت المنبه الذي يلح عليها كي تعود للواقع، تنهيدة طويلة تخرج من صدرها يلحقها صوت آهة مكتومة، تفتح ذراعيها عن آخرهما، تداعب مؤخرة شعرها بأناملها، وتمر بيدها فوق رقبتها وتدور بعينيها في فراغ الغرفة لتقع عيناها على ساعة الحائط المثبتة بجوار الباب لتجد عقربيها قد اقتربا من بعضهما مما يعني وجوب نهوضها بسرعة إن كانت تريد أن تلحق بموعد درس الرياضيات، الثانوية العامة هي كابوسها الأكبر بعد تحكمات والدها ورفضه لكل شيء تريده، ممنوع الخروج مع صديقاتها، ممنوع الرحلات مع المدرسة، ممنوع لبس البنطال، ممنوع مشاهدة التلفاز مع بدء الدراسة، ممنوع الهاتف المحمول ذو الشاشة الكبيرة الملساء والضوء الأبيض، فقط هاتف صغير قديم تضاء شاشته بضوء أخضر باهت، لا تسمع به سوى صوت والدتها أو والدها موبخين إياها إذا تأخرت خمس دقائق عن موعد حضورها للمنزل.

تتأفف كما فعل أخوها منذ قليل، تقع عيناها على دمية صغيرة كانت تشبهها يومًا ما، تقترب منها وتمّلس على شعرها الذي أصبح خشنًا من الإهمال، تتنهد بعمق وتخرج من غرفتها لتجهز للنزول.

يعيدها صوت الهاتف للغرفة لتجد والدتها على الناحية الأخرى فتجيب في ضيق:

- أيوه يا ماما، صحيت أهو.

- جهزي الفطار ليكِ ولحمزة؛ هو لسه مانزلش.

- طيب، حاجة تاني؟

تقولها بتأفف.

- لأ، وماتتأخريش بعد الدرس.

تنهي جملتها وتغلق الهاتف بسرعة، تغضب الفتاة وتلقي بالهاتف أرضًا وتخرج للمطبخ.

متى ستشعر أننا كبرنا ونحتاج لحديثها اللين بدلًا من تلك المحادثات الخاطفة المملة الممتلئة بالأوامر، والصوت العالي، والتي دائمًا ما تنتهي بغلق الخط بوجهنا!

تحدثت عائشة إلى نفسها وهي تجهز الإفطار، لتجد حمزة يقف خلفها ضاحكًا:

- بتكلمي نفسك؟

- بدل ما أطق.

- مممم، طب يالا حضري الفطار بسرعة، عاوز أنزل.

- لو كنت مستعجل تعال اعمله لنفسك بدل الخدامة اللي جابو هالك بابا وماما.

- هاحط وشك في الطاسة بدل البيض لو مابطلتيش لماضة..

يقولها وهو يمسك بشعرها في رفق، ثم يربت عليها ويطبع قبلة فوق جبينها:

- هاسخن أنا العيش، وانتِ روحي خرجي الجبنة وباقي الأكل من الثلاجة.

أخ وأخت يفصل بينهما ثلاثة أعوام من العمر ولكن يجمعهم حب فطري، يعانقان بعضهما ويحميان روحيهما من تقلبات الأب والأم والزمن، كل منهما يدرك مأساة الآخر، ويتصدى لهجمات الأيام على الآخر.

الأخ يعمل بمثابة أب لها والأخت تعمل بمثابة أم له، يتبادلان الأدوار حسب الحاجة، متفقان ومنسجمان في كل شيء وكأن كلا منهما عوض للآخر عن جزء ناقص بالمنزل.

ينتهيا من تناول الإفطار ويتوجه كل منهما لوجهته، حمزة يذهب لوالدته بالبنك وعائشة تذهب لدرس الرياضيات حيث تقابل المزيد من الأرقام اللا نهائية التي تزيد من مأساتها مع العمليات المعقدة!

***

بهو كبير على الطراز الإسلامي العريق، الكثير من الأعمدة والنوافذ الزجاجية القصيرة، الكثير من العملاء يجلسون متراصين على مقاعد معدنية متقابلة في وسط البهو، البعض يقف لعدم وجود أماكن شاغرة، الجميع يترقب الشاشات المضاءة فوق النوافذ الزجاجية، خلية من النحل تعمل خلف الزجاج، أرقام وحسابات، شيكات شيكات، أصفار، الكثير منها، الأصوات تبدأ في العلو تنذر بمعركة قادمة، محاولة من أحد الوقوف لتلطيف الأجواء، صوت نسائي يعلو في الخلفية:

- حرام عليكم، تعبنا.

موظف بائس خلف الزجاج يتحدث في الهاتف بعصبية، يمسك برابطة عنقه ويفك بضعة سنتيمترات منها، يشعر بالاختناق، الحرارة مرتفعة رغم عمل التكييف المركزي بأقصى قدرته، بعض الأعصاب تبدأ في الانفلات:

- اخلص بقى، قرفتني.

- احترم نفسك، أنا مش شغال عندك.

- لا أنت شغال عندي وبتقبض مرتبك من فلوسي.

- خذ فلوسك وغور من هنا.

- انت مش محترم، فين مديرك؟ أنا هاعلمك إزاي تكلم العملاء يا متخلف.

الأصوات تعلو وتتداخل، في غرفة زجاجية خلف خلية النحل تجلس على مكتب ضخم ترتدي عباءة خليجية مطرزة وتلف رأسها بطرحة كبيرة من نفس

لون العباءة الأسود، لا توجد ألوان صناعية بوجهها فقط خلقة الله التي وهبها إياها هي التي تظهر من بين الهالة السوداء فوق رأسها، الكثير من الأوراق تتناثر في عشوائية مرتبة فوق المكتب، يافطة زجاجية محفور عليها بخط ديواني مزخرف إلهام النجار، ترفع رأسها تجاه الأصوات القادمة كشلال مندفع، تنظر من فوق نظارتها الطبية المسنودة برفق فوق أنفها الدقيق، تهز رأسها باستياء ثم تترك ما بيدها وتقوم إلى العراك القائم، تدب الأرض بحذائها، فيصمت الموظفين ويتبعهم العملاء في الصمت، تقف بمنتصف الغرفة موجهة نظرها تجاه الموظف الجالس خلف النافذة، وبصوت حاسم:

- أستاذ مكرم! في إيه بيحصل هنا؟

ينتفض مكرم من مكانه مرتبكًا وبصوت متلعثم يرد:

- والله يا ريسة، هو اللي غلط فيا الأول لمجرد إني كنت برد على التليفون.

- مهما حصل ماينفعش الكلام بالطريقة دي.

تتوجه بنظرها إلى العميل المبتسم في خبث قائلة:

- وحضرتك يا أستاذ في بنك محترم، مايصحش تقول للموظف قرفتني، لأن اللي قرفك ده بينهي لسيادتك معاملتك تحت ظروف أنت ما تعرفش عنها حاجة، الموضوع كله هيتحول لإدارة الشئون القانونية، ولو ليك حق هتاخده.

تنظر لموظفة أخرى وتكمل حديثها:

- أستاذة علا! من فضلك كملي العملية مع الأستاذ، وأنت يا مكرم تعال على مكتبي، وكل واحد يرجع لشغله؛ ده مابقاش بنك، ده بقى سوق!

امرأة قوية ذات هيبة تدهشك، شخصية تجبرك على احترامها، ومحاولة نيل رضاها، تستطيع دك حصونك بنظرة واحدة، استطاعت احتواء عراك في أقل من

نصف دقيقة وبثلاث جمل متتالية، خبيرة في الإدارة، ناجحة جدًا في عملها، السيدة إلهام النجار مدير الفرع، اللقب الذي طالما حلمت به وحصلت عليه بعد فترة وجيزة نتيجة اجتهادها وحبها للعمل.

تعود لعرينها، يتبعها الأستاذ مكرم مطأطئ الرأس، يعلم أنه قد تجاوز الحد مع العميل، ولكنه كان لا يحتمل ضغطًا آخر، وقد كان من حظه العثر أن انفجر بوجه العميل، تجلس على مكتبها ويجلس أمامها كتلميذ خائب لم يذاكر درسه جيدًا ينتظر العقاب.

لحظات من الصمت تتفحصه خلالها بنظرة ثاقبة، عيناه تزوغ يمنة ويسرة يحاول الفرار من عينيها، سئم صمتها، وارتعب منه، هو يعلم أنها حين تصمت تكون جاهزة لإطلاق الكثير من العبارات الموجعة، انطقِي بالله عليكِ، كررها كثيرًا داخل نفسه، ولكنها تأبى الإجابة، حاول أن يبادر هو:

- والله يا ريسة...

أشارت له بالصمت ومازالت تتفحصه، ابتسامة رقيقة بدأت تغزو وجهها الصلب، تزيح بعض الشقوق عنه، تبعتها بجملة قصيرة؟

- مين اللي زعلك في التليفون للدرجة دي يا مكرم؟

يندهش مكرم من السؤال غير المتوقع نهائيًا، كان ينتظر منها توبيخًا، ولومًا على فعلته لكنها فاجأته بالعكس تمامًا، مازال الخوف يتوجس بداخله، فنطق بصوت خافت:

- مراتي يا ريسة، تعبانة جدًا وقلتلها ماتنزلش، بس هي ما سمعتش الكلام ونزلت وأغم عليها في الشارع.

- يا خبر! وهي عامله إيه دلوقت؟

- والله يا ريسة هي اتصلت بيا عشان أروح لها، ففقدت أعصابي عشان ما سمعتش الكلام وماقدرتش خوفي عليها وركبت دماغها ونزلت الشغل، وكنت مستني أنهي المعاملة الأخيرة دي مع العميل الرخم وأطلب إذن من حضرتك عشان أروح لها، ولكن اللي حصل حصل.

- وأنت قاعد بتعمل إيه قدامي دلوقت، قوم بسرعة روح لها وقول لمديرك المباشر إنك استاذنتني.

- متشكر جدًا يا ريسة.

نظرة لم تعتد أن ترمق بها الرجال من قبل، رمقته بها؛ قليلون أمثاله بل ندروا، لم يعد هناك رجل يهتم، قالتها في نفسها وعادت لتدفن رأسها وسط أوراقها المتخمة بالأرقام.

دقائق تمر وهي تغرق بكامل إرادتها في بحر الأرقام، طرق خفيف على الباب الزجاجي، ترد وسط الانهماك:

- أدخل.

- هاتِي الميتين جنيه يا ماما، لازم أطير بسرعة عشان ألحق المحاضرة.

- تعال يا حمزة، أقعد.

- ماعنديش وقت، لازم أنط في أول أتوبيس عشان ألحق.

- هاديك فلوس تاكسي، بس أقعد معايا شوية، عاوزاك.

يحك حمزة رأسه ويجلس أمام والدته التي لم يسبق أن طلبت منه أن يجلس معها، المتعجلة دائمًا ولا تعطي له فرصة أن يودعها في الهاتف وتهم بغلق الخط لانشغالها الدائم، ماذا تريدين الآن يا أمي! هل علمتِ بتدخيني للسجائر! ستحل كارثة على حياتي إن علم أبي، سترك يا رب، تحدث حمزة إلى نفسه، تبتسم له أمه المتطلعة في هدوء:

- قل لي يا حمزة بما إنك كبرت وبقيت راجل، إيه اللي ممكن يكون بين الراجل ومراته عشان يهتم بيها ويخاف عليها؟

- الحب طبعًا.

- ولو ما اهتمش بيها ممكن نقول إنه مش بيحبها؟

- مش عارف بصراحة، بس بتسألي السؤال الغريب ده ليه؟

- أبدًا، مجرد سؤال خطر على بالي مش أكتر.

- طيب، هطير أنا، عاوزة مني حاجة؟

- لا، استنى خد فلوسك.

تخرج من حقيبتها ثلاثمائة جنيه وتمد بها يدها إلى حمزة الكاشف عن صفي أسنانه في سرور، يلتقطها منها في حركة رشيقة قائلًا:

- 100 جنيه بحالها يا ست الكل؟ تستاهلي بوسة.

تبتسم له، فيقترب منها ويضع قبلة على جبهتها ثم يمسك يدها ويقبلها:

- ربنا يخليكِ لينا يا ست الحبايب، هامشي أنا بقى.

- خلي بالك من نفسك يا حمزة.

- حاضر يا ماما.

كبرت يا حمزة وأصبحت رجلًا، لقد ضيّعت وقتًا كثيراً بعيدا عنك يا صغيري بحيث أني لم ألحظ لحيتك التي تزين وجهك منذ فترة، ألم أكن أمعن النظر في وجهك؟ تبًا لانشغالي.

***

الثانية عشرة ظهرًا، دقائق معدودة على رفع الأذان، يمسك عزوز بكوب قهوة، يرتشف بضع رشفات ثم يمسك بهاتفه، يمص شفتيه ثم يطلب رقمًا مسجلًا بالذاكرة، يداعب رباط الحذاء النابت فوق شفتيه ريثما يأتيه الصوت من الجهة الأخرى، ابتسامة بلهاء ترتسم على وجهه، هها هها ها ضحكته الشهيرة يعلو صوتها، تتبعها همسات وهمهمات من الغزل، يختلس بضع نظرات بعينيه تجاه الجالسين بالغرفة، الكل منشغل بعمله أو بهاتفه، يعاود الهمهمات، يداعب شعره ويسند مؤخرة رأسه على الحائط، رشفة أخرى من القهوة، هها هها ها "بس أنت عجباني" يقولها بصوت عالٍ متجاهلًا كل الجلوس، الجميع يتبادل النظرات، استنكار واستهجان واشمئزاز، وبعض القرف، يداعب شعره مرة أخرى يتناسى وجوده بمكان العمل، صوت الهمهمات يأخذ الطريق إلى الارتفاع، بات الجميع يسمع كامل المكالمة "طب واللي تحت؟ لونه إيه؟" ترك كل من بالغرفة ما يفعل، أصوات متداخلة تستنكر ما يحدث، يعلو صوت الأستاذ محفوظ موجهًا حديثه إلى العاشق المتحدث بالهاتف:

- يا عم الرومانسي، مالك! ما تحاسب على كلامك!

يداعب عزوز مقدمة رأسه ويشير إلى محفوظ بيده طالبًا منه الانتظار، يكمل حديثه الغرامي "طيب يا حبيبتي، أنا هاقفل دلوقتي عشان ألحق صلاة الضهر".

- لا مؤمن صحيح.

يلقي بها أحد الجلوس متهكمًا، يغلق عزوز الخط ويرتشف آخر رشفة من كوب القهوة، ينظر تجاه محفوظ ويطلق ضحكته:

- ههها ها، مش هنروح نصلي ولا إيه؟

- صلاة إيه بقى بعد اللي كنت بتقوله ده؟

- وفيها إيه يا صاحبي، كل وقت وله أذان ههها ها، سيبها على الله.

- هنصلي هنا ولا في المسجد؟

- خلينا ننزل المسجد، عشان نفطر في أي مطعم بعد الصلاة، هها هها ها.

يخرج عزوز علبة السجائر من درج مكتبه، ويشعل واحدة ريثما ينتهي محفوظ من بعض عمله، فيرفع المؤذن النداء لصلاة الظهر، يخرجان من الغرفة ويتوجهان لأداء الصلاة، بينما يثور كل من بالغرفة على طريقة عزوز الفجة في التحدث والتعامل بداخل المكتب.

***

مكتب المحاماة الخاص بها يقع في منطقة شعبية، تضطر لفتح النوافذ بشكل دائم حتى يعلم المحيطون أن المكتب مفتوح، لا يمكنها اقتناء مكيف فصاحب العقار يرى أنه سيسبب حملًا ثقيلًا على حوائط المنزل – الشبه متهالك - وربما أدى لسقوطه، الكثير من الضوضاء تملأ المكان، الأغاني الشعبية هي الخلفية الدائمة لكل مكالماتها ولقاءاتها، لم يختلف موكلوها كثيرًا عن البيئة المحيطة، الكل هنا شعبي؛ ملامح القسوة تغلف الوجوه البسيطة في محاولة لفرض روح القوة على النفوس.

مكتب نشوى الصياد للمحاماة والاستشارات القانونية، بخط أبيض عريض على لوح أسود معلق في الشرفة كُتبت اليافطة، منذ عشر سنوات وهي قابعة بمكانها لم تتحرك رغم تقدم صاحبتها في السن وتحركها في كادر المحاماة وذيوع اسمها في الجوار، امرأة تعتني جيدًا بمظهرها، داخليًا وخارجيًا، تملك لسانًا حلوًا ووجهًا أحلى، رغم اقترابها من الخمسين إلا أنها مازالت تملك قلبًا شابًا يعشق الحياة، أم تعرف جيدًا كيف تنتج جيلًا ناضجًا واعيًا من الأبناء، لديها ولد وبنت، محمود ومنة الله، هما كل ما تملك من الحياة إلى جانب مكتبها البسيط وزوجها، تغزل من الكلام حلوه، وتصوغ عباراتها بدقة، تجلس خلف مكتبها في هدوء تتطلع إلى بعض الأوراق الخاصة بقضية شائكة غريبة عن المجتمع، قضية تحرش!

فتاة لم تكمل العشرين تتعرض لتحرش لفظي وجسدي من صبي مراهق تجاوز الخمسين ببضع سنوات، اعترض الجميع وهاجم الفتاة التي صممت على تحرير المحضر ورفع القضية، العديد من المحامين رفضوا القضية لاستشعارهم الحرج من الزج باسم رجل خمسيني في قضية مثل تلك، قبلتها نشوى بعد أول مقابلة مع الضحية، التي خافت الفضيحة كما يراها الجميع لاسيما الأهل.

تقلّب نشوى الأوراق علّها تجد داع يدفع الرجل لفعلة كتلك، الفتاة مهذبة ترتدي زيًا محتشمًا، تمشي في وضح النهار، لم تكن مخمورة أو ترتدي زيًا فاضحًا أو حتى تمشي مشية متقصعة كفتيات الليل، عائدة من جامعتها تسير في الشارع حاملة كتبها الدراسية وحقيبة يدها، ومراهق خمسيني هائج كثور يسكن حظيرة حمراء تلقي به الصدفة العثرة في طريقها، إذن ماذا يمكن أن يدفع رجل مثله يبدو عليه الوقار أن يفعل فعلته! هل هو أعزب، أرمل، مطلق! لا هو متزوج ولديه ثلاثة أبناء منهم فتاتان إحداهما بعمر الضحية!

هل أزمة منتصف العمر هي السبب! هل هو ضعف جنسي يحاول تعويضه بفعل كهذا يثبت فيه بعض فحولته! الكثير من الأسباب التي يمكن أن تبني عليها تكهناتها، ويبقى أمامها السؤال الأعظم، ما العقوبة التي يجب أن يحصل عليها رجل متحرش بمثل عمره؟ وهل يجب أن يخضع المتحرش لعلاج نفسي؟ وماذا عن الضحية؟ هل سيرد لها سجن المتحرش جزءا من كرامتها بعد تلك الحادثة؟ أم ستكون وصمة عار على جبينها في مجتمعنا؟ الكثير من الأسئلة دارت بعقل نشوى، وبدأت بالتقافز فوق أوراقها، صوت قوي يرن بعقلها، حفظك الله يا منة الله، تذكرت مقولة أمها أن الفتاة التي تلقى المعاكسات بالشارع ما هو إلا قصاص عادل من أخيها الذي يعاكس بنات الناس، هل تعاكس بنات الناس يا محمود؟ أنا أربيك جيدًا يا ولدي، أرجو ألا تخطئ وتتحمل أختك نتيجة خطأك، ما هذا الهراء

الذي تفكري فيه يا نشوى، لقد ربيتِ أولادك تربية سليمة، وليس هناك دليل قطعي على مقولة أمك، يبدو أن تلك القضية ستجعل من عقلي حلبة للصراع، لطفك يا الله.

عراك بالشارع، تعتاده كثيراً هذه الأيام، مشاحنة بين صديقين يقفان على الناصية ينتج عنها غضب عارم وتراشق بزجاجات المياه الغازية الفارغة، هناك صناديق ممتلئة بها فوق أسطح المنازل لهذا الغرض بالتحديد.

- اقفلي الشباك يا أستاذة.

صوت يرج انتباهها، تنتفض من مكانها وتهم لغلق النافذة ولكن يد أحد المتعاركين بالشارع كانت أسرع من يدها فيطلق زجاجة تصل مباشرة إلى جبهتها وتخط بها جرحًا غائرًا متوسط الطول، ربما يحتاج إلى بعض الغرز، صوت صراخ مكتوم.

- الأستاذة اتبطحت.

ينادي بها عم سيد صاحب محل البقالة المقابل لمكتبها والذي حاول تنبيهها لتغلق النافذة حتى لا تصاب بأذى، أنا السبب في أذيتها، رددها كثيراً، منكم لله يا أولاد الكلب، أخرج عصا كبيرة من خلف فاترينته وضرب بها أحد المتعاركين المحتميين بمحله على ظهره العاري.

- امشي من هنا بدل ما أكسر العصايا دي على راسك يا ابن الكلب.

صوت ولولة وصراخ من امرأة ترتدي جلبابا منزليا مزركشا وتربط رأسها بمنديل صغير، تهرول حافية لمحل البقالة، تجر ابنها عاري الصدر وتوبخه.

- قدامي على البيت، يا تربية الشوارع، يا صايع، فتحت راس الأستاذة يا عديم التربية؟ وديني لاربيك من جديد، هنقول إيه للأستاذة دلوقتي؟ هتزعل مننا، منك لله يا ابني، منك لله.

أم مصطفى سيدة فقيرة تسكن بنفس الشارع الموجود به مكتب نشوى، تساعدها الأولى في أعمال النظافة بالمكتب، وتساعدها نشوى ببعض المال لتعينها على تربية ابنها بعد دخول زوجها السجن في قضية مخدرات حُكم عليه فيها بالمؤبد خمسة عشر عامًا لم يمر منها سوى عامًا واحدًا عانت خلاله أم مصطفى الكثير، لم تعرف نشوى يومًا اسمًا لأم مصطفى سوى ما تناديها به، ولم تعرف أيضًا أن من تسبب لها بهذا الجرح القطعي هو مصطفى الذي كانت تعتبره ابنًا ثانيًا لها، عادت أم مصطفى مهرولة بعدما وضعت عباءة سوداء فوق جلبابها المزركش وصعدت إلى مكتب نشوى، تبكي خجلًا، فوجدتها تجلس وحولها بعض السيدات إحداهن وضعت لها البن فوق الجرح لتكبس الدم وتمنع خروجه.

- حقك عليّ يا ست الستات، والله لأعيد تربيته، فلت عياره يا ست حقك عليّ.

قالتها وهي تدفع السيدات المتجمعات حولها برفق حتى تصل إليها.

- أبوس راسك تسامحيه.

قبّلت رأسها مكان الجرح ولطخ البن شفتيها، مسحتهما بطرف كم العباءة، وأمسكت بها برفق قائلة في خجل:

- اسندِي عليّ يا ست الكل، هنروح الأجزاخانة اللي جنبينا عشان يغيروا على الجرح، بسيطة إن شاء الله.

- الجرح عميق يا أم مصطفى، لازم أروح المستشفى.

- الجرح سطحي يا ست، المستشفى لأ أرجوكِ مستقبل الواد هيضيع.

- ماتخافيش يا أم مصطفى هاقول إن رأسي اتخبطت في الشباك.

- الله يبارك في عمرك يا ست نشوى، وما يوقعك في ضيق.

- الله كريم يا أم مصطفى، بس ساعديني وهاتي شنطتي ومفاتيح العربية وقفلّي المكتب قبل ما ننزل.

- من عيني يا ست، تعالِي امشِ على مهلك.

تسير نشوى ببطء شديد، نزفت كثيرًا وتشعر بالدوار، أثر الصدمة كان قويًا ومباغتًا، أصابها بالذهول لبضع ثوانٍ قبل أن تشعر بخيط الدماء الدافئ يتسلل من الجرح إلى وجهها حتى وصل للرقبة، كادت تفقد وعيها من رؤيتها لون الدم على أصابعها حين مسحت وجهها بيدها، استندت على أم مصطفى حتى وصلت لسيارتها التي تصفها على رأس الشارع، جلست خلف المقود وشعرت بالدوار مازال يلازمها، لاحظت أم مصطفى الجالسة بجوارها عدم اتزانها فقالت في قلق:

- إنتِي بخير يا ست؟

- حاسه إني دايخة.

- طب ما نتصل بالأستاذ ييجي؟

- هو في شغله دلوقت ومش هيقدر ييجي.

- طيب، خلينا نروح بتاكسي عشان نطمن عليكِي.

قالتها أم مصطفى وهي تترجل من السيارة، تهرول حتى أول الشارع العمومي، لتوقف سيارة الأجرة، دقائق تمر ونشوى بالسيارة تشعر بالدوار تحاول العمل بنصيحة أم مصطفى وتتصل بزوجها ولكن أتى صوت السيدة المسجل ليخبرها بأنه غير متاح مؤقتًا، تأففت.

- ومن إمتى كنت متاح.

تركت الهاتف وأسندت رأسها للخلف، صوت بوق السيارة يقترب، ويتبعه صوت أم مصطفى.

- بس أقف هنا، أهي عربية الست.

تقترب منها وتفتح باب السيارة بلهفة:

- انزلِي يا ست، على مهلك.

تقولها وهي تمسك بيدها، وتجلسها بجوار السائق وترجع لتجلس في المقعد الخلفي.

- العربية مفتوحة يا أم مصطفى ناوليني المفتاح.

تمسك بالمفتاح وتغلق السيارة من جهاز التحكم الصغير وينطلق بهما السائق إلى مستشفى قريب.

تجلس تحت يدي الطبيب يخيط لها جرحها في دقة متناهية:

- أرجوك يا دكتور مش عاوزاها تسيب أثر.

تتوسل بها إلى الطبيب حديث التخرج فيرد عليها في هدوء:

- ما تقلقيش يا مدام، أنا أول دفعتي.

تضحك بصوت واهن، مرددة في عقلها "كلكم بتقولوا كده، ربنا يسامحك يا مصطفى" يكمل الطبيب عمله، صوت متقطع يصل إلى هاتفها، رسالة نصية، تمد أم مصطفى يدها بالهاتف تلقي نشوى نظرة على الشاشة من تحت يدي الطبيب فتلمح اسم زوجها "سيبيه يا أم مصطفى" تقولها نشوى في يأس واضح

- قربنا نخلص.

قالها الطبيب الشاب، وهو يلفق الخيط الطبي لينهي عمله، تشعر بالدوار يعصف برأسها مرة أخرى، تخبر الطبيب:

- معلش ده أمر طبيعي، الصدمة قوية ونزفتِي كتير، ارتاحي شوية واشربي كوباية عصير وهتبقي زي الفل.

- شكرًا يا دكتور.

أومأت بها نشوى إلى الطبيب، الذي أسندها حتى اعتدلت في جلستها، طالبًا

من أم مصطفى أن تحضر لها كوب عصير حتى تسترد بعض عافيتها ويمكنها الذهاب للمنزل بعد ذلك، صوت الرسالة يصل مرة أخرى إلى الهاتف، تفتح النشوى الرسالة فتجد رسالة تخبرها بأن الهاتف الذي كانت تحاول الاتصال به أصبح متاحًا الآن، ابتسامة ساخرة ترتسم على وجهها، تغلق الهاتف وتضعه بحقيبتها، تشرب العصير البارد الذي أحضرته لها أم مصطفى ثم تعود معها في سيارة أجرة إلى سيارتها لتعود بها إلى المنزل.

***

الساعة تجاوزت العاشرة، القلق يأكل قلب منة الله ومحمود الجالسين بالمنزل، لم تهاتفهم أمهم للاطمئنان عليهما كما اعتادا كل يوم، وحين حاولا الاتصال بها كان الهاتف مغلقًا، محاولة فاشلة للاتصال بأبيهم الذي يملك هاتفًا غير متاح دائمًا، عدة محاولات أخرى للاتصال بالأم ولكن دون جدوى، يقف محمود بالشرفة وتتخذ منة الله النافذة سكنًا لها، يراقبان الطريق من كلا الجهتين، إن جاءت من ناحية الشارع العمومي سيراها محمود وإن صفت سيارتها بعيدًا ستأتي من الشارع الخلفي وستراها وتطمئن لقدومها منة الله "تبًا لهاتفك يا أمي أيجب أن ينقطع شحنه الآن!" قالتها منة الله في محاولة منها لتهدئة قلبها، نصف ساعة أخرى تمر، ولا شيء يطمئن القلب على الأم.

- هاروحلها المكتب.

قالها محمود وهو يقف بمنتصف الغرفة، تنتبه منة الله لصوته:

- فكرة كويسة، إحنا إزاي ما فكرناش فيها من بدري.

- استغبينا تقريبًا.

- طيب روح بسرعة يالا وماتنساش تليفونك.

تدخل منة الله إلى الشرفة، تترقب وصول أمها في أي لحظة تدعو الله أن تصل

سالمة، ترى أخاها يجري بالشارع ليصل إلى الناصية، يستوقف سيارة أجرة وينطلق بعيدًا عنها.

***

يمر بك العمر؛ يزداد عدد السنين ويقل عدد الناس حولك، تشعر بالوحدة تزحف إلى قلبك، تثقل صدرك، الوهن يتملك من جسدك، كل شيء فيك يصبح ضعيفًا، تفقد فحولتك شيئًا فشيئًا خاصة إن كنت من هؤلاء الذين بدأوا حياتهم الجنسية مبكرًا، خارت قواك يا رجل، تقولها لنفسك كل صباح ومساء، تشبث ببعض الحياة، واستعر بعض الأمل والشباب، ولن يمنحك إياهما سوى عشرينية حسناء، أو ثلاثينية مكتملة الأنوثة، هن فقط من يمكنهن منحك ذلك الشعور بالحياة مرة أخرى.

ينفث عزوز دخان سيجارته بعد حديث قصير يردده كل يوم على نفسه، يستمد به العين لمواجهة زوجته وأبنائه، كان قد انتهى توًا من صلاة العشاء، واتجه لسيارته ليكمل عمله كسائق أجرة، كان يمتهن هذه المهنة منذ شبابه للمساعدة في زيادة دخله ولكن الآن وبعد أن زاد مرتبه وبعد أن ساهمت زوجته في مصروفات المنزل، وأزاحت عنه عبئًا كبيرًا من متطلبات البيت والحياة الزوجية، أصبح يمارس المهنة لمقابلة المزيد من الحسناوات علّ إحداهن تتجاوب مع نكاته الساخنة، وتجاريه في جلسات لتطبيق تلك النكات بالسيارة عند سفح المقطم او أي طريق مظلم هاديء.

الجو حار وقد تجاوزت الساعة التاسعة مساءً، يلف بسيارته في شوارع القاهرة، تشير له عجوز ليقلها فيشيح بنظره عنها، رجل ثلاثيني يحمل علبة حلوى يشير له فيلوح له معتذرًا، زوجان شابان يحملان حقائب عدة عائدان من رحلة للتسوق، تعجبه المرأة فيقف لهما، يطلب منه الزوج توصيلهما إلى مدينة نصر، لا بأس

سيتلذذ بالنظر للزوجة في مرآة السيارة وسيرى العديد من الحسناوات هناك، الجو حار وهو يحب النظر للحسناوات في مثل هذا الطقس؛ حيث يصبحن أكثر إثارة بملابسهم الصيفية، يجلس الرجل إلى جواره بينما تجلس الزوجة في الخلف، حيث مقبض الزجاج الدوار غير موجود، تتأفف الزوجة من الحر، يمد يده إلى الباب المجاور له ويخرج مقبضا صغير:

- المقبض مكسور وانا شايله هنا، هههها ها، استني أفتحهولك.

يمد يده للخلف يلمس إحدى فخذيها تنتفض السيدة، يعتذر منها، لم يكن يريد أكثر من تلك اللمسة ليشعر بحرارة جسدها، يرمقه الرجل بجانب عينيه:

- خد بالك يا حاج.

يقولها الزوج مؤكدًا على كلمة حاج تعبيرًا منه على الغضب من فعلة الرجل، يعتذر منه كما سبق واعتذر لزوجته، يخرج سيجارة من العلبة ويمد بها يده للزوج، يرفض الزوج، يحاول عزوز إشعالها، تسعل الزوجة في الخلف:

- هها هها ها آسف، مضايقاكِ؟

ينظر لعينيها في مرآة السيارة الداخلية، ترد عليه بحسم "مضايقاني جدًا؛ عندي حساسية" يتبعها زوجها "ده غير إنها حامل" - يقولها مؤكدًا على كونها زوجته - يعتذر عزوز للمرة الثالثة خلال دقائق، يبتسم للزوجة في المرآة مرة أخرى ثم يمزح متسائلًا:

- مبروك الحمل، ولد ولا بنت، إن شاء الله؟ هها هها ها، أنا بقول بنت، عشان البنت بتدي أمها حلاوة فوق حلاوتها.

- وأنا بقول تركز على الطريق أفضل يا حاج.

يرد الزوج بغضب واضح على ملامحه ونبرة صوته، يصمت عزوز ويقود السيارة

دون أي كلمة أخرى، يختلس النظرات إلى الزوجة الجالسة في الخلف متأففة من زحام الطريق من وقت لآخر، حتى يصلوا إلى منزلهما ويغادر عزوز المكان باحثًا عن حسناء أخرى تركب معه.

***

تقترب الساعة من الحادية عشرة ومحمود لم يأتِ بعد، تمسك منة الله بهاتفها وتحاول الاتصال به، يُخبرها بأنه لم يصل إلى المكتب بعد؛ الطريق مزدحم جدًا، الحر يُجبر الناس على الخروج للتنزه، ربما تعثروا في نسمة باردة تزيح عناء اليوم، تغلق الخط وعينيها على الشارع، تنتظر أي بشرى قادمة من بعيد، ربع ساعة أخرى تمر حتى لمحت سيارة أمها تقترب، تصفّها نشوى بصعوبة، وتتركها بعيدًا عن الرصيف قليلًا، تسير بخطوات متعبة حتى تصل إلى المنزل، كانت منة الله قد شاهدت رأسها المربوط، فانخلع قلبها وراحت تجري نزولًا على السلم لتصل إلى أمها وتساعدها، بعينٍ دامعة قالت في لهفة:

- ما لك ياماما؟ حصل إيه؟

- أنا كويسة يا منة ماتقلقيش.

- إنتِي متعورة في راسك، وبتقوليلي ما أقلقشِ! عملتِي حادثة ولا إيه؟

- راسي اتخبطت في الشباك، ما تقلقيش، ياللا نطلع أنا تعبانة جدًا.

صعدتا إلى المنزل، ارتمت نشوى بجسدها على السرير، وكأنها تلقي بحمل ثقيل من فوق كتفيها، ساعدتها منة الله على تغيير ملابسها، ووضعت لها وسادة خلف ظهرها لتتمكن من الجلوس بشكل مريح، لاحظت نشوى عدم وجود محمود فسألت عنه، أخبرتها منة الله أنه ذهب إلى مكتبها ليطمئن عليها حين تأخرت وأُغلق هاتفها، أمسكت نشوى بهاتفها وطلبت رقمه، لم تكمل الرقم حتى رن

جرس الباب، كان الوالد قد عاد بعد جولة قصيرة بالسيارة دون زبائن ترضي غريزته، فاستسلم عائدًا يجر خيبته خلفه.

- مساء الخير.

- تعال بسرعة يا بابا.

قالتها منة الله بلهفة ووجها مغطى باللون الأصفر من شدة الخوف.

- في إيه؟

- ماما متعورة في راسها ومتخيطة.

جرى عزوز ناحية غرفة النوم ليجد نشوى مستلقية في هدوء تحاول الحصول على بعض الراحة، اقترب منها في لهفة وأمسك بيدها وقبلها قائلًا:

- سلامتك يا حبيبتي، حصل إيه؟

فتحت نشوى عينيها قائلة وهي تسحب يدها من يده:

- مفيش حاجة أنا كويسة، جرح صغير اتخيط والموضوع خلص.

اعتدل عزوز في جلسته وأصبح مواجهًا لها وقال مستنكرًا:

- وما اتصلتيش بيا ليه كنت جيت لك؟

ضحكة قصيرة جدًا أطلقتها نشوى تبعتها بتنهيدة قوية تنم عن حزن دفين قائلة في هدوء:

- وهو تليفونك كان مفتوح يا عزوز؟

- ها! ها ها ها، إنتِي عارفه إن بطاريته بايظه وبيفصل بسرعة.

- آه، وبتشحن لوحدها بعد ما يتقفل شوية، مش كده برضه يا عزوز؟

- ها ها ها، إنتِي عارفه كل حاجة يا حبيبتي، أحبك وانتِي ناصحة.

- سيبني في حالي يا عزوز، أنا تعبانة وعايزة أرتاح.

- طيب طيب، بس هو في عشاء؟ ولا أبعت محمود يجيب أي حاجة جاهزة؟

- محمود مش هنا، روح أنت جيب لنفسك.

- مش مشكلة، هاستناه لما يرجع.

تتجاهل نشوى الرد عليه وتمسك هاتفها لتعاود الاتصال بمحمود الذي يخبرها أنه في الطريق للمنزل.

يتركها عزوز ويقوم إلى الشرفة ليدخن سيجارة ويطلب محفوظ ليرافقه إلى المقهى القريب.

***

- مش مهم يا مدام، هوريكي واحدة أحسن وأوسع منها.

قالها محفوظ لسيدة أربعينية تبحث عن شقة جديدة، يساعدها في العثور على واحدة مناسبة كونه صاحب مكتب لسمسرة العقارات، أسسه منذ عامين بعد أن أتقن المهنة واحترفها بعمله بأكثر من مكان مشابه، فقرر العمل منفردًا للاستفادة الكاملة من كل مبلغ يحصل عليه مقابل توسطه في عملية بيع أو شراء، في محاولة منه لسد الفجوة المادية بينه وبين زوجته.

ابتسمت له موجهة نظرها لشاب في أوائل العشرينات قائلة في غنج:

- إيه رأيك يا حبيبي؟

- حاسسها صغيرة، عايزين واحدة أكبر؛ خلينا نشوف اللي بيقول عليها.

- بس هتكون أغلى.

- مش مهم، المهم إنها تعجبنا.

قالها الشاب متوجهًا بالكلام إلى الأستاذ محفوظ:

- أتمنى الشقة تعجبنا المرة دي يا أستاذ محفوظ، تعبنا من اللف.

- ما تقلقش، أنا واثق إنها هتعجبكم.

أسند الشاب السيدة، كان محفوظ ينظر لهما نظرة مريبة، يراهما بوضع شاذ سيدة، في نهاية الأربيعينات، وشاب في مقتبل العشرينات، يرتبطان بعلاقة عاطفية تمهيدًا للزواج "يالهما من معتوهين، إنها بعمر أمه! عجبي عليك يا زمن!" قالها محفوظ في نفسه منتقدًا العلاقة التي يراها بينهما.

انتقلا إلى عقار جديد يجدا فيه ضالتهما، وافقت السيدة وتبعها الشاب بالموافقة:

- خلاص يا أستاذ محفوظ حلوة دي هناخدها.

قالتها السيدة ثم توجهت بنظرها إلى الشاب:

- ربنا يجعلها قدم السعد يا حبيبي.

- آمين يا رب.

- تحبي نكتب العقد امتى يا مدام؟

قالها محفوظ بحماس؛ حيث سينال مبلغا كبيرا من سمسرة هذه العملية.

- بكره الصبح إن شاء الله، هروح البنك أجيب الفلوس ونتقابل هنا الساعة 12 بالتمام.

- بإذن الله.

***

"كان يومًا طويلًا مابين العمل بالحكومة صباحًا، ومكتب السمسرة مساءً، أتعبتني تلك السيدة في البحث، ثرثارة؛ لا يعجبها شيء، تذكرني بإلهام تمتلك كل شيء بنقودها، تبًا لها ولكل امرأة تمتلك المال.

تحدث محفوظ إلى نفسه أثناء قيادته لسيارته في طريقه إلى المنزل، كانت الساعة قد قاربت على الحادية عشرة مساءً، يتمنى من كل قلبه أن يعود ليجد زوجته قد سبقته إلى النوم، فهو ليس بحاجة لثرثرتها اليومية حول ما تعانيه في مركزها المرموق" وكلهم اتخرسوا يا محفوظ ومحدش عرف يرد عليا بكلمة " يقولها بسخرية ثم يصدر نصف ضحكة يتبعها بتنهيدة طويلة "وكأنكِ أقوى ست على الكوكب، ست متكبرة".

يقترب من المنزل، يرن هاتفه ليقطع حديثه مع نفسه:

- السلام عليكم.

- ....

- لسه في الطريق.

- ....

- لا لسه مخلص مع زبونة في شقة.

- .....

- اتقِ الله يا أخي، أنا مش كده.

- ....

- أنت تعملها، إنما أنا لأ، أنا بخاف على بيتي وبنتي.

- ...

- قهوة! دلوقت! لا طبعًا؛ أنا تعبان جدًا.

- ....

- يا أخي اشغل وقتك بالصلاة وقراءة القرآن بدل الهلس ده، اتق الله عشان يبارك لك في رزقك وبيتك وأهلك.

- ....

- اه، أنا الشيخ محفوظ قول زي ماتحب، بس أنا مش هكون زي ما انت عاوز، بقولك إيه؟ أنا وصلت خلاص، سلام.

أنهى محفوظ مكالمته وهو في حالة إستياء شديد، أكثر من الاستغفار، وصعد إلى منزله ليجد زوجته تجلس بانتظاره، راسمة ابتسامة على وجهها، دخل لغرفته لتغيير ملابسه وخرج ليجد طعام العشاء على الطاولة:

- يا حمزة! يا عائشة!

نادى بصوت عالٍ فلم يجبه أحد، توجه بالحديث إلى الزوجة التي جلست لتضع الطعام في الأطباق:

- فين الولاد يا أم حمزة؟

- كل واحد في أوضته.

- نادي عليهم نتعشى مع بعض.

- طلبوا أكل جاهز من بره واتعشوا قبل ما تيجي بساعة.

- أنا كرهت العيشة دي، مش عارف آكل لقمة مع ولادي زي أي أب طبيعي، وطبعًا اديتيلهم حق الأكل.

- أومال أسيبهم جعانين؟

- كان لازم يستنوني وياكلوا معايا.

- بكره هاقولهم يستنوك.

- وهو أنا هشحت ولادي عشان أتعشى معاهم؟

- محفوظ! أنا تعبانة وعندي شغل الصبح، ومش حمل أي خناق دلوقت، لو عاوز تتخانق، عيالك في أوضهم روح اتخانق معاهم، تصبح على خير.

قالتها إلهام بانفعال، ألقت الملعقة من يدها وقامت لغرفتها، وقف محفوظ في منتصف المنزل يصرخ بصوت عالٍ وينادي على أولاده الذين لم يكلفوا أنفسهم بالرد عليه، فقد كان كلٌ منهم مشغول بما يفعله، حمزة يتحدث مع صديقته الألمانية، وعائشة تراقص أحلامها في حرية مسروقة.

لم يجد محفوظ من صراخه نفعًا فركل منضدة صغيرة كانت بطريقه إلى غرفة نومه المجاورة لغرفة إلهام وأغلق الباب خلفه بقوة.

***

وحيدة تقضي الليلة تلو الأخرى على مدار أعوام، رغم وجود زوجها بالغرفة المجاورة إلا أنها تعاني مرارة الوحدة، أبناؤها ليسا أوفر حظًا منها، كليهما تعساء كما قلبها، تزوجته منذ ربع قرن من الزمن، لم يكن حاله كالآن، كان يحبها، هذه هي الجملة الأقرب لوصفه حين ذاك، حبه لها كان يغنيها عن كل شيء، حتى أنها كادت تترك عملها ذات مرة حتى تشعر بحبه لها يعود إلى قلبه مرة أخرى، ولكن بعد تفكير طويل أيقنت أن العمل هو الباقي لها بعدما هجرها زوجها في الفراش وأصبحا غريبين يعيشان بمنزل واحد لتكتمل صورة الأسرة السعيدة أمام الجميع، ولا يعرف حقيقة تلك الأيام المرة سوى هي وصغيريها المنشغلين عن تلك المرارة بمرارهما الخاص.

تجلس أمام المرآة تتأمل ملامح وجهها، اشتاقت لابتسامتها ومداعبات زوجها لها.

"لقد ولّت تلك الأيام يا إلهام، كان لابد لكِ من الاختيار بين محفوظ وحبه وبين منصب المدير وشقائه" كان الاختيار صعبًا مميتًا، ولكن تلك الفترة هي الأصعب على الإطلاق فموجات الحنين لمشاعرها الأنثوية طاغية على أفكارها، كلما حاولت الهرب منها كلما راوضتها أكثر عن نفسها، تركض بكامل سرعتها نحو الصبر ولكن

الصبر يأبى أن يبقى، يتركها لتقع فريسة في شباك الحنين، غابات الذكريات تحجب شمس السعادة عن واقعها، لتبقى في صقيع غرفتها تتقلب فوق فراش الوحدة.

طرقات خفيفة على الباب تدفئ الصقيع المحيط بها، تشرق الشمس بها بعد شتاء أوروبي طويل، تمعن النظر في المرآة تعدل من وضعية شعرها وتظبط ملابس تظهر القليل من جسدها المتواري خلف قميص نوم كادت العتّة أن تفتك به لولا أنها أخرجته من رفه المظلم، تذكر تلك الطرقات جيدًا كان محفوظ معتادا عليها قبل الدخول إلى غرفة نومهما حين كانا ينامان بنفس الغرفة قبل أعوام، الآن عادت تلك الطرقات لتجعل قلبها ينبض من جديد، لقد عاد محفوظ إليها، بصوت ناعم أجابت:

- أدخل.

ولج محفوظ إلى الغرفة مترددًا، كان يحمل الكثير من العبارات المتوارية خلف هذا التردد الذي استطاعت إلهام أن تلمحه على وجهه، فهو زوجها الذي تحفظ ملامحه جيدًا وتعرف تمامًا أوقات هدوئه وأوقات توتره، وقف بجوار الباب، فأشارت له:

- ادخل يا محفوظ، مالك؟ مستني عزومة في بيتك؟

- لا أبدًا بس فكرتك نايمه.

- لا لسه مانمتش، تعالى أقعد جنبي.

كانت قد اتخذت لجسدها مكانًا على أريكة وثيرة في طرف الغرفة تستعملها للاسترخاء في وسط اليوم بدلًا من الهروب للنوم، تنظر له بلهفة عاشقة في الثلاثين تلتقي حبيبها في ليلة زفافهما بعد انتظار أعوام وأعوام، اقترب منها وجلس على يسارها، واضعًا كفيه بين فخذيه في حركة لا إرادية حتى لا تلمس يده جسدها أثناء الحديث، غصة أصابت قلبها من ذلك الفعل، كانت تتوقع قربًا أكثر دفئًا من هذا، الأنثى بداخلها دفعتها إلى الاقتراب منه، فاقتربت.. رفع يديه أمامها قائلًا في توتر:

- في إيه يا إلهام؟

- في إيه أنت يا محفوظ؟ ماوحشتكش؟

- اعقلي يا إلهام إحنا كبرنا على الحاجات دي، خلاص عيالنا بقوا أطول مننا.

- اتكلم عن نفسك بس يا خويا أنا لسه شباب وحلوة.

- ماشي يا ستي أنت شباب وحلوة وأنا عجزت، فاهدي بقى عشان أنا جاي أتكلم معاكي في موضوع مهم.

- مش وقت مواضيع دلوقت يا محفوظ.

- لا وقتها ولو سمحتي بطلي الحاجات دي.

تكتم صرخة والكثير من السباب بداخلها وتجلس تحاول لملمة شتات روحها التي تبعثرت أسفل كلماته الطاحنة لأنوثتها.

- خير يا محفوظ إيه الموضوع المهم اللي جاي تكلمني فيه بعد نص الليل؟

- بصي يا إلهام، إنتي مؤمنة بربنا وكلامه صح؟

- أكيد طبعًا ونعم بالله.

- يعني عارفة شرع ربنا كويس وهترضي بيه.

- وضح كلامك يا محفوظ.

- بصي يا ست الكل، إحنا دلوقتي بقالنا كام سنة عايشين زي الاخوات؟

- داخلين في عشر سنين.

- وهل في راجل يقدر يصبر كل ده بدون علاقة مع زوجته؟

- والله زوجته قدامه هو اللي رافضها.

- بدون الخوض في تفاصيل يا إلهام إنتي عارفة إنك مكسرّة كلامي وأنا شايفك

ناشز ومش هتاخدي حقوقك الشرعية طول ما انتي مش عايزة ترضيني وتقعدي من شغلك، فموضوع زوجته قدامه وهو رافضها ده مش هيجيب معايا نتيجة.

- أومال انت جاي عاوز إيه يا محفوظ؟

- بصي يا بنت الناس، إنتي مراتي وأم عيالي وده بيتك وهتعيشي فيه معززة مكرمة، وهتفضلي على زمتي، بس أنا عاوز أمارس حقوقي الشرعية مع واحدة أرتضيها زوجة مطيعة ليا.

- إنت اتجننت يا محفوظ؟ ده انت عديت الخمسين!

- ما إنتي لسه قايلة إننا لسه شباب وزي الفل.

- تقوم تتجوز عليا يا راجل يا ناقص!

- احفظي لسانك عشان أحفظك، أنا مش جاي أطلب منك الإذن، أنا جاي أبلغك بقرار أخدته بعد تفكير طويل.

- وياترى لقيت عروسة ولا عاوزني أدور لك بالمرة؟

- لا يا ستي مش عاوز منك حاجة، أنا هلاقيها بمعرفتي ومن هنا لحد ما ألاقيها هسيب البيت وأسكن في شقة صغيرة كده كنت واخدها من فترة قريبة ووضبتها، وهابقى أسأل عليكي إنتي والعيال، ونفهمهم إني بسافر للشغل في أي مكان بعيد عشان يتعودوا على عدم بياتي معاكم في البيت بشكل دائم زي الأول.

- ده انت مرتب كل حاجة بقى ومظبط أمورك، ومش بعيد تكون اتجوزت من زمان.

- لا لسه ما تجوزتش ولو اتجوزت مش هخاف منك ولا هتكسف أقولك إني اتجوزت، وللمرة التانية كلامي ده معاكِي من باب علمك بالأمر زي الشرع ما بيقول.

- شرع! وهو الشرع بيقول إنك تهجر مراتك عشر سنين وبعدين ترجع تقول بدور على حقوقي الشرعية! أنهي شرع وأنهي دين بيقول كده يا شيخ محفوظ!

- شرع ربنا يا إلهام، اعترضي على شرع ربنا كمان!

تصمت للحظات، تتجمع الدموع بعينيها وتغلي الدماء بعروقها، تحمل الكثير من الأنين بروحها، تريد أن تصب جام غضبها عليه، تقذفه بأي شيء في وجهه؛ علّه يفيق من غفلته ويعود إلى سابق حبه، تمتلك الآن بعض الشجاعة للرد على كلماته الجارحة لكرامتها، تقذفها بوجهه كما اعتادت أن تقذف حلو الكلام ومعسوله عليه في السابق:

- انت لا تعرف رب ولا شرع ولا دين، أنا مش عارفه أنت بتعمل فينا كده ليه! إنت إيه يا أخي! إنت إيه! ماعندكش لا قلب ولا دم ولا إحساس! جاي بمنتهى البرود تقولي هتجوز عليكي بعد هجرك ليا السنين دي كلها وتقولي شرع! يا أخي ملعون ده شرع مغاير لشرع ربنا، ربنا عمره ما يرضى بظلمك ده أبدًا، روح منك لله يا محفوظ، روح منك لله.

يعلو صوتهما ويسري في صمت الليل ليصل إلى آذان صغارهما المنشغلين بغرفتيهما، فيفيقوا على صوت الشجار الناشب بين الأب والأم تحت جنح الليل، تنفتح الأبواب ويخرج الأولاد مسرعين إلى غرفة الأم حيث الصوت المرتفع، تنظر عائشة تجاه حمزة في ذعر، يطرق حمزة الباب مترددًا، فلم يجبه أحد، يكرر الطرق فتسبق يد عائشة يده هذه المرة وتمسك بمقبض الباب وتفتحه، لحظات صامتة مرّت على أربعتهم، جدران البيت السعيد الذي حاولوا جاهدين طوال عشرة أعوام أن يبقوها هادئة مستقرة تنهار أمام أعينهم، الأب المثالي والأم الهادئة لم يعودا كذلك، الصغار غير المبالين أصبحا الآن مبالين جدًا حتى عائشة الهادئة وقفت بمنتصف الغرفة بصوت عالٍ تصيح:

- كفاية خناق بقى حرام عليكم، أنا مش بحبكم، أنا عايزة أب وأم غيركم، إنتم مفكرينا مش فاهمين حاجة، بس إحنا فاهمين كل حاجة، فاهمين إنكم على طول مكشرين وزعلانين مهما حاولتوا تبينوا إنكم بتضحكوا، لو انت عايز تمشي يا بابا امشي، بس خلينا نعيش كويسين ومش زعلانين ولا متنكدين، عشان أنا قرفت وزهقت من الخناق ده.

وقع كلام عائشة على آذانهما كالصاعقة، لم يكن أحدهما يتخيل أن تلك الفتاة الصامتة أغلب الوقت تحمل هذا الكم من الهم والأرق داخل نفسها، بحيث تقف لتلقي عليهما مثل تلك الخطبة القصيرة التي تحمل الكثير من اللوم والعتب.

اقترب محفوظ من عائشة وأجاب طلبها الصغير بالمغادرة بصفعة قوية على وجهها، تلاها بعض السباب لها ولأمها ولأخيها، ثم خرج من الغرفة متجهًا إلى باب الشقة، صفقه خلفه وانصرف.

***

بركان من غضب يملأ وجهه، العروق تنفر من جبهته وعنقه، الدم يغلي برأسه، كيف لها أن تحدثه بتلك الطريقة! الآن صارت تتحداه وترد عليه بمنتهى الجبروت، لم تكن تلك إلهام التي يحفظ تصرفاتها وردود أفعالها عن ظهر قلب، ماذا حل بها! أدرك الآن تأثير القسوة والهجر على النساء؛ لم يكن يعلم أن لهما ذلك التأثير الجبار، خرج من المنزل وهو لا يعلم أين يذهب، لا يريد الجلوس بمفرده الآن، يشعر أن شيئًا سيئًا ربما حدث له، لم يجد شيئًا يهوّن عليه ذلك الحدث سوى صديقه العزيز عزوز، الذي عاود الاتصال به واتفقا على أن يتقابلا بمقهى قريب من منزل عزوز.

أخذ محفوظ سيارته واتجه مباشرة إلى المقهى، كان عزوز قد سبقه إلى هناك وقد طلب طعامًا من المطعم المجاور له ولمحفوظ:

- السلام عليكم.

- ها ها ها، وعليكم السلام، اتأخرت ليه يا شيخ محفوظ؟

- مسافة السكة، الطريق زحمة يا أخي مش عارف إيه الناس اللي سايبه بيوتها دي وإحنا عدينا نص الليل؟

- ما إحنا سايبينها أهو إحنا كمان يا سيدي، وبعدين الجو حر يعني وحصيرة الصيف واسعة.

- على رأيك ما أنا بقيت من أرباب القهاوي زيك أهو على آخر الزمن.

- روق يا عم كده بس واحكيلي حصل إيه خلاك تغير رأيك وتنزل كده؟

- أقولك إيه بس يا عزوز يا خويا والله ما عارف.

يقطع حديثهما فتى يحمل أطباق سلطة وخبز ليضعها أمام الرجلين المنهمكين في الحديث، يضحك عزوز ضحكته الشهيرة ويتوجه بحديثه إلى الفتى:

- أيوه كده، الله ينور، كتر السلطة وهات عيش تاني ها؟ وزودلي ربع طرب بالله عليك.

- تؤمر يا باشا.

يتابع محفوظ الحديث بينهما لينصرف الفتى ليحضر باقي الطعام:

- إيه ده كله يا عم عزوز إنت عامل وليمة؟

- ياعم قوّت نفسك إحنا شقيانين من الصبح والنسوان ولا حاسين بينا، أنا من صباحية ربنا على لقمة الفطار اللي كلتها معاك في الشغل.

- ومين سمعك يا صاحبي، أنا كمان ما دقتش لقمة من ساعتها.

- ما أنا حسيت عشان كده طلبت أكل بزيادة عشان تاكل براحتك وتشبع بطنك، وسيبك من أي حد.

- حاسس بيا، الله يباركلك.

- ها يا سيدي احكيلي بقى حصل إيه؟

- طب لما ناكل ونشرب الشاي عشان نفسي ما تتسدش بالله عليه.

- وماله ناكل ونظبط الطاسة وتحكيلي، وأهو باقي الأكل جه أهو.

ينهيان الطعام ويطلبان كوبين من الشاي، ويطلب عزوز من صبي المقهى أن يجلب له صندوق الطاولة؛ ليسليا وقتهما أثناء الحديث، بينما يعترض محفوظ قائلًا في حزم:

- لا ياعم أستغفر الله العظيم طاولة إيه، هنلعب نرد على آخر الزمن؟

- إيه ياعم الكلام الكبير ده؟ نرد إيه وبتاع إيه؟ دي طاولة بتاعة الدش والدبش والدوسة دي.

- ما أنا عارف يا أخي بس ده فيها رمي نرد وكده شبهات وحرمانية.

- نرد!! اه تقصد الزهر؟ ياسيدي ياريت بس الزهر يلعب كده وهتزهزه والله وتبقى فل، وبعدين إحنا مش بنلعب على فلوس عشان تستحرمها.

- لا برضه فيها حرمانية، ده النص صريح فيها.

- بقولك إيه يا محفوظ، استهدى بالله كده وصل على النبي في قلبك.

- عليه الصلاة والسلام.

- قولي بقى هتلعب بالأبيض ولا الأسود؟

يصمت محفوظ قليلًا ثم يرد قائلًا:

- بالأسود عشان تبقى ليلتك سودا لما أغلبك.

- أيوه بقى هتولع أهي والله.

يرد بها عزوز مصفقًا بكفيه في حماس زائد، يمسك حجري النرد ويلقي بهما على الصندوق الخشبي فيتدحرجان في لطف تاركين خلفهما عاصفة صغيرة شبيهة بتلك التي تدور بعقل محفوظ.

***

تمر الساعات والصمت يخيم على المنزل الصغير المتصدعة حوائطه منذ قليل، تستمر إلهام في جلستها على الأريكة محاولة نيل بعض الهدوء النفسي ولكن ما أطلعها محفوظ عليه أمر لا يستحق أي هدوء؛ لقد بعثرها بكلماته المستترة خلف قناع الدين والشرع، جعلها تكره كل لحظة حب منحته له فيما سبق، ابتعاده عنها جعلها تشعر برخص مشاعرها التي كادت تفتك بها أثناء جلوسه إلى جوارها، تمنت لو انشقت الأرض وابتلعت تلك المهانة، لو أنها لفظت أنفاسها قبل عرض نفسها عليه ورفضه لها بهذه الطريقة المهينة التي ختمها بموضوع زواجه الثاني، ولكن رغم كل ذلك قابلت كل ما حدث برد فعل هادئ جدًا بعد انصرافه من المنزل، وكأنها أصبحت مخدرة المشاعر، جالت ببصرها في الغرفة المطلية حوائطها بلون أخضر فاتح مريح للأعصاب وتنهدّت حتى خرج الهواء من صدرها يحمل الكثير من الهم الذي كان يقبع فوق صدرها، قامت إلى المرآة وظلت تداعب وجهها ومؤخرة رأسها بأصابعها، حتى باتت شبه ناعسة، قامت إلى السرير واستلقت ممسكة بهاتفها، الأيقونة الخضراء المزينة بسماعة هاتف بيضاء تراود قلبها عن نفسه تضغط الشاشة بسبابتها فيفتح التطبيق قائمته تختار اسمًا منه تنقر فوق الصورة الملاصقة له فتكبرها، تتطلع إليها في هيام ملحوظ، ثم تقبل إصبعها وتطبع القبلة في الصورة، تغلق الهاتف وتذهب في نوم عميق علّها تقابل صاحب الصورة في حلم جميل.

***

على بعد خطوات من باب غرفتها، باب آخر يقبع خلفه عالم آخر يعيش فيه حمزة مع ريبيكا في محادثة طويلة عبر الإنترنت، يشكو لها ما يعانيه من معاملة والده الجافة، واحتياجه لحنان والدته التي انطفأ وهجها وانطفأ معه الكثير من المشاعر حتى تجاهه هو وأُخته، يحاول إفراغ بعض طاقته السلبية في الحديث معها، اقترحت عليه ريبيكا اقتراحًا حتى يخرج من تلك الحالة، تردد في البداية ولكن بعد تفكير عميق أعجبه الاقتراح وقرر مفاتحة والده فيه حين تسمح أول فرصة للقائهما.

الثانية صباحًا تقترب، شعر حمزة بثقل في جفنيه، أنهى المحادثة مع ريبيكا وذهب للنوم، ولكن النوم أبى أن ينصاع لثقل جفنيه فكان عقله يعمل بكامل قوته، كيف يمكنه عرض ذلك الاقتراح على والده الأستاذ محفوظ الذي يرى في كل شيء عيبًا! هل يوسّط والدته بينهما! ولكن الأمور قد ساءت كثيرًا هذه الليلة لن يكون هناك حوار هادئ بهذا المنزل مرة أخرى، تبًا كل شيء قد ساء كثيرًا، سيكون الأمر أشبه بمغامرة مجهولة، رغم علمه برد والده على هذا الاقتراح ولكنه سيخوض التجربة، لن يخسر شيئًا أكثر من دفء هذه الأسرة التعيسة.

طرق خفيف على الباب يتبعه صمت، ينتبه حمزة لصوت الطرقات التي تكررت مرة أخرى فقام من سريره وفتح الباب ليجد عائشة تقف أمامه مطأطئة الرأس، عيناها كتلة من الدماء، احتضنها حمزة ولام نفسه على عدم تواجده معها طوال تلك الساعات، جلست على مقعد قريب تفرك عينيها وتشهق من آن لآخر، لا تتحدث بشيء ولكن شهقاتها كانت تحمل الكثير.

***

الخيال؛ وما أدراك ما الخيال، يمكنك أن تتذوق كل شيء فيه وتمارسه بمنتهى السهولة، طعام شهي، مشروب مثلج في يوم حار جدًا، أو حتى قبلة، عناق، كان الحاج سلامة عبد الصبور صاحب محل ملابس حريمي كبير في وسط المدينة، رجل خمسيني يبدو عليه مظاهر الالتزام، والرقي، متزوج ولديه ثلاثة أبناء، يعمل لديه بالمحل خمس فتيات، من ضمنهن عنان الفاتنة كما يحب أن يسميها، يعاملها كابنته الصغرى أسماء التي تكبرها ببضعة أعوام، كان يعلم بضيق حالها ووالدتها، فكان يساعدها بعيدًا عن أعين باقي الفتيات اللاتي كان يرى فيهن ترفا أكثر منها وإن كن في حاجة للمساعدة.

كان يرى في زرقة عينيها فتنة لا تُضاهى، لذا كان يتلاشى النظر إلى عينيها مباشرة، ما اعتبرته هي هروبًا من جمالها، كانت دائمًا ما تترك العنان لخيالها فتراه فارس أحلامها، رجلٌ وقور، يغزو البياض لحيته وشعره بشكل منمق يجعله مثيرا جدًا، ولكن انتفاخ جيبه الدائم كان أكثر إثارة بالنسبة لها "هيغرقني فلوس، ويخليني أميرة، لا ملكة، بنت بجمالي لازم تتجوز راجل زيه؛ يملى عينيها وقلبها وكيس فلوسها، ومفيش أحسن ولا أغنى منه عشان أوقعه فيا"، كانت دائمًا ما تتحدث إلى نفسها في لحظات شرودها قبل أن تفيق منها على صوته الحنون يطلب منها كوب ماء يروي به عطشه، فتهرول محضرة إياه لتجد فرصة تمارس فيها أنوثتها عليه.

*****

الثانية ظهرًا، يقف الجميع أمام إحدى الغرف منتظرين أن يُفتح دفتر الحضور والانصراف ليقوموا بنقش أسمائهم في خاناتهم الصغيرة، إعلانًا لبدء مرحلة جديدة من اليوم خارج هذا المبنى الحكومي الضخم بوسط المدينة، فيتوجه بعضهم إلى المنزل والبعض الآخر يبدأ رحلة جديدة للذهاب لعمل آخر، محاسب في شركة خاصة، كاتب في مصنع، بائع في محل، سكرتير بمكتب محاماة، سائق تاكسي، سمسار، الكثير منهم يمارس عملًا ثانيًا في محاولة بائسة لتقليص الفرق بين ما يتقاضونه وبين ما يجب عليهم دفعه ليمر الشهر بسلام دون استدانة من أحد.

تنقش سماح اسمها بخط متعرج؛ فهي لا تجيد الإمساك بالقلم نظرًا لقلة مستوى تعليمها، اليوم هو الخميس موعد ذهابها لعملها الثاني، الذي تمارسه مرة واحدة في الأسبوع بمنزل الحاج سلامة عبد الصبور، حيث تذهب لتساعد زوجته الحاجة سليمة في أعمال المنزل من نظافة وطبخ وغيرها، كانت ترى في تناسق اسمي سلامة وسليمة مسحة رومانسية من القدر على هذا المنزل، فكانت تأنس فيه برفقتهم، وتعتبر ذهابها كل خميس، كزيارة لمكان تأخذ منه جرعة كبيرة من الحب والسلام النفسي الذي تفتقده بهذا العمر، حالمة جدًا بشكل لا يليق بامرأة في ظروفها، ولكن الحلم هو ما يجعلها تتشبث ببعض الأمل في حياة أفضل، سماح وسامح أو سميح أو حتى المعلم زينهم السماحي من مسلسل ليالي الحلمية، كانت تتمنى رجل بحياتها يحمل أي اسم يتناسق مع اسمها فيجعلها تعيش في هالة من التسامح كما ترى السلام والسلامة في منزل سلامة وسليمة.

المصعد في طريقه للدور التاسع، تقف بأول طابور قصير، ويقف خلفها عزوز وباقي الموظفين خلفه، في انتظار المصعد الذي يمتلئ عن آخره من الدور الخامس فيتركهم في انتظاره بضع دقائق أخرى، تتأفف سماح من الوقفة، يلاحظ عزوز تأففها، فيضحك ضحكته الشهيرة، مداعبًا شاربه العجيب، هامسًا لها:

- هها هها ها، زهقتِ مش كده؟

- اتأخر وأنا عندي شغل تاني، مش عاوزة اتأخر.

- تعالي أوصلك بالعربية.

قالها بخبث، فابتسمت سماح ابتسامة مجاملة قائلة في حزم:

- شكرًا يا أستاذ عزوز، مكان الشغل قريب، أنا بتمشى الطريق لهناك.

- كنت عاوز أريحك.

قالها وانفتح باب المصعد أمامهم، فعلا صوت سماح موبخة عامل المصعد، وتبعها الوقوف خلفهم.

ظل عزوز يراقب سماح أثناء وقوفهم بالمصعد، يداعب جسدها البض المتقد من نار الوحدة في خياله الذي يزينه له، ويزيده وهجًا في عينيه، حتى وصل المصعد للدور الأرضي، خرجت سماح تهرول ناحية باب الخروج، تبعها عزوز محاولًا تكرار عرضه بتوصيلها إلى مكان عملها رغم علمه بقربه، تتوقف سماح بمنتصف الطرقة الواصلة من المصعد للباب، وردت بصوت عالٍ:

- شكرًا يا أستاذ عزوز أنا ما طلبتش منك توصيلة.

قالتها وانصرفت تاركة عزوز يغرق في نظرات الموظفين له ما بين لوم واستنكار، استجمع المتبقي من كرامته في لحظات وتوجه إلى سيارته.

***

منزل هادئ بحي عابدين، مكون من طابقين مبني على الطراز القديم حيث السقف العالي المعرّق بألواح خشبية، نوافذ مرتفعة وأبواب عريضة، يمكنك أن تستنشق رائحة الطيب والبخور بمجرد أن تعبر قربه، ورثه الحاج سلامة عن والده،

يعيش هو وأسرته بهذا المنزل الهادئ، حيث جعل الدور الأرضي للاستقبال، والدور الثاني لغرف النوم، والجلوس وغرفة الطعام.

بالطابق الثاني بجوار النافذة تجلس الحاجة سليمة في توتر؛ تلتمس نسمة عابرة تريح قلبها القلق دائمًا على بناتها، الساعة اقتربت من الثالثة ولم تعد علياء وأسماء، كانتا قد ذهبتا لشراء أحذية جديدة استعدادًا لزفاف أسماء الذي اقترب موعده، الحاجة سليمة تطالع الشارع كل دقيقة، عربة خشبية يدفعها رجل مسن تمر من تحت المنزل ينادي الرجل بصوت واهن، "أبو حلاوة يا تين" أسماء تحب التين؛ تنادي الحاجة سليمة على الرجل وتطلب منه عشرين حبة، فالحاج سلامة أيضًا يحب التين، وعلياء تأكل كل شيء، يقشّر الرجل حبات التين بسكينه الرفيع، بينما تلمح سليمة سماح تهرول عند الناصية باتجاههم، فتطلب من الرجل أن يزيد عشرة حبات لسماح وابنتها، تقترب سماح، فتلقي الحاجة سليمة للرجل بثمن التين وتطلب من سماح أن تأخذ التين من الرجل.

تعود لجلستها السابقة لتطالع الناصية القريبة ترقبًا لوصول الفتاتين، تصعد سماح ومعها التين، الباب موارب كعادته، تدفعه برفق وتدخل، تُلقي السلام على الجالسة بجوار النافذة، فترد عليها وعينيها مازالت متشبثة بالناصية، تدخل سماح إلى المطبخ لتضع حبات التين بالثلاجة، وتعود إلى الصالة حيث تجلس الحاجة سليمة التي تهب واقفة ما إن لمحت الفتاتين تعبران الناصية، وتتوعدهما بالتهديد:

- وديني لاضربهم.

قالتها الحاجة سليمة لسماح التي ضحكت قائلة:

- قلبك مش هيطاوعك يا حاجة.

- اتأخروا قوي يا سماح.

- الشوارع زحمة يا حاجة، النهارده الخميس.

- العصر لسه ما أذنش والجو حر، الناس بتخرج بعد المغرب.

- هونِي عليكِي يا حاجة، دول بنات يمكن بيتمشوا حبة بيفكوا عن نفسهم، محبوسين ما بيخرجوش.

تنهدت سليمة، وهدأ قلبها الذي خفق لسماع صوتهما على السلم، تضحك الفتاتان، وتتسابقان في الصعود، تتعثر قدم علياء؛ وزنها الزائد يعيق حركتها بعكس أختها الصغرى الأخف وزنًا، تنقطع الضحكات، تأخرت الفتاتان على السلم، "آه يا رجلي" تصيح بها علياء، القلق عاد ليراود قلب سليمة عن نفسه "يا ستّار يا رب" تقولها وتجري ناحية الباب وتتبعها سماح.

الحذاء مُلقى، كل فردة منه تتخذ درجة من درجات السلم مستقرًا لها، تجلس أرضًا ممسكة بإحدى قدميها رغم صعوبة وصولها إليها؛ فالمنطقة من الصدر للخصر تحوي الكثير من طبقات الدهن التي تعيق وصولها إلى قدمها المصابة، أسماء تقف بجوارها تضع يدها على فمها تحاول كتم ضحكاتها، الحاجة سليمة تنزل درجات السلم مسرعة تكاد أن تتعثر بكل درجة ولكن سماح خلفها تساعدها على النزول بسلام "سترك يارب" ترددها مع كل خطوة، تصل حيث الفتاتان:

- مالك! حصل إيه؟

- رجلي اتلوت يا ماما.

- معلش يا حبيبتي، ماتخافيش.

- بسيطة إن شاء الله.

تقولها سماح محاولة طمأنتهن، تستمر أسماء في محاولة كتم الضحكات، تلمحها سليمة فتنهرها، وتطلب منها مساعدتهن في وقوف أختها، يحاولن ثلاثتهن ولكن دون جدوى، "يا كريم" تنادي بها سليمة وتكررها، تفقدن الأمل في مساعدة علياء على الوقوف، لابد من وجود رجلٍ معهن، فقدراتهن البدنية لن تسعفهن في هذه الحالة:

- روحي نادي أخوكِ يساعدنا.

قالتها سليمة لأسماء التي طوت الدرجات بسرعة حتى وصلت لباب الشقة، جابت الطرقة الواصلة إلى غرف النوم حتى وصلت للغرفة الأخيرة، طرقات متواصلة ظلت تدق بها الباب المغلق من الداخل "يا كريم" ظلت تنادي بها مع الطرقات، حتى استيقظ النائم بالداخل أخيرًا.

بثقل رجل كهل قام من سريره يجر قدميه؛ يسهر طوال الليل ولا تغمض له عين إلا في الصباح، يقضي يومه ما بين النوم نهارًا والتسكع مع أصدقائه ليلًا، يتعامل مع المنزل على أنه مجرد مكان للنوم والطعام، يعتبره الحاج سلامة لعنة حياته وتعتبره الحاجة سليمة فاكهة حياتها، وولدها المدلل.

يفتح الباب بعصبية مفرطة، يوبخ أسماء التي كانت تقف متأففة بإنتظار أن يستيقظ.

- إيه! إيه الرزع ده؟

- تعال بسرعة؛ علياء رجليها اتلوت على السلم ومش عارفين نقومها.

- وأنا هاعملها إيه! دي عاوزة ونش يرفعها، روحي هاتي اتنين فواعلية من القهوة اللي جنبنا عشان يقدروا يشيلوها.

- لو ماما سمعتك هتموتك.

- ومين هيقولها؟

- أنا.

- طب قوليلها ومش هديكي التليفون الجديد ولا دقيقة واحدة.

- طيب طيب مش هاقولها بس ياللا تعالى معايا، دي هتضربني لو رجعت من غيرك.

نزل كريم مع أسماء، كانت أمهما تجلس على السلم بجوار علياء التي لم ينقطع بكاؤها تحاول تهدئتها بمساعدة سماح:

- اتأخرتم كده ليه؟

- كريم كان نايم يا ماما.

- مش وقت نوم، ياللا اسند أختك تقوم وساعدها تطلع السلم.

قالتها الحاجة سليمة لكريم الواقف بشعر منكوش ويرتدي (شورت) فقط.

- ضهري بيوجعني يا ماما، وعلياء تخينة هتكسر ضهري لو شدتها.

- والله أضربك أنت وبنت الكلب الصغيرة اللي كاتمة ضحكتها دي.

- وهتفرحي بيا لو ضهري اتكسر؟

- مفيش حاجة هتتكسر فيك غير راسك لو ما قوّمتش أختك.

تأفف كريم واقترب من علياء، طلب من أسماء مساعدته، وأسندت سماح ظهر علياء، جذب كريم يد أخته بمساعدة أسماء بينما دفعت سليمة وسماح علياء من الخلف فقامت أخيرًا والدموع تغرق وجهها المستدير.

- بتوجعني يا ماما؛ مش قادرة أدوس عليها.

- حاولي يا علياء، ما فاضلش غير كام سلمة.

- نطي.

قالتها أسماء وتبعتها بضحكة ساخرة، فهي تعلم بعدم قدرة أختها على القفز بهذا الحجم والوزن.

- اخرسي.

قالتها الحاجة سليمة بحدة موجهة حديثها إلى أسماء التي نظرت في الأرض خجلًا:

- اسند أختك يا ابني.

- والله لو جرى لضهري حاجة مش هسامحك.

- مش هيجراله حاجة، هادعي لك في الفجر.

أسند كريم أخته وصعدت السلم بعد معاناة طويلة، وصلت لغرفتها وطلبت الأم، الحاجة سلامة لينجدها ويرسل لها طبيبا.

***

كان يجلس خلف مكتبه في هدوء يقرأ في كتاب الله، وعنان تراقب ملامحه الهادئة أثناء قراءته، الجو حار ولم يكن هناك زبائن بالمحل، أوقات الذروة تكون بعد الخامسة حين تهدأ الشمس وتستسلم للغروب، بعدها تبدأ الفتيات والسيدات في التوافد ويبدأ الزحام وتضيع فرصتها في ممارسة أنوثتها على الحاج الذي رن هاتفه، فأغلق المصحف وأجاب المكالمة، انتفض من مكانه متلهفًا:

- طيب طيب، هجيب دكتور وآجي على طول.

الحاج مذعور! كانت تلك المرة الأولى التي تراه فيها بهذا الحال منذ جاءت للعمل بالمحل في العام الماضي.

- خير يا حاج!

قالتها عنان بلهفة، مقتربة من مكتب الحاج الذي كان واقفًا يلملم مفاتيح سيارته وهاتفه، ومحفظة نقوده، فتح الخزينة المجاورة لمكتبة وأخذ مبلغا ربما يحتاجه في علاج علياء.

- رجل علياء اتلوت على السلم، هاخدلها دكتور يروح يشوفها.

- بس ممكن تحتاج أشعة يا حاج، ودوها المستشفى أحسن.

- وممكن ماتحتاجش، هنشوف الدكتور هيقول إيه.

- طيب مش عاوزني معاك يا حاج؟ يمكن تحتاجوني.

- لا، خليكِي هنا مع باقي البنات، كلهم هناك وأمك كمان معاهم.

- طيب ياحاج، ربنا يطمن قلبك عليها.

- شكرًا يا عنان.

انصرف الحاج وذهب إلى أحد المستشفيات الخاصة القريبة وطلب طبيب عظام يأتي معه للمنزل، وبعد عدة محاولات من الرفض وافق أحد الأطباء على الذهاب معه بناءً على رغبته رغم علمه بحاجة المصابة لأشعة تبين مدى الإصابة.

وصل الحاج سلامة مع الطبيب إلى المنزل وبعد الكشف المبدئي طلب الطبيب أشعة ولكن نظرًا لظروف علياء الجسدية طلب منهم رباطًا ضاغطًا وبعض الأدوية للعلاج والإسعاف الأولي على أن تذهب في المساء لعمل أشعة بعد أن تحصل على بعض الراحة، خاصة بعد أن اطمأن الطبيب لعدم وجود كسر بالقدم، وأنها في الغالب مجرد كدمة بسيطة ولكن الألم الشديد الذي تشعر به هو أثر ثقل جسدها عليها.

***

شقة ضيقة بالدور الأرضي لأحد المنازل على بعد أربعة مباني من مكتب نشوى، جلست أم مصطفى على أريكة فوقها مرتبة قطنية صلبة في صالة شقتها بجوار النافذة الخشبية التي تفقد الكثير من أوراقها العرضية المثبتة في الأربعة ضلف المنطوية داخل بعضها، جدار فقد لونه، ترتسم عليه خريطة كبيرة من الشقوق، رائحة المنزل الكريهة أصبحت جزءا منه، فالحمام دائمًا ما يطفح ما سُتر داخل مواسيره الصدئة من فضلات، مربعات فارغة بمنتصف أرضية الغرفة؛ فقدت بعض البلاطات أثناء معركة قديمة مع الجيران، كان مصطفى قد خلع بعضها ليرشقهم بها بعد أن نفدت كل زجاجات المياه الغازية الفارغة من منزلهم، تسند خدّها فوق راحة يدها، تشرد ببصرها في المارة، تتذكر أيام شبابها التي مضت على غفلة منها، لم تكن تدري أن العمر يمر بتلك السرعة، وكأن العام يُطوى في أسبوع، كانت صغيرة السن، حلوة الوجه، فائرة الجسد، تجذب الأنظار كلما دقت بكعبها أرض الشارع، سرقت عقله حين رآها عند بائعة الخضار على الناصية تتجاذب أطراف الحديث معها، اقترب منها وغازلها فتمنّعت في غنج، لم يمض عام إلا وكانت ترتدي الأبيض وتُزف له، لتقضي أيام شبابها في تلك الشقة الصغيرة، مع بلطجي يعيش من عرقها، حتى أنجبت مصطفى الابن الوحيد لها، والذي حاولت أن ترى فيه مستقبلا أفضل منها ومن أبيه، فأصرّت أن يدخل المدرسة لينال تعليمه علّه يصبح شخصًا ذا أهمية في المجتمع، وربما انتشلها فيما بعد من هذا المستنقع الذي التهم جمالها، ولكن الظروف جاءت مخيبة لآمالها، فكان مصطفى ابن أبيه، يمتلك نزعة

عدوانية تواكلية، لا يحب التعليم رغم ذكائه، يميل للخناق، ويشبع رغباته بلون الدم، ظهرت كل تلك الصفات جلية في العام الأخير بعد دخول والده السجن، فأصبح مصطفى هو بلطجي الشارع، بعد أن ترك المدرسة وتفرغ لبيع المخدرات ليكمل سيرة والده.

شاب في العشرين لا يقل بلطجة عن ابنها يأكل بعينيه كل من يلقي بها القدر تحت بصره الزائغ، يفرد ذراعيه النحيفين ويخطو بخطوات منتظمة أشبه بمشية الأموات السائرون كما تصورهم أفلام هوليود، يطأ بقدمه فوق حرمات النوافذ المتناثرة على جانبي الشارع، يحك أنفه كل بضع ثوان، يقترب من أم مصطفى وبصوت غليظ كملامحه يسألها:

- مصطفى موجود يا خالتي؟

تنظر له أم مصطفى بقرف، بعد أن اخترقت رائحة فمه النتنة أنفها وردت باقتضاب:

- نايم.

- صحيه.

قالها الشاب وهمّ يجلس القرفصاء بجوار النافذة مشعلًا سيجارة ملفوفة بعناية، مالت أم مصطفى بجسدها للأمام وتطلعت إلى الجالس بجوار نافذتها محتلًا قطعة لا تختلف عنه من أرضية الشارع، مصّت شفتيها وعادت للداخل "لم تكن الحالة تنقصك الآن يا رد السجون" قالتها وهي تقطع الصالة متوجهة إلى حيث يرقد مصطفى، يتحرك جسدها الثقيل معها، رغم اكتسابها الكثير من آثار الزمن إلا أنها مازالت تحمل بعض جمال الصبا، تتحرك بهدوء وكأنها لا تود إيقاظ النائم رغم صوت شخيره المرتفع.

تقف قليلًا أمامه، تتأمله، يشبه أباه حتى في نومته، ابتسامة حزن تشق ثغرها

"غيّرك العام يا مصطفى، أكسبك الكثير من الخبرة والعنف" لم تتأمل وجهه منذ عدة أشهر، لقد نبتت لحيته بشكل كامل، لم تعد شعيراتها متباعدة كالسابق "كبرت يا ابني وكبّرت همي معاك" تهم بإيقاظه، صوت الغليظ الجالس خارج النافذة يخترق أذنها "يا خالتي" تهز النائم برفق في بداية الأمر، تتحول رقتها إلى عنف مع ازدياد نداء البلطجي خارج النافذة، رائحة فمه التصقت بأنفها "قوم يا ابني" تقولها بصوت عالٍ "يا أم مصطفى" يرددها البلطجي.

- يا ابني قوم سكت صوت نهيقه، إيه القرف ده يا ربي؟

تقولها بحزن تضع يدها فوق رأسها في انكسار.

- في إيه يا اما؟

يقولها مصطفى بتأفف مستنكرًا إيقاظ أمه له، تلكزه في كتفه منبهة إياه لجفاف أسلوبه:

- في بلطجي من زباينك مستنيك بره، قم له وخذه بريحته المنتنة بعيد عن هنا، مش عاوزة عين الحكومة تتفتح على البيت، كفاية اللي بتهببه بره.

يقوم مصطفى دون رد، هو يعلم تأفف أمه من عمله وعدم رضاها عن شيء مما يفعله، ولكنه مضطر لذلك العمل حتى يكسب قوته، ويحمي نفسه من بلطجة الكبار بالحي، ارتدى قميصه الذي نزعه من فوق جسده قبل النوم وتوجه للخارج، كان البلطجي بمكانه نفسه يجلس القرفصاء بجوار النافذة، خرج مصطفى وترجل معه بعيدًا كما طلبت منه أمه.

أعطاه قطعة من الحشيش وأخذ منه ثمنها واضعًا النقود في جيبه دون أن ينظر فيها أو يقوم بعدها؛ ليس هناك وقت لذلك يجب أن يتركه الآن قبل أن يلمحهم أحد المخبرين المنتشرين حولهما.

- ابني مش هنا.

تكررها أم مصطفى بصوت عالٍ وكأنها تريدها أن تصل إلى أذن ابنها منبهة إياه بضرورة عدم وجوده الآن، رجل غليظ الملامح والقلب يقف أمام نافذتها ويتجاذب معها الحديث بصوتٍ عالٍ:

- ما تعلّيش صوتك يا ولية.

- ولولوا عليك بدري يا بعيد، قلتلك الواد مش هنا، عاوز إيه مني؟

يتجمع الناس حولهما محاولين فك تشابك الألسنة الذي بدأته أم مصطفى عمدًا، يتمكن مصطفى من الاختفاء عن عين الرجل وعين المخبر الآخر الذي يقف بانتظاره بجوار نافذة جارتها، يركض مصطفى بأقصى سرعة، لو تم القبض عليه لضُبط متلبسًا بما في جيبه من قطع الحشيش، يصطدم بنشوى أثناء دخولها الشارع متجهة إلى مكتبها والتي كانت تهرول في مشيتها لا يهمها سوى أن تصل لمكتبها بسرعة خوفًا من تحول تلك المعركة الدائرة بالألسن إلى واحدة شبيهة بتلك التي أصيبت فيها رأسها منذ يومين.

- معلش يا أبله.

يقولها مصطفى بصوت عالٍ مادًا في حروفها، تقف نشوى صامتة ينطق داخلها بحسرة على مصطفى الفتى المهذب الذي كانت تعتبره كابنها، تغير حاله وتبدّل إلى النقيض خلال عامٍ واحدٍ! تخبط كفيها تعجبًا وتصعد لمكتبها قبل أن تقترب المعركة منها، تدخّل الجيران جاء في الوقت المناسب قبل أن تفتح أم مصطفى رأس المخبر بيد الهون التي حاولت أن تخبطه بها.

- وديني لابطحك.

- تبطحيني أنا يا ولية يا شرشوحة! ده أنا كنت جرجرتك على القسم وماكانش هيبانلك صاحب لا انتي ولا ابنك.

- طب ما توريني كده هتجرجرني ازاي وأنا ألم عليك الناس وأقول للأمين إنك كنت بتتحرش بيا وعاوزني أرضالك ولما رفضتك لفقتلي التهمة أنا وابني.

يقف الرجل ضاحكًا، مدركًا أن المرأة تهذي لا محالة فمن ذا الذي يستطيع التبلي على الحكومة! وهو أحد أفرادها.

- أنا هسيبك بس عشان انت ولية، ومهما كنتي ناقصة عقل، بس أنا بحذرك لو قفشت ابنك ولا اتكعبلت فيه في الشارع هحبسهولك.

يتركها الرجل ويرحل مع زميله المنتظر مترقبًا وصول مصطفى في أي لحظة، تجلس أم مصطفى على أريكتها تبكي حسرة على حالها وحال ابنها وما وصلا إليه بسبب زيجتها المشؤومة.

***

تعود الأغاني الشعبية للصدح في الشارع مرة أخرى دلالة على انتهاء المعركة، تفتح نشوى نافذتها وتلقي نظرة على الشارع الضيق الذي تعمل به منذ عشرة أعوام، لقد تغير كثيرًا، لم يعد الناس كما كانوا، أصبحوا أكثر عدوانية وشراسة، يدافعون عن وجودهم بالأسلحة البيضاء والزجاجات مع قاموس كامل من الشتائم والسباب الذي لم تسمع مثله قبل أن تأتي إلى هذا الشارع، تتذكر أم مصطفى فتنزل إليها، تجدها على جلستها بجوار النافذة تقترب منها، فتهب الثانية واقفة تطلب منها الدخول لمنزلها المتواضع:

- اتفضلي يا ست، معلش البيت مش قد المقام، مجيتك دي على راسي والله، واجب علينا إحنا يا ست نيجي نطمن عليكِ.

تقولها أم مصطفى وهي تمسح فوق الأريكة بيديها لتزيح عنها أي شيء أو وسخ عالق بها، تجلس نشوى بابتسامة على وجهها:

- واحد يا أم مصطفى مفيش فرق بيننا، أنا بس سمعتك بتتخانقي فقلت أطمن عليكِ، خصوصًا إني خبطت في مصطفى وهو بيجري خارج من الشارع وأنا جايه المكتب، فقلقت.

- منه لله مصطفى ابني ده، ومنه لله أبوه هو السبب في اللي إحنا فيه، لولا الهباب اللي بيتاجر فيه ده لا كان دخل السجن ولا كان ابني مشي في سكته.

تنتفض نشوى من مكانها مصدومة، تضع أم مصطفى وجهها في الأرض خجلًا قائلة بصوت مهزوز:

- أيوه يا ست، مشي في سكة أبوه وماقدرتش عليه.

- مش كفاية قعد من المدرسة؟ أنا فكرته بيشتغل شغل شريف.

- ما صمدش فيه، شغلته عند ميكانيكي وعند استورجي، حتى عم سيد اتوسط له عند بتاع الجملة اللي بيتعامل معاه عشان يشغله عنده يشيل ويحط في المخزن ما استحملش الشقا يومين وسابه.

- اسمها استسهل الحرام يا أم مصطفى.

تضع أم مصطفى عينيها في الأرض خجلًا مرة أخرى:

- مش عارفة أقولك إيه يا ست؟

- ما تقوليش حاجة بس حاولي تخلي مصطفى يرجع عن اللي هو فيه ده عشان أخرته وحشة، ومن فضلك ما تخليهوش يطلع المكتب عندي خالص وانتِي فوق، لو محتاجك في حاجة ضرورية يندهلك من تحت، أنا مش عايزة شوشرة على المكتب.

- حقك يا ست، حقك، ولو مش عوزاني أنا كمان أطلعلك ما اقدرش أقول نص كلمة.

- لا يا أم مصطفى إنتي ما أذيتينيش في حاجة، لكن وجود مصطفى أو تردده على المكتب هيئذيني ويطلع سمعة وحشة على المكتب، ربنا عالم كنت بعتبره زي محمود بس هو اختار طريقه ولو مارجعش عنه هيضيع.

- ما تقلقيش يا ست أنا مش هخليه يعتب باب المكتب أبدًا، كلامك فوق راسي.

- تعيشي يا أم مصطفى، أقوم أنا بقى عشان أشوف شغلي.

- نورتي وآنستي يا ست الستات، والله زارنا النبي.

تعود نشوى إلى مكتبها وعلامات الحسرة ترتسم على وجهها، كانت ترى في مصطفى مستقبلًا باهرًا، كان لبقًا أنيق اللسان، كانت تنتظر أن ينهي عامه الأخير بالمدرسة الثانوية ليلتحق بكلية الحقوق ويصبح محاميًا بارزًا كما كانت تراه في مخيلتها، الآن أصبح مجرمًا تاجرًا للمخدرات وبلطجي المنطقة الذي يعيث فيها فسادًا، حتى أنها قد أصابها منه جرحًا قطعيًا بالجبهة ربما ترك أثرا لا يزول.

تقع عينيها على ملف قضية التحرش الذي كانت تطالعه منذ أيام، تسرح بخيالها تذكر عزوز وعلاقاته المتعددة التي أرقتها طوال فترة زواجها منه، هل كان يدخل في علاقات متعددة تفاديًا لوقوعه في مصيدة التحرش! أم علاقاته ناتجة عن وقائع تحرش راضية فتحولت عن طيب خاطر إلى علاقات آثمة! العديد من الأسئلة المنطقية وغير المنطقية طرحتها نشوى على عقلها، وجدت إجابات لبعضها وبعضها الآخر أبت أن تجد له إجابات حتى لا تطعن كرامتها داخل هذه الإجابات، تركت خيالها وعادت لملف قضيتها لتكمل دراسته.

***

يستند على حائط منزل قديم يلتقط أنفاسه المتقطعة من العدو هربًا من المخبر، يختلس النظر إلى الناصية البعيدة كل بضع ثوان حتى اطمأن تمامًا أن الخطر قد زال وأنه استطاع الإفلات من المخبر ومن معه، تحسس جيبه الصغير فكانت قطعه البنية في مكانها تنتظر عناق قطعة من الفحم المشتعل أو لهب قداحة يصهرها لتختلط مع بعض التبغ لتصنع بعض الدخان الأزرق في محاولة منها لصبغ وجه أحدهم بالسعادة المزيفة.

تمشّى مصطفى قليلًا ثم استقل حافلة لتأخذه لمنطقة عابدين حيث يوجد

المعلم الذي يروّج له بضاعته، منزل قديم بإحدى الحواري الضيقة شبيهة بحارته التي يطل عليها شباكهم الخشبي، فوق السطح كان يجلس تهامي بجوار غيّة الحمام التي يستخدمها كمخزن لبضاعته، يقوم بتقطيع وتجهيز قطع الحشيش للموزعين الصغار، دخانه الأزرق لا يفارق الشيشة التي تمكث إلى يساره يستقي منها الأنفاس كل دقيقة، بعض صبيانه ينتشرون بالسطح في انتظار نصيبهم من القطعيات اليومية، يصعد مصطفى مسرعًا ليصل أمام تهامي المنهمك في التقطيع:

- مساء الفل يا معلم تهامي.

- مساء الخير ياخويا، فين الغلة؟

يخرج مصطفى لفة نقود من جيبه ومعها قطعتين من الحشيش الملفوف بسوليفان أحمر شفاف يعطيها لتهامي الذي يترك ما بيده ليتلقف منه قطع الحشيش قائلًا بسخرية؟

- وإيه دول يا ضنايا ما صرفتهمش ليه؟

- المخبر عكشني وكنت هتمسك.

- تتمسك؟ مش عيب ابن المعلم خشّاب يتمسك برضه؟

- أهو اللي حصل بقى يا معلم.

- لا، واضح إن عضمك لسه طري، أنت ما ينفعش تشتغل في منطقتكم دي، دي عايزة واد حرك يعرف يلعب بالبيضة والحجر ويملص من الحكومة، إنما انت توتو بتاع مدارس.

- وليه الغلط ده يا معلم؟

يقولها مصطفى بغيظ واضح، يقوم تهامي من مكانه ويقترب منه ويضع يده على كتف مصطفى قائلًا بهدوء:

- يا واد ده مش غلط، ده إسمه فن الإدارة، تسمع عن الإتش آر؟

- إتش آر؟

- الإتش آر ده مدير الموارد البشرية، اللي بيعرف يحط كل رجل في المكان المناسب، وانت مكانك مش هناك يا مصطفى، انت مكانك هنا في وسط البلد وعابدين والمناطق المجاورة، الدنيا هنا أهدى والزبون أعلى وأنضف، وانت هتعرف تتعامل معاهم اكمنك توتو ومتعلم زيهم.

- ما بلاش توتو دي يا معلم طيب.

- بلاها توتو يا سيدي ولا تزعل، حلوة سوسو؟

يقولها تهامي ضاحكًا هو وصبيانه المترامين حوله في انتظار حصتهم، يعود ليجلس مكانه أمام طاولة التقطيع ليكمل حديثه وهو يعمل في التقطيع:

- بص يا مصطفى إنت ليك عندي شغلانة حلوة وعلى قدك، وهتطلع منها بحسنة حلوة وانت وشطارتك، خد بالك أنا بعمل كده بس عشان خاطر المعلم خشّاب وحبسته.

- كتر خيرك يا معلم، بس إيه الشغلانة الجديدة دي؟

- هتوزع برضه، بس في النضيف، هتروح للزبون المكان بتاعه ولا بقى تقف في الشارع ولا مخبر يقفشك ولا حد يعكشك.

- هو في دليفري للحشيش كمان؟

- اومال! هتبقى طيار يا واد زقطط.

- وأنا هرفع راسك المرة دي يا معلم.

يأخذ مصطفى عنوان المكان المراد توصيل بضاعته إليه وينطلق إلى هناك في سعادة بالغة، فبعد أشهر عديدة من العمل بمنطقته الشعبية وتعرضه للكثير

من المضايقات من المخبرين، أخيراً سيحظى بزبائن من النوع النظيف كما أخبره تهامي، وربما هي فرصة له كي تكبر أعماله ويحصل على مال وفير في فترة قصيرة ليفتتح مشروعًا خاصًا به، ليثبت لوالدته أنها كانت مخطئة بشأن توبيخها الدائم له، وأنه ليس بصائع وإنما سيكون رجل أعمال ناجح.

***

يتوقف أمام الممر الضيق، ويتلفت في محاولة للعثور على المقهى الذي أعطاه تهامي عنوانه واسمه ولكنه لم يجد له أثرا، تمشى ناحية كشك صغير على بعد خطوات من الممر، طلب من الرجل بالداخل علبة سجائر، أخرج واحدة وأشعلها وهو يسأل الشاب الجالس خلف أكوام البسكويت والحلوى:

- قولي يا نجم هو فين كافيه لاتيه ده؟

- ورانا أهو، أدخل الممر ده هتلاقيه في آخره.

- تشكر يا صاحبي.

يترك البائع ويترجل داخل الممر، يقف أمام باب المقهى يرى نفسه وقد امتلكه وأحدهم يجري ليفتح له الباب الزجاجي ويحمل عنه حقيبته ومفاتيح السيارة الفارهة التي ركنها توًا أمام الممر، يفيق على صوت أحدهم يسأله عن سبب توقفه أمام الباب..

- أنا عاوز الأستاذ كريم.

- موجود جوه.

يعبر بقدمه بوابة أحلامه الصغيرة، يتلفت حوله في إعجاب؛ لم يشهد مقاهي بهذه النظافة من قبل، يشير الشاب إلى طاولة كبيرة يحيط بها مجموعة من الشباب والبنات كهؤلاء الذين يراهم بالتلفاز يضحكون ويتهامسون، يقترب منهم في توتر، يقف بالقرب من أحدهم ويقول بصوت متحشرج:

- الأستاذ كريم؟

ينظر له الشاب بقرف، فملابسه ورائحة عرقه النفاذه تنم عن شخص متشرد صائع، وينظر إلى صديق له قائلًا باستهزاء:

- كلم يا كريم، تقريبًا الحاجة بعتالك الساندوتشات.

يشير كريم للواقف أمامهم، فيقترب منه:

- عاوز إيه يا حبيبي؟

- أنا من طرف المعلم تهامي.

- اااه، بس أنا أول مرة أشوفك.

- ومش هتكون آخر مرة إن شاء الله يا نجم.

- طيب ياخويا هات الحاجة، والمرة الجاية ابقى استحمى.

يناوله مصطفى اللفافة في حرص، فيأخذها كريم ويعطيه لفة النقود:

- سلملي على تهامي يا...

- مصطفى يا باشا، خدامك مصطفى وأي حاجة تؤمر بيها أنا تحت أمرك.

ينظر له كريم بطرف عينيه ويشير له بالانصراف، يخرج مصطفى من المكان وقد ازداد إصرارًا على تغيير حياته للأفضل، هذه هي الفرصة التي كان يبحث عنها طيلة أشهر مضت وقد أعطاها له تهامي على طبق من فضة، وضع يده في جيبه وأخذ يتجول في شوارع العاصمة يلقي نظرة على محال الملابس المنتشرة بكثرة يحاول أن يتخيل نفسه في تلك الملابس الغالية، حتى وصل إلى منزل تهامي مرة أخرى، صف أحلامه أمام باب المنزل وصعد إليه.

***

- يا وفاء أنا زعلان بجد؟

- أنا آسفة يا مكرم والله ما هكسر كلامك تاني، بس كان عندي شغل مهم ولازم أروح أخلصه.

- ملعون الشغل اللي ييجي على صحتك، يا حبيبتي أنا ماحيلتيش غيرك، ماطلعتش من الدنيا دي كلها غير بحضنك، ليه بتقلقيني عليكِي؟

- آخر مرة يا حبيبي أوعدك.

- الأهم من الوعد التنفيذ، الوفاء أهم يا وفاء فاهمة؟

- فاهمة يا مكرم، فاهمة يا حبيبي.

عشرة أعوام مرّت على زواجهما دون أن تنتفخ بطن وفاء بذرّية تحمل اسم مكرم، أرض بور كما كانت تطلق عليها أم مكرم رحمها الله، ولكن مكرم كان يرى في حبه لها رواء لتلك الأرض وكان على يقين بأن الله سينبت فيها من خير العشق طفلًا صغيرًا في أحد الأيام، لم يكن في عجلة من أمره، كان صبورًا كثير الدعاء، شديد اليقين، عظيم الحب، يدلل وفاء ويمنحها الاهتمام، يدهشها بخوفه عليها لدرجة عدم تصديقها كل هذا الحب في بعض الأحيان، كان ثعبان الشك يلدغها، يخبرها بأنه ربما يعاملها بمنتهى اللهفة ليخفي عنها خيانة عظيمة ستفتك بقلبها حين تكتشفها؛ لذا ورغم كل ذلك الحب لم تكن حياتهما هادئة أبدًا.

كانت كل لحظاتهما السعيدة تنهيها وفاء بمنتهى الوفاء للعراك، عنيدة حد

إيذاء نفسها، حتى لا تمنح مكرم لحظة انتصار عليها، كانت تعتبر بور رحمها علّة ستجعل مكرم يتخلّى عنها حين يداهمه الحنين لصوت رضيع بالمنزل، تشعر بالقلق رغم محاولاته المستمرة في بعث الطمأنينة بحياتهما، تراها يومًا زوجة مطيعة محبة، ويومًا آخر عاشقة خائفة تتصنع العراك حتى تجعل عقل مكرم مشتت بشكل دائم، فلا يكون لديه وقت ليدخل امرأة أخرى إلى قلبه، تعيش بمبدأ أن يحبني ولا يحب غيري أو يكرهني ويكره الجميع معي، فلا يراوده عقله عن الزواج مرة أخرى.

يجلس مكرم بجوارها شارد العقل فيما سيلقاه من عقاب عما حدث بالعمل بسبب عصبيته الزائدة وتوتره، سيجازى بالتأكيد عن تلك الفعلة، والجزاء يعني الخصم، والخصم يعني التقصير في التزاماته المادية والأقساط التي تخنقه، قسط السيارة، مكيفات الهواء، الشاشة العملاقة، الثلاجة الجديدة، والهاتف ذو التفاحة الذي جلبه لها في عيد زواجهما الفائت في محاولة منه لإرضاء أنوثتها التي دائمًا ما تبكي شعورها بنقصها، أما هي فكانت تفكر في شيء جديد تثير به عطف مكرم حتى يظل شعوره تجاهها متقد طوال الوقت.

- مكرم!

- نعم يا وفاء.

- أنا كنت بفكر في حاجة كده، بس مش عارفه أنت ممكن توافق ولا لأ؟

- خير يا حبيبتي؟

- إيه رأيك لو أسافر بره أتعالج، علا بنت خالتي قالتلي إن بره ممكن يعالجوا العلة اللي عندي وأعرف أخلف.

- يا حبيبتي ما احنا عملنا كل الفحوصات اللي ممكن تتعمل هنا، وكل الدكاترة قالوا إن ملهاش علاج.

- انت بتقفلها في وشي ليه؟ ما يمكن يا أخي ليها بره؟ ولا هو انت بتتلكك عشان أفضل كده وتروح تتجوز عليا!

- ومين جاب سيرة جواز بس يا حبيبتي! أنا عمري ما فكرت ولا هفكر أعمل كده، أنا استكفيت بيكي ومش عاوز حاجة تاني من الدنيا.

- أيوه ثبتني واضحك عليا بكلمتين زي كل مرة، أنا عارفة إن نفسك يكون عندك طفل، وعارفة إنك هتتجوز عليا، ده إذا ماكنتش متجوز بالفعل.

يغضب مكرم من أسلوبها المستفز ويشعر بالاستياء، يعلو صوته وهو يوبخها:

- لأ كده كتير يا وفاء، حرام عليكي، أنا تعبت من أسلوبك الزفت ده، أنا لو عاوز أعرف غيرك كنت عرفت من زمان، من عشر سنين، من يوم ما عرفت إنك مش هينفع تخلفي، لكن انتي في كل مرة تفتحي فيها الكلام في الموضوع ده لازم تنهيه النهاية المستفزة دي، أنا زهقت منك يا شيخة، زهقت وقرفت.

يتركها بمفردها مع شيطانها وذهب لغرفة أخرى يحاسب نفسه على أخطاء اليوم كما اعتاد أن يفعل كل ليلة، شعر بالنعاس فترك نفسه ليغط في نوم عميق.

***

على مقعد وثير بجوار سرير علياء تجلس الحاجة سليمة تقرأ في كتاب الله، بينما كل من علياء وأسماء منشغلات بهواتفهن، تترك علياء هاتفها وتنظر لأمها في حنان قائلة في هدوء:

- هو انتي هتفضلي قاعدة جنبي كده ياماما؟

- يعني هو أنا قاعدة على دماغك، أديني قاعدة جنبك يمكن تحتاجي حاجة.

- ما هي أسماء جنبي، قومي انتِي ريحي يا ست الكل زمان ضهرك وجعك من القعدة دي، ده غير إن زمانك زهقتي.

- أنا مفيش حاجة تتعبني إلا تعب حد منكم، وبعدين أنا طول ما كلام ربنا معايا مفيش حاجة تخليني أمل ولا أزهق.

تنتبه أسماء لكلامهما فتترك مابيدها موجهة كلامها لعلياء:

- لأ بقولك إيه شيلي أسماء من دماغك خالص، مش عشان وقعتي أنا هشتغلك خدامة، أنا عروسة ولازم دماغي تكون رايقة، ما ينفعش أشغلها بتفاهتك دي.

- خلاص يا ستي مش عاوزة منك حاجة، أنا هقوم أقضي طلباتي لنفسي.

تضحك أسماء قائلة بسخرية:

- ده انتي كنتي بتقومي بالعافية وانتِي سليمة دلوقتي برجلك دي مش هتقومي خالص، ده مش بعيد تعملي حمام على روحك عشان مش هتعرفي تروحي لوحدك.

تنفعل الحاجة سليمة وتترك المصحف من يدها وتقفز من مقعدها لترد على كلام أسماء بصفعة قوية على وجهها قائلة في حزم:

- لما تكلمي أختك الكبيرة تكلميها بأدب، مش عشان ربنا مبتليها بزيادة وزنها تقوليلها الكلام ده، ماتعرفيش بعد ما تتجوزي جسمك هيبقى عامل ازاي؟

تنظر أسماء تجاه علياء بحقد وتخرج من الغرفة قائلة:

- الحمد لله إني قربت أتجوز عشان أغور من وشكم خالص وأريحكم مني ومن قلة أدبي.

تنظر علياء للجهة الأخرى من الغرفة محاولة حبس دموعها، تطبع الحاجة سليمة قبلة على رأسها وتمسح وجهها بيدها ثم تضمها إلى صدرها قائلة بحنان:

- ما تزعليش يا علياء، إنتي عارفة أختك طايشة ما بتوعاش على معنى الكلام اللي بتقوله، ياختي أنا مش عارفة علام إيه ده اللي بتتعلموه في المدارس، حقك

عليا أنا، أنا هروح أتوضى وأصلي ركعتين لله وأدعيلها بالهداية وادعيلك بالزوج الصالح، عشان ربنا يعدلهالك يا بنتي.

تقول جملتها وتخرج خلف أسماء متوعدة إياها بالضرب إن لم تعدّل من سلوكها وطريقة حديثها مع أختها الكبرى.

تجلس علياء مع آلامها البدنية والنفسية، ملتحفة دموعها وكسرتها، تلوم نفسها على ما هي به، كيف تركت نفسها للشراهة، وجعلت الطعام يتحكم بحياتها، فوزنها هو ما يتحكم باختيارات ملبسها والأماكن التي تذهب إليها، وزنها هو ما جعل شقيقها وشقيقتها يتلمزون عليها بكلمات جارحة، هو ما جعلها تجلس الآن بلا حراك لا تقوى حتى على الذهاب لقضاء حاجتها، لم تستطع الذهاب للمستشفى للاطمئنان على قدمها بسبب وزنها، فتاة في مثل عمرها محبوسة داخل سجن من البدانة، مكسورة عيناها طوال الوقت من أسرتها التي أصبحت تراها بدأت مرحلة العنوسة حيث لم يتقدم لخطبتها أي شاب رغم قربها للثلاثين، أما شقيقتها فتمت خطبتها وسيتم زواجها وهي لم تتخط الثانية والعشرين، وتعتبر هذه هي الخطبة الثالثة لها، كان العرسان يتوافدون على بيتهم لخطبة أسماء، الجميع يحب أسماء، الجميع يتحدث عن جمال أسماء ورشاقتها، الجميع يعمل ألف حساب لمزاج أسماء وسعادتها، أما هي فربما يعمل لها الجميع حسابا في قطعة دجاج أو لحم أو مكان أوسع للجلوس فيه.

تترك تلك الأفكار خلفها وتفتح صفحتها على موقع التواصل الأزرق، تغيّر صورتها الشخصية بصورة جديدة لإحدى فاتنات بوليوود، تتوافد عليها التعليقات السخية بالمجاملات، جميلة عزيزتي تشبهك كثيرًا، أرى فيها روحك الشفافة، تشبه ملامحك التي أرسمها بعقلي، جسدها ممشوق كأنتِ، وكأنهم قد رأوها من قبل! ترد عليهم بخجل وكأن الصورة لها، تمسح دموعها وتبدأ في الرد على رسائل صندوق

الوارد، الجميع يتودد إليها ويتقرب منها، أحدهم كان مقربًا منها - يُدعى عزيز - أخبرته بشأن علّة قدمها، تقمص دور طبيب العظام وقام بكتابة وصفة دوائية لها، مع بعض عبارات الحب السخية، ولكنه لم ير صورتها الحقيقية من قبل، حتمًا ستشبه صورة صفحتها، فالجميع يميل لوضع صور لأشخاص يشبهونهم، كان هذا ما يحدث به نفسه دائمًا، كلما طلب منها صورة لها رفضت متعللة بعدم ثقتها بأي شخص على الإنترنت، يطلب مقابلة ترفض بحجة أنها لا تخرج بمفردها، عمرها عشرون، هكذا كانت تخبره، كذبة صغيرة لتقربه منها هو الذي لم يكمل العشرين بعد، يطول الحديث بينهما تتركه لتضع منشور رومانسي على صفحتها، يعلم أنها تضعه له، وغيره وغيره، العديد منهم يظن المنشور له، ديوك متعاركة على الحائط الأزرق حول دجاجة فاتنة، تنكش الأرض بكلماتها المعسولة مستترة خلف شاشتها، تضحك على تفاهتهم وتستمد من عراكهم بعض الثقة بالنفس، هي تعلم أنها ثقة مزيفة، ولكنها تفي بالغرض لبعض الوقت، لطالما حاولت أسماء مساعدتها على التخلص من وزنها الزائد ولكنها كانت ترفض لعشقها الطعام وشراهتها في تناوله:

- يا بنتي الكرش ده عز، ده مركز اتزان الكون، لو مفيش كرش هتزحلق على ضهري.

تقول جملتها وهي تلتهم شطيرة برجر تغرق في صلصة الجبن الشيدر، تستمتع بطعمها وتخزن سعراتها بداخل جسدها الممتلئ.

- يا علياء كلي براحتك بس حاولي تقللي كالوريز، كده غلط على صحتك، هتتعبي قدام شوية لما تكبري.

- لما أكبر واتعب هابقى أخس، ملكيش دعوة انتي يا معصعصة.

- دي اسمها رشاقة مش عصعصة، إيش فهمك أنتي بمنحنياتك دي؟

- وده اسمه كيرفي مش تخن، يا للي ما بتفهميش.

- ماشي يا ستي أنا مابفهمش، بس ماتبقيش تزعلي على نفسك لما ييجي عليكي يوم وتبقي مش قادرة تقومي تناولي نفسك كوباية مية، ساعتها ابقي افتكري كلامي ده.

تذكرته الآن يا عزيزتي، تذكرت كل حرف، الآن أنا بدينة العائلة التي لا تستطيع أن تناول نفسها كوب الماء، ولكن هناك في ذلك العالم الأزرق أنا ملكة، تتهافت القلوب حولي، ويترامى الرجال أسفل قدمي، فتبًا لعالمكم لا أريد منه شيئا، سأحيا في عالمي ملكة دون الحاجة لكوب الماء منكم.

تعود لحديثها مع عزيز:

- يا عزيز قلتلك مليون مرة ما ينفعش.

- ماهو أنا لازم أشوفك، ماينفعش أكون مرتبط بيكي بقالي شهور وما اعرفش شكلك إيه لحد النهارده، إلا إذا كنتي شخصية مزيفة بقى.

- بقى بعد كل ده تقول عليا كده!

- ما هو انتي اللي بتتكلمي كلام مش منطقي.

- ما إحنا اتكلمنا صوت واتأكدت إني مش شخصية فيك عاوز إيه تاني؟

- عاوز أشوفك يا علياء، عايز أكمل الصورة اللي في خيالي عن حبيبتي ومراتي.

- مراتك!

- طبعًا ياقلبي، أومال انتِي فاكراني بتسلى ولا إيه؟

- مش كده، بس..

- ما بسش ولا حاجة، هتبعتي الصورة دلوقت وإلا هعتبر كل اللي بيننا منتهي، لإن انتي كده مش بتحبيني ولا حتى واثقة فيا، وأنا مش هتجوز واحدة مش بتحبني زي ما بحبها.

- يا عزيز، أنا..

- أنا مش هقبل أي كلام يا علياء، هتبعتي الصورة ولا كل واحد يروح لحاله؟

يرسل جملته الأخيرة ويبتسم بمكر، تتلقى هي الكلمات بقلب مرتعش ويد تصدر هدهدات في الفراغ، لا تريد أن تضيع فرصة عريس مثل عزيز، سيخرس كل الألسنة عنها، ولكن تتذكر كذباتها المتعددة عليه، من أول عمرها الحقيقي وهيئتها حتى الصورة التي قررت أن ترسلها له، بيد مرتعشة تكتب له:

- طيب هبعتلك صورة بس وحياة أغلى حاجة عندك تمسحها على طول بعد ما تشوفها.

- إبعتي بس، وأنا وحياتك ما هخلي حاجة عندي.

- عزيز أبوس إيدك، تمسحها أنا مش عاوزة فضيحة.

يخبئ قرني الشيطان خلف ابتسامة ماكرة ويكتب لها:

- يا حبيبتي إنتي مني، عرضي، هفضحك إزاي بس! خليكي واثقة فيا أكتر من كده يا علياء لو سمحتِ.

- حاضر يا عزيز، هثق فيك وابعت الصورة، بس وحياة ربنا لو ما اتمسحتش واتفضحت هموت نفسي ويبقى ذنبي في رقبتك.

- ما تخافيش يا حبيبتي.

تبحث في هاتفها عن صورة تصلح لإرسالها له، تجد العديد لكن معظمها لا يصلح، فكرت بالتقاط صورة جديدة ولكنها بزي البيت لا يصح أن ترسل له صورة بتلك الوضعية، فكرت قليلًا فوجدت صورة قديمة لها مع أسماء قصتها وأرسلتها، لم تكن قد اكتسبت وزنًا كثيرًا حينها.

لم تمر لحظات حتى شاهد عزيز الصورة، مرت دقائق ولم يرسل أي شيء، هرب

الكلام منه أو إن الصورة لم تعجبه، تساءلت علياء في نفسها، وبعد مرور قرابة الربع ساعة رد عزيز بهدوء وبرود:

- حلوة يا حبيبتي زي ما توقعت.

- عجبتك؟

- عجبتيني؟ ده انتي مزة المزز يا قلبي.

- بجد يا عزيز؟

- طبعا يا قلب عزيز، أنا بحبك قوي على فكرة.

- وأنا كمان بحبك قوي قوي.

- ربنا يخليكِي ليا يا روحي.

- ويخليك ليا يا رب، امسح الصورة بقى ياللا.

- مسحتها يا روحي من قبل ما تقولي، أنا بخاف عليكِي قوي، وماينفعش أخلي حد يشوف صورتك على تليفوني.

- أنا بحبك قوي.

- وأنا كمان بحبك قوي، ياللا أنا هاقفل بقى عشان الوقت اتأخر وعندي شغل الصبح، خدي بالك من روحك، بحبك.

- تصبح على خير.

ترسلها ولا تجد ردا، أغلق دائرة الرسالة والإنترنت، وذهب بخياله ليكمل ليلته مع الصورة، بينما هي ظلت تعيد قراءة رسائلهما معًا بمنتهى السذاجة حتى غفت في حلم جميل.

***

عاد محفوظ إلى شقته الجديدة التي اتخذ منها مكانًا لإقامته بجانب كونها مكتبا للسمسرة العقارية بعد يوم مزعج في العمل الحكومي، دفع باب غرفة نومه ببطء، ورمى بجسده فوق أريكة جلدية بجانب الغرفة، ترك مفاتيحه على الطاولة المقابلة لها، وأسند رأسه إلى الخلف ناظرًا إلي السقف، فرد ساقيه وأغمض عينيه، يشعر ببعض الراحة الآن لاسيما بعد أن فتح أزرار قميصه وترك هواء المروحة يتخلل روحه، يشعر بانتعاش لم يشعر به منذ سنوات، كانت إلهام تمثل له عبئًا رغم حبه لها، إلا أنه لم يعد يطيق رؤيتها وهي امرأة ناجحة في عملها، حب الأولاد لها جعله ينقم على العيشة معها، ولم يجد طريقة لكسر أنفها سوى الهجر والزواج من أخرى، وكله بشرع الله!

ولكن من تلك التي سترضى الزواج من رجل خمسيني يعمل موظفًا بالحكومة صباحًا وسمسار عقارات مساءً! لن يجد الوقت ليدللها أو يجلس معها، طرح السؤال على نفسه وأجاب، هناك الكثير من الفتيات البكر تنتظر تلك الفرصة، سواء كان قطار الزواج قد فاتها، أو تعيش بقرية فقيرة وتريد العيش بالمدينة، وصحيح أنه رجل خمسيني إلا أنه يملك من الشباب الكثير، وصحته ووضعه المالي الحالي يحتملان الزواج.

ولكن أين سيجد فتاة بتلك المواصفات! يحتاج مساعدة ولا يوجد من هو أقرب من عزوز، هو الوحيد القادر على مساعدته؛ لتعدد علاقاته، يعتبر فقيهًا في تلك الأمور، صياد ماهر يعرف كيف يوقع الفريسة بسهولة، وهو راجل ناضج سيعرف كيف يعلقها به ويجعلها توافق على الزواج، قام ليغير ملابسه ويحظى بقسط من الراحة حتى يتحدث مع عزوز بالأمر وهو خالي البال وجسده يشعر بالراحة، ليستطيع حينها ترتيب الكلام الذي يجد به صعوبة بالغة في طرحه على عزوز.

***

بينما كان محفوظ يغط في نوم عميق كان عزوز يمارس عمله على سيارة الأجرة، يدور بشوارع العاصمة بحثًا عن من تجعل حرارة الجو تبدو أكثر طراوة ولطفًا، كان يمنّي نفسه بتوصيلة لسماح ولكنها رفضت بشكل محرج جدًا له أمام زملائه، عليه الآن أن يعوض تلك الأمنية بأمنية أجمل منها، العديد من الزبائن حاولوا توقيفه لايصالهم، ولكنه لم يجد بأي منهم ضالته، اقتربت الساعة من الخامسة، وقد شعر بالجوع، توقف عند أحد المطاعم الشهيرة المزدحمة، صف سيارته بالقرب منه ونزل ليحضر بعض الشطائر يسد بها جوعه للطعام، وبينما وقف بانتظار عمل الشطائر، وقفت بجواره حسناء عشرينية مع صديقتها، تنتظران الشطائر بدورهما، غمزت له إحداهن بطرف عينها حين رأت عينيه الزائغة على الأخرى، ضحك ضحكته الشهيرة وعبث بشاربه الرفيع، فضحكت الفتاة بصوت عالٍ، فرد عزوز على ضحكتها بالصلاة على الرسول، التفت إليهم بعض زبائن المحل، ولكن دون تدخل أي منهم، فقط اكتفوا ببعض النظرات العابرة، انتهى الرجل من عمل الشطائر وأعطى كل من عزوز والفتيات طلبهم، أخذ عزوز شطائره ومشى خلف الفتاتين اللتين ظّلت إحداهما تتلفت ناحيته، مما جعله يتحمس ويتجرأ في الحديث معها:

- هو أنا ممكن أوصلكم لو تحبوا يعني، هها هها ها.

- ميرسي يا عمو.

ردت بها الفتاة التي لم تكن تلتفت، شعر عزوز بالإحراج ولكن كونها ردت على كلامه يعني أن هناك بصيص أمل في استجابتهما لطلبه، فكرر الطلب بطريقة أخرى:

- ههها ها ها، أنا عمو اه بس مش قوي يعني، عمومًا يعني أنا عندي تاكسي فقلت استرزق وتنفّعوني لو هتاخدوا تاكسي لأي مكان أهو بدل ما تقفوا في الحر وبدل ما أطلع أنا فاضي، هها ها ها.

تتوقف الفتاتان وتنظران لبعضهما البعض، تتهامسان ثم تقول المتلفتة:

- طيب إحنا عاوزين نروح المقطم ممكن تودينا؟

يبتهج عزوز لطلبهما فالمقطم منطقة هادئة، هو يحب الذهاب هناك، يعتبره مكانا مناسبا جدًا للجلوس بالسيارة مع إحداهن، خاصة مع اقتراب وقت الغروب سيكون الطقس رائعا هناك:

- طبعًا طبعًا، اتفضلوا العربية هناك أهي.

تمسك الفتاتان بأيدي بعضهما البعض وتضحكان في خجل، يفتح عزوز السيارة فتركب إحداهن في الخلف بينما جلست التي كانت تتلفت ناحيته على المقعد المجاور له، يفتح عزوز كيس طعامه ويخرج شطيرة منه:

- بسم الله، اتفضلوا بقى معايا.

- ميرسي ما احنا معانا أكلنا.

تقولها الجالسة في الخلف وهي تهم بفتح كيس الطعام، تناول صديقتها شطيرة وتعزم على عزوز بأخرى:

- اتفضل حضرتك..

- لا، متشكر ما انت ما رضيتيش تاخدي من إيدي، هها هها ها.

- خد ده شاورما أحلى من اللي معاك.

- لا ما ده هامبورجر بالبيض تدوقي.

يقولها وهو يمد لها يده بالشطيرة، تمد يدها وتقضم من الشطيرة برقة، ينتشي عزوز، ويصلي على الرسول:

- أيوه بقى أهو كده بقى هامبورجر بالبيض والعسل.

تضحك الفتاتان، ويتبادل ثلاثتهم الحديث والضحكات، يتحرك محفوظ

بالسيارة بعدما أنهى وجبته، طلبت منه الفتاة بالمقعد المجاور أن يتوقف بجوار أقرب كشك ليحضرا الماء وبعض العصير، يتوقف عزوز، تهم إحدى الفتاتين بالنزول فيوقفها عزوز قائلًا في حماس:

- لا والله ما يحصل، سيبوها عليا المرة دي، أنا عازمكم، ها تحبوا تشربوا إيه؟

- لا ميرسي مش هينفع.

- لا هينفع، هو مش أنا عمو؟ ينفع يعني تكسفي إيد عمو؟

يقولها ويغمز لها بطرف عينه، تضحك الفتاة وتقول في غنج:

- لا مايصحش طبعًا يا عمو، أنا هاخد حاجة ساقعة.

يلتفت للجالسة في الخلف، فترد في خجل:

- وأنا كمان بس برتقال لو سمحت.

يخرج عزوز لإحضار ما طلبتاه، تتهامس الفتاتات وتضحكان، كان يود لو ترك أذنه معهما ليعرف ما تقولان عنه، هما بالتأكيد تتحدثان عنه، يبدو أنه أعجبهما، سيكون وقتًا طيفًا، هو يعلم أن عمرهما معًا ربما أقل من عمره منفردًا، ولكن لا بأس سيعيدان له بعض مشاعر الشباب، سيفقد سنوات عمره مع أول جلسة له بينهما، ربما اتخذا المقعد الخلفي كأريكة، يجلس هو بالمنتصف وكل منهما على جهة تتغزلان به وتزيحان عنه بعض همومه.

يناوله الرجل في الكشك باقي نقوده، يعود مهرولًا للسيارة وسط تهامس الفتاتين:

- هها ها ها، اتأخرت عليكم معلش.

- لا خالص لسه معانا وقت.

- المغرب قربت خلاص.

- اه يادوب نوصل هناك قبل الضلمة.

- هها ها ها، وماله ولو إن الضلمة حلوة، الضلمة سُترة.

تضحك الفتاة بالخلف:

- أيوه والله ياعمو سُترة، على الأقل محدش يفضل يبحلق فينا وإحنا ماشيين.

- بس المقطم هادي مافيهوش زحمة زي وسط البلد.

- اه هادي وإحنا بنحب الهدوء.

تقولها الفتاة بالمقعد المجاور وهي تخبط عزوز على كتفه، متابعة:

- يالا بقى ياعمو عشان نلحق الشمس.

- وهو إحنا مسافرين؟ ياستي ولو مالحقناهاش، أهو نلحق القمر، هها هها ها، ولو إني معايا قمرين هنا أهو.

يقولها ويتحرك بالسيارة، الطريق مزدحم؛ الجو حار والجميع خرج للتنزه بحثًا عن نسمة هواء لطيفة، تقترب الشمس من المغيب، وتقترب الفتاتان أكثر من عزوز، حكى لهما الكثير وحكتا له الكثير والكثير، جميعهم يعلم أنها حكايات ملفقة، غابت الشمس وغاب معها حياء الفتاة بالمقعد المجاور له، بدأت تتقرب منه، والفتاة الأخرى تتصنع النعاس، تحتضن حقيبتها وتغمض عينيها، يرتبك عزوز ويلتفت للخلف، تهمس له الفتاة في غنج:

- نامت، مش واخدة بالها ما تخافش.

- هها هها ها، أنا مش خايف، أنا قلقان بس لا تصحى فجأة.

- لا ما تقلقش هي لما بتنعس كده مش بتقوم إلا لما أنا أقولها تقوم.

تقول جملتها وتغمز له، ففهم عزوز أنها تصنعت النوم لتترك لهما مجالًا للهو:

- هها هها ها، طب ها؟ هنقف هنا ولا إيه؟

- لا أنا أعرف مكان ضلمة وهادي ومحدش هيزعجنا فيه، امشي وأنا أوصفلك الطريق.

أكمل عزوز طريقه على إرشادات الفتاة، منحدرات كثيرة مر عليها، طرق متداخلة، حتى وصل لبقعة هادئة لا ضوء فيها ولا صوت، أطفأ أنوار السيارة وهم بالاقتراب من الفتاة، ضوء خافت أضاء تابلوه السيارة، صاحبه صوت رنين مزعج، واسم منة الله توسط الشاشة، فزعت الفتاة فربت عزوز عليها، وأغلق الخط في وجه المتصل، وأغلق الهاتف نهائيًا، فتح ذراعيه محتضنًا الفتاة، كاد يقبلها، لولا قاطعه سلاح أبيض غُرز في جانبه الأيمن، ذهل عزوز مما يحدث، ظلت الفتاة في حضنه تفتش بيدها عن محفظة نقوده وأي شيء آخر يمكنها سرقته، جذبت الهاتف من يده طابعة قبلة على خده، خرجت الفتاتان من السيارة ملوحتين له:

- باي باي يا عمو.

قالتها الفتاتان، ضرب عزوز رأسه في مقود السيارة مردداً العديد من الشتائم تجاه الفتاتين، هم بإدارة موتور السيارة فأتاه رجل من على يساره وآخر فتح الباب المجاور ودخل ليجلس بجواره، مشهرًا سلاحًا أبيضَ في وجهه قائلًا في بهجة:

- مساء الخير يا عمو.

فتح عزوز فمه غير مستوعب لما يحدث، ففتح الرجل الآخر الباب الملاصق له وطلب منه النزول قائلًا:

- بقولك إيه يا عمو، العربية دي تلزمنا، انزل بقى عشان مستعجلين، ولو تحب نوصلك لأول الطريق اركب ورا.

ترجل عزوز من السيارة دون أي شيء سوى ملابسه، وقف في ذهول وهو يشاهد السيارة تبتعد عنه تاركة إياه في تلك البقعة الهادئة جدًا..

*****

مازالت الوحدة تعبث بعقلها، تقاسمها مكتبها وأوراقها، تختلط بين الأرقام الكثيرة المتناثرة أمامها، تتقافز مخرجة لها لسانها، تغيظها جدًا تلك اللعينة، تقف على كتف فتاة تتعلق بذراع رجلها تستطيع رؤيتهما من خلف الزجاج وقلوب حمراء تتلألأ داخل عيونهما، ستظلي وحيدة، بائسة، ستغتالك الأيام بدم بارد، تسحب نضارتك، وقوتك، ستتركك هشة، ممزقة بين متطلباتك وبين كبريائك ومنصبك، قرابة العشرة أعوام وأنا صديقتك اللدودة، لم تستطيعي إنهاء تلك العلاقة القوية بيننا، لا تقلقي يا عزيزتي سأرافقك حتى النهاية، حتى أزفك إلى مثواكِ الأخير، أو عليكِ أن تتخذي خطوة جريئة، قرار بسيط، وكلمات قليلة، يمكنك بعدها أن تقنعيني بالابتعاد عنكِ قليلًا.

حوار صامت دار بين إلهام ووحدتها، ألقت القلم من يدها، احتضنت رأسها بين كفيها تحاول منع سيل من الدموع، تضغط بقوة على جانبي رأسها علها تُخرج تلك الأفكار منها، تغلق عينيها، تأخذ نفسًا عميقًا، تزم شفتيها، تخرج النفس ببطء، تلوي شفتيها لأعلى وأسفل كطفل رضيع غضب من أمه، تتسارع أنفاسها، تبكي وتبكي دون صوت أو دموع، تشعر بالعمر ينساب من بين أصابعها، الشعر الأبيض بدأ يغزو رأسها، تغلفه بصبغة سوداء ولكن شيبه يفضحه تحت وطأة الوقت، تحاول إقناع نفسها أن الشيب وقار، ولكن أي وقار هذا الذي يضرب بامرأة لم تعش أنضج فترات عمرها كما ينبغي، لابد أن تفقد جزءا من ذلك الوقار الآن وإلا فلن تعرف للأنوثة طعمًا مرة أخرى.

ترفع سماعة الهاتف الموجود أمامها تطلب رقمًا داخليًا، ليرد عليها صوت أنثوي في الجهة المقابلة، تخبرها بحسم:

- ابعتيلي مكرم يا علا.

تخرج مرآة صغيرة من درج بجانب المكتب، تلقي نظرة سريعة على وجهها

لتطمئن أن لا شيء من الدموع قد سقط سهوًا وأفسد كحل عينيها، يطرق مكرم الباب الزجاجي ويمسك بمقبضه، بحركة سريعة تخفي المرآة في الدرج مرة أخرى وتعتدل في جلستها قائلة بابتسامة لم يعتدها أحد منذ فترة:

- تعالى يا مكرم اقعد.

بلع مكرم ريقه وتنحنح، اقترب من المقعد المقابل لها وجلس في حذر، لم يكن يعلم الغرض من طلبها حضوره إليها، ظلت تنظر إليه دون كلام، ابتلع ريقه مرة أخرى قائلًا بتوتر:

- خير يا ريسة؟ حضرتك طلبتيني وأديني جيت.

- إزيك يا مكرم؟

- الحمد لله يا ريسة، بخير والله.

- وازي المدام بتاعتك عاملة إيه؟

- بخير الحمد لله.

- هي اسمها إيه صحيح؟

- وفاء حضرتك، اسمها وفاء.

- عاشت الأسامي.

- تسلمي يا ريسة والله.

الصمت يخيم عليهما مرة أخرى، وتوتر مكرم يجعله يتعرق كثيرًا، تلاحظ إلهام توتره فتمد له يدها بمنديل ورقي قائلة في حنان:

- عرقان كده ليه؟ خد امسح عرقك، ده حتى التكييف عالي، مالك هو أنت تعبان؟

يتناول مكرم المنديل ويمسح جبهته المتصببة:

- لا أبدًا يا ريسة، مش عارف مالي والله، يمكن بس متوتر شوية.

- متوتر ليه؟ هي المدام لسه تعبانة؟

- لا خالص، أنا بس قلقان بسبب الموضوع اللي حصل بتاع العميل الرخم ده.

- وقلقان ليه؟ الموضوع خلص، هو انت شفتنا حولناك للشئون القانونية؟

- لا يا ريسة بس..

- مابسش الموضوع خلص وأنا قلت كده قدام العميل عشان أسكته وخلاص.

- مش عارف أقول إيه لحضرتك والله، كتر خيرك ده أنا كنت شايل هم الخصم.

- ماتقولش حاجة يا مكرم كون بخير دايمًا بس.

يهم مكرم بالوقوف، شاكرًا إلهام، يمد لها يده بالسلام من فرط سعادته بعدم تحويله للشئون القانونية وعدم تعرض مرتبه للخصم، تبتسم له إلهام، يطلب منها الانصراف فتأذن له وهي غير راغبة في انصرافه من أمام عينيها.

***

يجلس مكرم أمام نافذته المطلة على بهو العملاء، يتطلع إلى وجوههم في صمت، تتملكه فرحة عارمة، ولكن هناك شبح من قلق يدب في قلبه، لا يعلم مصدره ولكنه بدأ يتملك منه، لم يعتد أن تعامل إلهام النجار أي موظف بهذه الطريقة، هل هو فخ ما تنوي وضعه فيه. أم ماذا حل بها؟ ينفض تلك الأفكار عن عقله فهي امراة لم يعب بها أي شخص، عرفها منذ عشرة أعوام أو أكثر حين كان موظفًا جديدًا بالبنك وهي كانت موظفة أقدم منه بعدة أعوام، جذبته شخصيتها القوية، تكبره سنًا ولكن لم يمنعه هذا الفرق عن حبها بذلك الوقت، ولكن اليوم لم تعد هي إلهام التي أحبها يومًا، ولم يعد هو مكرم زميلها، هو الآن متزوج من وفاء ووفيًا لها، وعليه التفكير في سد أقساطه بدلا من ذلك التفكير الصبياني الذي

لن يدفع عنه أقساطه، ينهي العديد من المعاملات بابتسامة دائمًا ما يرسمها على وجهه، اقتربت ساعات العمل من الانقضاء، عليه أن يقوم بعدة مشاوير قبل عودته للمنزل، الذهاب لوسط المدينة أمر يؤرقه دائمًا؛ لا يحب الزحام ولا الشباب المتسكع بالشوارع، ولكن يجب أن يذهب إلى هناك لزيارة أخيه؛ فهناك زفاف قريب بالعائلة يجب مساعدته في ترتيبه.

يجهز حقيبته الصغيرة ويتحرك للخارج، كانت تجلس بسيارتها في انتظار إلقاء نظرة سريعة على ملامحه التي أصبحت تعوضها عن الكثير من السوء المحيط بها، يمر من أمامها، يخطف قلبها مع كل خطوة يخطوها، على بعد ثلاث سيارات كان يصف سيارته، تتابعه حتى تحرك بسيارته وغاب عن ناظرها، تتحرك بسيارتها عائدة للمنزل، بينما هو وصل إلى محل أخيه.

***

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يرد بها الحاج سلامة الذي كان يجلس خلف مكتبه يشرب فنجانا من القهوة، يقوم من مكانه مرحبًا بالزائر..

- مكرم! عامل إيه؟

- بخير يا حاج الحمد لله، ما ينقصناش غير رؤياك.

- ربنا يكرمك يا حبيبي، اتفضل يا غالي يا ابن الغالية.

- الفضل كله عندك يا حاج، متشكر قوي.

يجلس مكرم على مقعد مجاور للحاج سلامة أخيه الكبير غير الشقيق، حيث تزوجت أم الحاج سلامة من والد مكرم بعد انفصالها عن والده بعامين، كانت

العلاقة طيبة بين الحاج عبد الصبور وطليقته حتى بعد زواجها وإنجابها مكرم؛ كانت ابنة عمه وأم ولده وقد طلقها بناءً على طلبها بعد معرفتها بزواجه من أخرى عليها، انصاع لرغبتها ولكنه أبقى على العلاقة الطيبة حتى لا يتأثر سلامة بهذا القرار.

مرت الأيام وتوفي الكبار ولم يبق للحاج سلامة من رائحة أمه سوى مكرم الذي كان نسخة قريبة الشبه من أمه في حنانها وطبعها الهادئ، اعتاد سلامة مساعدة مكرم شهريًا رغم عمله بالبنك، إلا أنه كان يعلم متطلبات زوجته وتوريطها له في كثير من الأقساط.

مد الحاج سلامة يده في الدرج المقابل له وأخرج ظرفًا منتفخًا بالنقود وناوله لمكرم بابتسامة عريضة، بينما تناوله منه مكرم بخجل قائلًا:

- والله أنا ما عارف أودي وشي منك فين يا حاج؟

- عيب يا واد ما تقولش كده، ده أنا أخوك الكبير، والمليان بيصب على الفاضي.

- ربنا يديم عزك يا حاج، ألا قولي صحيح.

- خير يا غالي!

- هو فرح أسماء هيبقى في نفس الفندق ولا غيرت زي ما كانت بتقول.

- أيوه ياسيدي غيرته ماعجبهاش الفندق أبو 3 نجوم وقالت لازم فندق خمس نجوم، جيل ما يعلم بيه إلا ربنا.

- ربنا يباركلك فيها وفي اخواتها يا حاج، مالهمش بركة إلا أنت.

- أيوه بس القاعة في الفندق ده غالية أوي يا أخي، أنا مش عارف إيه الجحود اللي في الأسعار ده!

- كل حاجة غليت يا حاج، ما عادش في حاجة على حالها.

- ربنا يلطف بينا.

يهب مكرم واقفًا مادًا يده للحاج سلامة بالسلام قائلًا في أدب:

- تؤمرنيش بحاجة أنا ياحاج؟

- ما يؤمرش عليك غالي يا خويا، هستناك يوم الفرح انت ووفاء بقى.

- إن شاء الله يا حاج، ربنا يتمم بخير.

يخرج مكرم ليكمل ما بدأه من مشاوير لدفع أقساط متأخرة بعد أن أعطاه الحاج سلامة الظرف المنتفخ، يتوقف لشراء علبة سجائر، يسأل الشاب في الكشك الصغير عن مكان هادىء لشرب القهوة، فيشير له الشاب إلى ممر ضيق يدخله ليجد نفسه أمام مقهى لاتيه.

***

في ركنها الهادئ كانت تجلس تحملق في الفراغ وأمامها فنجان ممتلئ باللاتيه يتراقص بخاره أمام عينيها، دخل ليجلس في طاولة مجاورة لها على المقعد المقابل لمقعدها، ملامح الأنوثة البادية على جسدها تختلط بمساحيق التجميل التي تغطي وجهها فتعطيها عمرًا يقترب من بضع وعشرين، بابتسامة مجاملة بادرها مكرم الذي شعر بانجذاب غريب تجاهها، بادلته الابتسامة بدلال مصحوبًا بإيماءة وغمزة من إحدى عينيها؛ فأربكته.

ضحكت بصوت عالٍ، فتنحنح معدلًا من وضع رابطة عنقه، اقترب منه النادل، فطلب فنجان قهوة، كررت غمزتها له فازداد ارتباكه وبدأت قطرات العرق تتجمع فوق جبهته، يتلفت بشكل عشوائي وكأنه يخشى مراقبة أحد له، ظلت تراقبه وتربكه مستمتعة بما تفعله به.

عاد النادل مع فنجان القهوة ووضعه أمام مكرم، رفعت فنجانها وحيته به،

وأشارت له بالاقتراب منها، تلفت حوله لم يجد أحد خلفه، أعادت عليه الإشارة، فأشار بسباته تجاه صدره، فأومأت له، ابتسم وقام ناحيتها، طلبت منه الجلوس معها، أخرجت سيجارة وأشعلها لها، نقل النادل فنجان قهوته لطاولتها أشعل سيجارة بدوره وانتهى ارتباكه.

- تالا..

- مكرم..

- حلو مكرم.

- متشكر والله كلك ذوق، بس هو يعني إيه تالا ده؟!

كانت علامات الاستعجاب على وجهه مثيرة للضحك؛ ضحكت بصوت عالٍ، وسحبت نفسا عميقا من سيجارتها، كان ينظر لها بإعجاب شديد منتظرا الإجابة على سؤاله الذي لم ير فيه أي شيء مضحك:

- تالا ده يا سيدي اسم إغريقي ومعناه الشابة الحسناء، المشرقة والجميلة ولا انت إيه رأيك؟

- اه طبعا جميلة جدًا.

- ميرسي..

ببراءة مفتعلة:

- وعندك كام سنة بقى يا مكرم؟

- 37 سنة، وأنتِي؟

- يعني تقدر تقول كده... إنت تديني كام سنة؟

- يعني ممكن نقول 20.

- زود عليهم 7 كمان يبقوا 27.

- بس شكلك صغير أوي على الرقم ده.

- اه أصل أنا بيبي فيس، تشرب لاتيه؟

- لا شكرًا ما بشربش غير قهوة تركي.

تنهي فنجانها وتطفئ ما تبقى من سيجارتها، تمسك حقيبتها وتطلب الفاتورة من النادل:

- طيب يا أستاذ مكرم أنا مبسوطة إني اتعرفت عليك، أتمنى أشوفك هنا تاني، باااي.

تتركه وترحل يشير لها بالسلام دون رد وكأن حروفها اقتطعت جزءا من لسانه فنسي كيف يخرج الحروف من فمه.

***

حلمه الصغير لا ينفك أن يراود عقله، يأخذه لأعلى، يرى نفسه رجلا ذا شأن عظيم، يندهش الناس لما حققه من نجاح رغم صغر سنه، تتسابق الفتيات للتقرب منه، رائحة عطره النفاذ تجبرهن على الاقتراب منه، يتودد إليه الكبير قبل الصغير، يناولهم يده ليقبلوها؛ يطبعوا عليها ختم النجاح، يد خشنة تقترب من كتفه، لم يعد جسده يتحمل الخشونة، اعتاد على الحرير، يدفع اليد بعيدًا، يكرر صاحبها الاقتراب منه، يمسك بكتفه بقوة:

- اصحى ياد بقى.

- إيه ياعم في إيه؟ ما تسيبني أنام.

- نامت عليك حيطة، قوم فز المعلم تهامي عاوزك في مصلحة.

يقفز من فراشه مسرعًا، متوجهًا نحو المعلم تهامي الذي ينفث دخانه الأزرق في انسجام مع صوت أم كلثوم الواصل إليه من راديو قريب:

- خير يا معلم أؤمرني.

- هأمرك ياخويا بس روح طس وشك بشوية مية كده عشان تفوق لي.

- اعتبره حصل يا معلم، أنا فايق أهو ومصحصح.

يبعد مبسم الشيشة عن فمه، وينظر لمصطفى بطرف عينه قائلًا في هدوء:

- لما تهامي يقول طس وشك يبقى تغور تطسه وترجع قبل ماهو يرجع مبسم الشيشة ويشد النفس تاني.

يجري مصطفى إلى حوض قديم معلق بأحد أركان السطح يغسل وجهه ويضع رأسه تحت الصنبور ويعود مسرعًا يقطر الماء من وجهه وشعره، يمسك بطرف قميصه يغطي به وجهه مجففًا بضع قطرات من المتساقطة:

- أنا صحصحت أهو يا معلم، أؤمرني، هروح للأستاذ كريم؟

- هو انت مفيش في دماغ أمك دي غير كريم، مافي غيره زباين كتير.

- بس مش كلهم زي الأستاذ كريم، ده بيه كده وابن ناس عاليين، وفلوسه حلوة.

- طيب ياخويا، هتروح للأستاذ كريم، بس قبل ماتروحله هتروح توصل توصيلتين تانيين.

- أوامرك يا معلم، المهم هنختمها بالأستاذ كريم.

- يادي النيلة عليك وعلى كريم بتاعك، هو ساحر لك ولا إيه ياد؟

- لا بس أنا بحبه يا معلم.

يقهقه تهامي ويرد مستهزئًا:

- بتـ إيه يا ننوس عين أمه؟

- بحبه يامعلم، يووه مش اللي جه في دماغك يا معلم، أنا راجل أوي.

- ماهو باين يا ننوس، يالا خد بضاعتك واتكل على الله، وابقى شوف لك نومة تانية غير هنا، عشان في ناس جايين يسهروا معايا الليلة دي.

- ناس مين يا معلم؟

يقذفه تهامي بفردة حذائه، قائلًا في عصبية:

- وانت مال أمك، غور ياد على أكل عيشك جتك الهم.

لا يهتم مصطفى لشيء الآن سوى ذهابه إلى كريم، يطلق ضحكة عالية، ويركض تجاه السلم، تقفز الفرحة من عينيه، وكأنه ذاهب للقاء حب عمره وليس تسليم بضاعة لزبائن المعلم تهامي.

يتم المهمتين السابقتين لمهمة كريم، تقترب الشمس من المغيب، يتجول بشوارع وسط المدينة يطالع واجهات المحلات، ويختار الملابس التي سيشتريها بعد أن حصل على نصيبه من البيعة، يجب أن يذهب لكريم وهو ذو مظهر لائق، رائحته نتنة يحتاج إلى الاستحمام، لن يتركه أحد يقيس الملابس أو يسمح له بدخول المحل بتلك الرائحة، لغة النقود ستتحدث، ولكنه لا يملك مالًا وفيرًا لهذا الحد، كما أنه سيثير الشبهات نحوه، تلك الرائحة وذلك المظهر لا يتفقان مع المال، يفكر بالعودة إلى المنزل، ولكن المخبر ربما مازال يتربص به، وإن عاد فلن تتركه أمه يذهب مرة أخرى، ستتعارك معه حتمًا على تلك الغيبة، لا بأس سيتحمل تلك المعركة الصغيرة مقابل زوال الرائحة، ولكن كيف يفلت من المخبر؟ ذلك هو السؤال المحير.

***

بشق الأنفس تتكئ على طرف السرير تحاول الوقوف للذهاب لقضاء حاجتها، تتعثر مرة والثانية والثالثة، جسدها الثقيل يمنعها من أن توازن نفسها على قدم واحدة، ذراعها يؤلمها من الاتكاء، رغم اعتيادها له، فهي دائمًا متكئة على غيرها، تفشل في الاعتماد على نفسها تلك المرة كعادتها، بصوت واهن تنادي على أمها، لم تسمعها الأم المنشغلة في قراءة القرآن بعد ختم صلاتها في غرفتها، تعاود النداء، تكرر كل شيء اليوم ولكن لا شيء ينصاع لنداءاتها، لا أحد يهتم أو يسمع صوتها، تكرر النداء ولكن هذه المرة تنادي أسماء التي كانت تتحدث في الهاتف، تسمعها أسماء ولكنها لا تعيرها اهتمامًا تعاود النداء ولكن هذه المرة بصوت مخنوق

يختلط بالدموع المتساقطة من عينيها، تتأفف أسماء وتنهي المكالمة، تذهب إليها على مضض تسب وتلعن في طريقها للغرفة:

- إيه ياست علياء عاوزة إيه؟

تقولها بصوت متذمر وهي تدفع الباب بقوة، وتنظر ناحية السرير، ولكنها لا تجد علياء بمكانها.

كانت علياء بجوار الدولاب تستند عليه وتقف على قدم واحدة، تنظر إليها أسماء بشفقة متسائلة:

- إنتِي إيه اللي موقفك عندك كده؟

- واقفة بشم هوا، عاوزة أروح الحمام وحاولت أطلع بره ما قدرتش، ممكن تساعديني؟

تقترب منها أسماء وابتسامة تغزو وجهها، تمسك بيدها قائلة:

- ولو إنك رخمة وأنا بكره رخامتك وعندك، بس برضه إنتي أختي الكبيرة وأنا بحبك.

تضحك الفتاتان وتقفز علياء على قدمها السليمة رافعة الأخرى في الهواء:

- ماتحاولي تدوسي عليها يا علياء.

- بتوجعني قوي ما أقدرش أدوس عليها خالص، خليها كده عشان تخف بسرعة.

- ماشي يا ستي بس اتجدعني وخفي بسرعة عشان تحضري الفرح وانتِي حلوة وسليمة مش هتدخلي القاعة وانتِي بتنطي على رجل واحدة، وبعدين يعني مين هييجي معايا الكوافير ويساعدني في الفستان.

- هو ده اللي هامك بس؟ إني أساعدك؟

- مش قصدي يا علياء أنا أقصد إنك أختي الوحيدة وأنا مليش غيرك يقف جنبي في يوم زي ده.

- ماشي يا أسماء، اطلعي بره بقى عقبال ما أخلص.

- ماشي يا حبيبتي أنا هقف جنب الباب لما تخلصي اندهي عليا عشان أجي ادخلك للسرير تاني.

تخرج أسماء لتقف بجوار الباب تخرج هاتفها من جيبها وتبدأ في مطالعة العالم الأزرق، تتعثر بمنشور علياء بتغيير صورتها الشخصية بصورة إحدى الفاتنات، تقرأ التعليقات وردود شقيقتها، تبتسم آسفة على حال أختها، هي تعلم أنها تعاني مشكلة نفسية ولكنها لا تقر بذلك، تدعو لها بالهداية وتغلق الهاتف بعد سماعها صوت علياء ينادي باسمها.

- حلوة صورة البروفايل الجديدة دي يا علياء.

- شبهي خالص مش كده؟

- شوية اه.

- تعرفي! الناس مفكراها أنا.

- ليه، مايعرفوش إن دي ممثلة يعني؟

- مش كل الناس بتحب الهندي، وبعدين الممثلة دي مش مشهورة قوي، ومحدش عارف اسمها.

لم تجد أسماء ما ترد به على شقيقتها فهي الآن في غنى عن أي مشادة ونقاش حاد قد يعكر مزاجها خاصة مع اقتراب موعد زفافها، تعود علياء لسريرها ومتابعيها ومعجبيها في العالم الأزرق، لترد على هذا، وتثير غيرة ذاك، ثم تذهب للغرفة المغلقة مع عزيزها عزيز، لتخبره بتطورات آلامها، فيطلب منها صورة لها،

ترفض كعادتها، هو يود رؤيتها بشدة، وهي ترفض بمنتهى الحسم، يتعارك معها ويغلق الدائرة التي تحوي صورة الممثلة الهندية المغمورة.

تجلس شاردة في الفراغ المحيط بها، تفكر كيف لها أن تلبي طلبه دون أن تؤذي نفسها، هي تريد أن ترسل له الكثير من الصور، تحتاج لكلماته المعسولة لترضي غرورها ولكن الخوف هو ما يمنعها.

***

يلملم ما تبقى من كرامته وعقله، يترجل بهدوء بين الظلام المحيط به من كل اتجاه، كان يأمل في جلسة مدهشة من المتعة ولكنه حظي بسرقة لا تقل اندهاشًا عن متعته المرجوة، لقد أخذوا كل شيء منه، لم يتبق له سوى ملابسه وبضعة جنيهات معدنية كانت بجيب بنطاله تركوها له لعدم أهميتها، ماذا سيفعل الآن ليس هو السؤال المهم، ماذا سيخبر زوجته وأبناءه هذا هو السؤال الأهم، ظل يشق طريقه وسط الظلام حتى وصل لأول خيط نور قريب، مصباح أصفر دامس معلق أمام إحدى الفيللات الصامتة، اقترب من السور علّه يجد حارسًا أو فرد أمن يساعده، ولكنه لم يجد سوى نباح كلب ينم صوته عن ضخامة هائلة، أخذ يجر أذياله خلفه راكضًا نحو البقعة التالية من الضوء.

كان الرجل يجلس خلف البوابة الحديدية مستمتعًا بنسمة هواء صيفية هادئة، يسحب أنفاسه من بوصة تنتهي داخل مرطبان زجاجي كبير، اقترب منه على استحياء مناقض للثقة التي يحدثه بها:

- ههها ههها ها، مساء الخير يا بلدينا.

- مساء الخير يا بوي اتفضل.

- يدوم عزك يا بلدينا، معلش بس أستاذنك في دقيقة من موبايلك أحسن ولاد الحرام طلعوا عليا سرقوني وعاوز أكلم حد يجيلي.

يسحب الرجل نفسًا عميقًا من بوصته، ويخرجه ببطء متفحصًا وجه عزوز

الذي يقف أمامه كتلميذ لم يكتب واجبه المنزلي، يتصبب عرقًا، ويرسم ابتسامة بلهاء على وجهه، يضع الرجل (الجوزة) من يده، ويقوم إليه، يقترب منه من خلف البوابة الحديدية، يشتم رائحته، لا يجد أثرًا لرائحة كحول أو حشيش، يحك رأسه ويلف شاربه السميك، يمد يده بجيب الصديري ليخرج مفاتيح القفل المعلق بالسلسلة، يهم بفتح الباب قائلًا:

- شكلك راجل محترم، مش كداب زي المقاطيع اللي بيجولي كل شوية عشان يقلبوا مني أي مُصلحة.

- والله انت اللي راجل محترم، وابن حلال يا بلدينا.

- اتفضل يا بوي أقعد وخد واجبك.

- الله يكرمك، أنا عاوز بس التليفون أعمل مكالمة لصاحبي يجيلي يروحني.

يعيد الرجل وضع القفل بالسلسلة ويغلق الباب، ثم يعطي هاتفه الصغير لعزوز:

- معلش يا بوي اعذرني ولاد الحرام مخلوش لولاد الحلال حاجة، خد التليفون أها.

- تُشكر يا بلدينا.

يطلب رقم محفوظ الذي لحسن حظه كان يحتفظ به في ذاكرته التي لم يجرؤ أحد اللصوص على سرقتها منه، يخبره بالأمر خلال وصلة ضحك متواصل من محفوظ الذي كاد يسقط من فوق أريكته.

ساعة ونصفها مرت حتى وصل محفوظ لعنوان الفيللا التي جلس فيها عزوز مع حارسها، كان عزوز قد حكى للرجل النصف الثاني مما حدث له، وشربا معًا ثلاثة أدوار متتالية من الشاي الصعيدي الثقيل كالحبر.

- سلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله، تعالى يا محفوظ، قوم يا بلدينا افتح له الله يرضى عليك.

- اتفضل.

يفتح الرجل البوابة ويمد يده بكوب الشاي لمحفوظ.

- متشكر يا حاج.

- لا متشكر إيه لازم تاخد واجبك يا بوي، امسك.

- تشكر يا راجل يا طيب.

يرتشف محفوظ من الكوب والخوف يملؤه، يتملكه يقين بأنها خطة جديدة للاستيلاء على هاتفه وسيارته التي صفها على ناصية الشارع حتى يفلت من أي كمين قد يكون دُبر له.

- مش ياللا بقى يا عزوز نتوكل على الله عشان ورانا شغل الصبح؟

- هها هها ها، اه صحيح ياللا بينا، متشكرين أوي يا بلدينا على الواجب ده.

- لا شكر على واجب يا بوي، ربنا يسترها عليكم.

يدفع محفوظ عزوز دفعة خفيفة من الخلف ضاحكًا:

- ياللا ياخويا قبل ما نتثبت سوا في الحتة المقطوعة اللي انت جايبنا فيها دي.

- أومال فين عربيتك؟

- راكنها على الشارع بره في العمار خفت اتقلّب أنا كمان.

- هها هها ها، لا يا عم ماتخافش مفيش مزز بتقلب هنا خلاص، هما قلبوني وخدوا العربية وخلاص.

- طب ياللا يا خويا على القسم عشان تعمل محضر.

- طب وهقول إيه في المحضر بس يا محفوظ؟

- هتقول اللي حصل.

- يعني أروح أقولهم كنت شاقط البنات في حتة خلا قاموا ثبتوني؟ إنت عايزني اتفضح يا جدع.

- لا طبعا هتقول إنك كنت بتوصلهم وهما استدرجوك للمكان ده بحجة إنك هتوصلهم ليه وسرقوك.

- هها هها ها، تصدق صح كده، وهقول كده للولية والعيال برضه عشان مايبقاش شكلي عرة قدامهم.

- أومال إنت كنت ناوي تقول حاجة غير كده؟

- لا أنا كنت لسه بفكر.

- هي مش محتاجة تفكير يعني دي حاجة بديهية، إنت بس اللي مش مركز.

- صح عندك حق.

- أنا أصلا ياجدع مستغرب انت ازاي بالهدوء ده! ده انت عربيتك اتسرقت وفلوسك وتليفوناتك وكل حاجة.

- هها هها ها، فرحان عشان لسه عايش ياعم محفوظ، أنا كنت هروح في الرجلين بضربة مطواه من اتنين شمامين ولا ليهم لزمة.

- أهي دي آخرة المشي البطال.

- تبنا إلى الله.

يقولها عزوز بصوت عالٍ، وهو يهم بفتح باب سيارة محفوظ التي وصلا أمامها بعد سيرهم بذلك الشارع المظلم.

***

يستند برأسه شاردًا على حافة النافذة، أضواء السيارات تلمع بعينيه، بريقها لحظي تمامًا كما بريق السعادة في حياته، كلها لحظات قصيرة، خاطفة، لا يتبق منها سوى أثر ابتسامة على وجهه، يشعر بالتعاسة تحيط به من كل جانب، تجذبه للعمق، يغرق فيها، لا مجال للهرب منها، كلما حاول زادت من شدة دورانها.

- أجرة اللي طلع.

يقولها سائق الميكروباص ناظرًا بمرآة السيارة الداخلية، يفيق مصطفى من شروده ويمد يده بجيب بنطاله ليخرج للرجل ثلاثة جنيهات معدنية، يناولها للرجل بالمقعد السابق له، هاتفه الصغير يصدر صوتًا متقطعًا، تود بطاريته بعض الشحن، يتبع ذلك الصوت المتقطع صوت رنة متواصل، يخرج الهاتف ليجد المعلم تهامي على الخط:

- ألو، أيوه يا معلم.

- .....

- لا ده تلاقي الشبكة بس.

- .....

- اه تمام كله تمام.

- .....

يضع مصطفى يده أمام فمه ويخفض صوته مجيبًا:

- أصل، أصل، هفهمك يا معلم، وأنا رايح، لامؤاخذه البنطلون بتاعي اتقطع، فقلت أروح أجيب بنطلون من البيت عشان برضه أشرفك.

- .....

- ماهو ما ينفعش أدخل الكافيه ده ببنطلون مقطوع برضه، شكلي هيبقى معفن قوي.

- .....

- مش هتأخر، هي مسافة السكة وهروح على طول، لسه شوية على ميعادي معاه، ما تقلقش.

- ....

- حاضر يا معلم، أوامرك يا كبير.

يحاول أن يكمل شروده ولكن البنزينة الكبيرة التي يجب أن يترك الميكروباص عندها لاحت أمام عينيه فطلب من السائق الوقوف:

- على جنب يا صاحبي.

ترجل من الميكروباص، وتوجه مباشرة إلى مدخل شارعهم، كان الشارع هاديء على غير عادته في تلك الساعة، لحسن حظه لم يره أحد وهو يدخل إليه إلا نشوى التي كانت تحاول صف سيارتها عند المدخل في مكان ضيق بصعوبة بالغة، تجاهلها رغم رؤيته لها، ولكنها لم تتجاهله، نادت عليه بصوت عالٍ:

- مصطفى!

- أبلة نشوى! إزيك.

تنظر إليه، تتفحص ملامحه التي كانت هادئة يومًا يوما، شقوق الزمن باتت واضحة على وجنته، قليل من الوقت مر ولكنه أحدث الكثير بروحه!

- ياه يا مصطفى إنت اتغيرت قوي.

- الأيام يا أبلة بتغير الحجر، مش هتغير البني آدم!

- بس انت ماكنتش كده خالص، إيه اللي وصلك لكده.

- كل وقت وله أدان، وبعدين أكل العيش مر، لازم نتشقلب له عشان نعرف نجيب اللقمة.

- بقيت تتكلم زي أبوك.

- ما ابن الوز عوام، وأنا ابن أبويا على رأي امي.

- خد بالك من نفسك يا مصطفى.

- على الله يا أبله، بالإذن انا.

- اتفضل، وسلم على والدتك.

تقولها وهي تهز رأسها حسرة على ما آل إليه حال ذلك الطفل الذي أصبح عجوزًا بنظرها، تترجل من سيارتها وتتجه صوب المكتب، يرن هاتفها في الطريق، تجد اسم منة الله على الشاشة، تعصف الكثير من السيناريوهات بعقلها، لم تعتد أن تهاتفها منة الله بعد خروجها من المنزل بأقل من ساعة! ترى ماذا حدث؟ هل أصاب أحد أولادها مكروه؟ تذكرت أنها كانت تود الذهاب لشراء بعض احتياجاتها من مدينة نصر، وكانت ستطلب من أبيها توصيلها بدلًا من ركوب سيارة أجرة مع غريب، تلوح علامة ارتياح على وجهها بعد السيناريو الأخير الأقرب للواقع بعيدًا عن الوساوس، عزوز هاتفه مغلق، هذا كل ما في الأمر، تفتح الخط لترد على منة الله المنتظرة إجابة منها:

- منة يا حبيبتي عاملة إيه؟

- أنا كويسة ياماما، بس كنت بتصل ببابا وبيقفل عليا، مش عارفة أعمل إيه؟

- طيب يا حبيبتي أطلبي أوبر وروحي بيه طالما مابيردش.

- خايفة الفلوس اللي معايا ما تكفيش والمشوار بعيد.

- افتحي الدولاب بتاعي هتلاقي علبة في الرف التاني تحت الهدوم خدي منها 200 جنيه وخدي محمود أخوكِي معاكِي.

- حاضر يا ماما.

تغلق الخط وترسم على وجهها نصف ضحكة محدثة نفسها:

- يعني يوم ما يبقى تليفونك مفتوح يا عزوز تقفل السكة على البنت وانت عارف إنها نازلة وعوزاك توصلها!

تصعد إلى المكتب، تجد أم مصطفى في انتظارها بعد أن قامت بتنظيف المكتب ورتبت أوراقه، ووضعت القهوة على نار هادئة، تجلس على مقعد بجوار باب المطبخ وتستند بخدها على يدها، ترسم في ذهنها صورة مصطفى وهو يجري خوفًا من المخبر كما شاهدته في آخر مرة.

- مساء الخير.

- مساء النور يا أستاذة، اتفضلي المكتب زي الفل والقهوة على النار وكله تمام.

- متشكرة يا ام مصطفى.

تلحظ نشوى وجه أم مصطفى المشوش، فباشرت بسؤالها:

- مالك؟

- أبدًا يا ست، أنا كويسة.

- بس وشك مش بيقول كده.

- أومال بيقول إيه بس يا ست؟ ما انا حلوة أهو.

- حلوة وزي القمر طبعًا وألف راجل يتمناكِي، بس روحك مطفية يا أم مصطفى.

- وإيه هينورها بس يا ست؟ الراجل وفي السجن، والواد اللي حيلتي ما اعرفلوش طريق، عاوزة روحي تنور ازاي بس؟ هو في ضلمة أكتر من كده!

- ومين قال إن الواد ما تعرفيلوش طريق؟

- قصدك إيه يا ست؟ هو انت تعرفي طريقه؟

- مصطفى في البيت دلوقت، لو بطلتي رغي معايا ورحتيله هتاخديه في حضنك.

- صح والنبي يا ست؟ يعني ابني رجع؟

- أيوه، إنتِي لسه هتقفي! يالا امشي روحيله.

- هصب القهوة..

- قهوة إيه؟ إجري روحي شوفي ابنك وخديه في حضنك، هو محتاجلك دلوقت أكتر من أي وقت.

تهرول أم مصطفى تجاه منزلها، لا تعلم كيف قفزت درجات السلم حتى وصلت للشارع، طوت الشارع في أقل من دقيقة، عدت حتى تقطّعت أنفاسها، كانت تشتم رائحة ولدها تغمر الطريق إلى المنزل، دفعت الباب الذي حسبته مفتوحًا، فاصطدمت به؛ كان مصطفى يغلقه من الداخل، مدت يدها بحمالة صدرها وأخرجت المفتاح، وضعته في مكانه وأدارته، دخلت للمنزل فشعرت بالدفء، أيقنت حينها أن صغيرها بالداخل حقًا، هرولت لغرفته، فوجدته يقف أمام الدولاب يخرج منه ملابس نظيفة، نادت باسمه وهي تنطلق تجاهه.

- مصطفى!

- أما!

تعانقا ومنحا بعضهما البعض بعض الأمان الذي افتقداه طوال مدة غياب مصطفى، تنهدت الأم، وبكى مصطفى كطفل عاد بعد أن ضل طريقه.

- كنت فين يا ابن الكلب؟

- ما تخافيش عليا يا اما أنا بخير، بشتغل وقاعد ببات في المكان اللي بشتغل فيه.

- وبتشتغل فين يا ابن أبوك؟

- شغلانة كويسة أوي يا أما، وبيجيلي منها رزق حلو، وهتبقى معدن والله بس اصبري عليا.

- وهانت عليك أمك يا مصطفى؟

- ماتهونيش يا غالية، بس انتي عارفة اللي فيها، ده أنا جاي النهاردة وكنت خايف اتقفش، بس لولا دعاكِ ربنا سترها معايا.

- قلبي كان واكلني عليك يا ضنايا.

- ماتخافيش يا اما، كله هيعدي وهيبقى كويس، وبعدين ابنك راجل ماتخافيش عليه، وأنا هغيب واشقر عليكي زي النهاردة كده، لحد ما ربنا يوسعها عليا وآخد مطرح وأخدك تعيشي معايا فيه، بعيد عن اللبش اللي هنا.

- هو انت ناوي تمشي تاني يا ضنايا؟

- لازم يا اما، لو قعدت هنا المخبرين مش هيسيبوني في حالي، والرزق هنا بقى ضيق زي الحارة الضيقة دي، إنما بره الرزق واسع، ومسالكه كتير، إحنا مش عايشين يا اما، بره الناس عايشة، واحنا هنعيش زيهم.

- يا ابني!

- ما تقوليش حاجة يا اما أبوس إيدك، سيبيني أشوف رزقي بره، وادعيلي.

- ربنا يسترها عليك يا ابني.

- آمين يا رب، سيبيني أستحمى بقى عشان الحق أروح أكمل شغلي.

- هو أنت كمان مش هتبات معايا الليلة دي حتى؟

- مش هينفع والله، لازم أمشي خلال ساعة، ده أنا مزوغ من الشغل وقلت آجي أستحمى وأغير وأطل عليكي وراجع الشغل تاني.

- ماشي يا ضنايا، هحضر لك لقمة عقبال ما تستحمى.

- تسلم إيدك يا اما.

تستسلم الأم لرغبة صغيرها، ابن أبيه دائمًا، الذي كان يجعلها تستسلم لرغباته دون أدنى مجهود منه، ربما ترى نفسها تابعة مطيعة للرجل في حياتها، وربما هي أم تأبى أن تغضب صغيرها الذي عانت كثيراً خلال غيابه، في كلتا الحالتين لا فارق، المهم أنها انصاعت وتركت صغيرها يذهب بعد تناوله الطعام وجلست وحيدة مرة أخرى تستند بخدها على يدها، فلم يعد هناك من يسندها سوى تلك اليد.

***

- أيوه يا بابا.

- خير يا حمزة؟ في إيه؟

- أبدًا بس كنت عاوز اتكلم مع حضرتك في موضوع كده.

- موضوع إيه يا باشمهندس؟

- مش هينفع في التليفون، لازم أقعد مع حضرتك ونتكلم.

- طيب الصبح نتقابل ونتكلم فيه.

- ماينفعش يا بابا أستنى للصبح، من فضلك أنا عاوز آجي لحضرتك دلوقت.

- طيب اكتب العنوان ده عندك، وتعالى بعد ساعة أكون وصلت.

يغلق الهاتف ويتملكه شعور مختلط ما بين رهبة وحماس، لقد حانت اللحظة التي سيفاتح فيها والده برغبته التي يحاول إخبارهم بها منذ فترة، ولكنه تردد أكثر من مرة خوفًا من ردة الفعل، ولكن هذه المرة أقنعته ريبيكا بأخذ الخطوة، فالعام الدراسي أوشك على الانتهاء؛ وهي فرصة رائعة جدًا لمثل هذا القرار، ارتدى ثيابه في

خمس دقائق، وضع هاتفه بجيبه والورقة التي كتب بها العنوان الذي بات يحفظه عن ظهر قلب، يجد والدته التي استوقفته عند باب المنزل:

- رايح فين يا حمزة؟

- ماما! أنا أصلي كنت رايح مشوار كده وراجع على طول.

- ومذاكرتك سايبها لمين؟

- ما أنا مش هتأخر يا ماما، يادوب ساعة زمن كده وهرد.

- وهتروح فين الساعة دي يعني؟ وبعدين يعني المشوار ده مايستناش للصبح؟ لازم دلوقت؟

- رايح لبابا يا ماما..

يقولها حمزة بصوت منخفض وكأنه يخشى من قوة وقع الكلمة على قلب أمه، يقترب منها ويمسك يدها يقبلها في حنان:

- هروح اتكلم معاه في موضوع كده يا ماما بعد إذنك.

- والموضوع ده يعني ما ينفعش يتحكي معايا؟

- لازم موافقة بابا عليه الأول يا ماما..

- إيه، هتتجوز انت كمان ولا إيه؟

- أنا كمان!

ترتبك إلهام خوفًا من معرفة حمزة ما حدث بينها وبين محفوظ، فتحاول لم شتات عقلها قائلة في هدوء مصطنع:

- أقصد يعني بتفكر تتجوز وعاوز مباركته ولا إيه؟

- لا طبعًا جواز إيه دلوقت، أنا مبفكرش في موضوع الجواز ده نهائي، أنا عاوزه في موضوع يخص مستقبلي.

- مستقبلك؟

- اه يا ماما، مستقبلي، بعد إذنك أنا لازم أنزل عشان الوقت اتأخر، ويادوب ألحق أروحله.

- إنت عارف هو ساكن فين دلوقت؟

- هو اداني عنوان المكتب بتاعه وقالي أروحله هناك.

- وهو في مكتب سمسرة بيفضل شغال لحد دلوقت؟

- مش عارف والله يا ماما ده اللي حصل وده العنوان اللي اداهولي.

- ماشي يا حمزة، براحتك، روح لابوك، وسيبني أنا أضرب أخماس في أسداس كده.

- مفيش داعي لكل ده يا ماما، أنا هروح اتكلم معاه وهرجع أحكيلك كل حاجة، ماهو برضه ماينفعش أعمل حاجة بدون موافقتك يا ست الكل.

- أيوه اضحك عليا بكلمتين، أنا مش عارفة انت طالع لمين؟ أكيد مش لأبوك..

- طالع حنين ليكِ إنتي يا ست الكل.

يقبل رأسها ويفتح الباب ويخرج ليتركها لتتعارك مع وحدتها مرة أخرى.

***

تتوجه لغرفتها شاردة الذهن، تتسائل عن ماهية الموضوع الهام الذي يريد حمزة التحدث فيه مع محفوظ، ولماذا لم يخبرها به قبل أبيه؟ هل هو موضوع ذكوري؟ ولكن حمزة قد تجاوز مرحلة المراهقة على حسب علمها فالفتى قد نمت لحيته وشاربه وصار رجلًا، لم يتبق له سوى عام واحد على التخرج، الزواج هو الموضوع الأقرب لمن في سنه، ولكنه نفى الأمر تمامًا "ما بك يا حمزة؟"، تتمتم بها لنفسها، وتكمل طريقها إلى غرفتها التي تقع بنهاية الطرقة الطويلة، يصل صوت

موسيقى وأغنية أجنبية إلى أذنها، تقف لثوانٍ، تحاول أن تتأكد من مصدر الصوت، يعلو صوت الموسيقى مرة أخرى، ثم ينقطع فجأة!

كان الصوت قادم من غرفة عائشة، ولكن عائشة لا تملك مشغل أغاني بغرفتها، ولا هاتف محمول من النوع الحديث الذي يمكنها من سماع الأغاني عليه، تطرق الباب وتفتحه بهدوء، تجد عائشة تجلس على سريرها، تثني ركبيتها وتصنع منهما مسندًا لكتاب التربية الدينية الذي تقرأ به.

- مساء الخير يا يوشة.

- مساء النور يا ماما.

- بتعملي إيه يا حبيبتي؟

- هكون بعمل إيه يعني بذاكر زي ما حضرتك شايفة.

- بتذاكري إيه يا جميلة.

- دين يا ماما، بحفظ.

- بارك الله فيكِ يا حبيبتي، ربنا يوفقك.

- ادعيلي يا ماما، أحسن الامتحانات خلاص على الأبواب.

- هتنجحي وتجيبي مجموع كبير إن شاء الله وتدخلي هندسة زي حمزة.

- بس أنا مش عاوزة أدخل هندسة يا ماما.

- أومال عاوزة تدخلي إيه بس يا حبيبتي؟ مش إحنا كنا متفقين على هندسة ودخلتي علمي رياضة عشان كده؟

- أيوه بس أنا غيرت رأيي، وعاوزة أدخل إعلام، أو فنون جميلة.

- وتفتكري يعني أبوكِ هيرضى؟

- يرضى ولا مايرضاش، المهم أنا عاوزة أكون إيه، أنا اللي هتعلم مش هو، وبعدين ماهو اختار يسيبنا، يبقى مش من حقه يتحكم في مستقبلنا.

تتعجب إلهام من أسلوب عائشة في الحديث، ويعلو صوتها، موبخة إياها:

- اتكلمي عدل يا بنت، ده مهما كان أبوكِي ما ينفعش تتكلمي عنه بالأسلوب ده.

- أنا آسفة يا ماما، بس لازم تعرفي إني هدخل الكلية اللي أنا عاوزاها.

- عمومًا مش وقته الكلام ده، خليكي في مذاكرتك ولما النتيجة تطلع نبقى نشوف ساعتها مجموعك هيدخلك إيه.

تتركها وتخرج من الغرفة ثم تتذكر صوت الأغنية الأجنبية الذي دفعها لدخول الغرفة من الأساس، فتعاود فتح الباب ولكن هذه المرة دون طرقه، ترتبك عائشة وينقبض قلبها على إثر فتح الباب المفاجئ:

- ماما! في إيه؟

- هو صوت الأغنية الأجنبية ده جاي منين؟

- أغنية أجنبية؟ اه ده تلاقي توكتوك كان معدي من تحت البيت ولا حاجة.

- وهو التوكتوك هيشغل أغاني أجنبي برضه يا يوشة؟

- ماعرفش يا ماما بقى، ما يمكن من عند الجيران.

- جايز يا بنتي، ياللا هسيبك تكملي مذاكرتك.

تتنفس عائشة الصعداء بعد غلق أمها للباب خلفها، تضع يدها فوق رأسها ثم تغلق الكتاب الذي وضعته على رجلها كغطاء للهاتف الكبير الذي تخفيه بين طياته.

تعود الأم شاردة إلى غرفتها، تجلس على أريكتها وتمدد قدمها أمامها، تمسك

بحقيبة صغيرة وتخرج منها علبة بها هاتف جديد وعلبة بلاستيكية صغيرة تحوي بطاقة خط جديد، تدخل الأخيرة بالهاتف وتتصل بالإنترنت، تعمل على تهيئة الهاتف الجديد وتملؤه بالبرامج الحديثة التي ربما احتاجت استخدامها في الوصول إلى غايتها الجديدة، التي ستساعدها على الهروب من صقيع الوحدة التي تُدفن فيها منذ أعوام.

***

صراع حزين يفتك بعقلها، تود إنهاء تلك الحياة والتحليق بعالم آخر، أقل صخبًا من ذلك الذي تعيش فيه، الفقر المحيط بها يجعلها يائسة، عدم رغبة أحد فيها يحرضها على أخذ مسلك غير قويم؛ علّها تجد به من يتعثر بجسدها فيقع في غرامها، تفكيرها المحدود يغويها بذلك ويحاول إقناعها به، تسير بخطوات ثقيلة ناحية محطة المترو التي تستقل منها قطارا يوصلها إلى شبرا، بعد انتهاء عملها بالمحل، تجوب شوارع وسط المدينة وسط حالة من الصمت - اعتادت عليه مؤخرًا - فقط تركت زميلتها العمل بعد خطبتها إلى شاب وسيم يمتلك موتوسيكلًا سريعًا، تقلّب عينيها في لافتات المحلات حولها، بعضها قد أظلم والبعض الآخر مازال يتلألأ تحت وطأة الليل، يعمل عقلها بكامل كفاءته - المحدودة - هل تغوي الحاج سلامة؟ أم ابنه كريم الذي لم تره سوى مرة واحدة؟ أيهما سيكون زوجًا أفضل لها، يشبع رغباتها المادية والعاطفية؟ الرجل الكبير صاحب المال والهيبة والكرم، أم الشاب الوريث الوسيم ناعم الشعر المساير للموضة، الذي تستطيع أن تركب خلفه على موتوسيكل سريع غالي الثمن، ربما كان كتلك الموتوسيكلات التي تراها بالأفلام الأجنبية، ولكن الحاج سلامة هو من يملك المال؟ ولكن الحاجة سليمة تحب كريم جدًا ولن تؤخر له طلبًا، فقط إن استطاعت أن توقعه بشباكها ستجعله خاتما بإصبعها وستقنع الحاجة سليمة زوجها بزواجها منه، أما إن اكتشفت أنها

على علاقة بزوجها ستهد الدنيا فوق رأسها هي وأمها وستخسر كل شيء، إذن الخطة الآن تقضي بإيقاع كريم في حبها، ولكنها لا تراه إلا صدفة حين يأتي للمحل طالبًا المال من أبيه، حسنًا ستنتظره لتنفذ خطتها التي ستفكر فيها وترسمها جيدًا حتى ذلك اللقاء، تبتهج لمجرد الفكرة التي أتت لها، تغمض عينيها أثناء سيرها لتكمل رؤية الحلم، تصطدم بأحدهم وتجد نفسها بين ذراعيه في لحظة، تفتح عينيها فجأة وتدفعه في صدره مهللة بصوت عالٍ:

- إيه ده يا حيوان اللي انت بتعمله ده؟

- إيه مش تفتحي انتي، هو حد بيمشي في الشارع مغمض كده؟

- مغمضة إيه يا شيخ جتك القرف، عيل مقرف.

- طب ياللا غوري من هنا بقى بدل ما أقطع وشك ده دلوقت.

- تقطع وش مين يا صايع انت، إنت فاكر نفسك فين؟ لا يا حبيبي فوق كده واتكلم على قدك، ده انا نص محلات وسط البلد تعرفني، واللي يدوسلي على طرف مايطلعش عليه صبح هنا.

يضحك مصطفى ساخرًا منها مربتًا على كتفها في هدوء:

- طب ياللا يا شاطرة من هنا شوفي رايحة فين.

تدفع يده في عصبية تاركة إياه وتمشي تتمتم بسباب مختلف الأنواع، بينما يقف هو مبتسمًا مشدوهًا نحوها وكأن شيئا فيها قد خطفه من النظرة الأولى!

تغيب عن ناظره ولا تغيب عن عقله، يعدّل ياقة قميصه الجديد ويمرر يده بشعره يترك الشارع متوجهًا للممر الضيق المؤدي إلى مقهى لاتيه، يدخل يده بجيب بنطاله ويمشي مزهوًا بنفسه، يلج إلى المقهى ليجد كريم يتوسط مجموعة كبيرة من الشباب والبنات، يتوجه إليه مباشرة وكأن المكان كله فارغ إلا من كريم:

- كريم باشا!

- أهلًا يا...

- مصطفى يا باشا.

- أهلا يا مصطفى، جبت الحاجة؟

- طبعًا يا باشا، كل اللي طلبته تحت أمرك، ولو عاوز لبن العصفور يحضرلك وقتي.

- باين عليك واد حِرِك وهتنفعني.

- أنا تحت أمرك يا باشا، اعتبرني من إيدك دي لإيدك دي؟

يقولها وهو يقبل يدي كريم كل بدورها، آملًا في الحصول على القرب منه.

- بتعرف تعمل إيه يا مصطفى؟

- أي حاجة يا باشا، المهم أبقى تحت جناحك.

- طيب روح اقعد على الترابيزه اللي هناك دي واطلبلك حاجة اشربها واستناني بره بعد ما تخلص.

- أوامرك يا باشا.

هل يتحقق حلمه هذه الليلة؟ هل سيجد مكانًا يؤويه بعيدًا عن المعلم تهامي؟ هل سيقابلها مرة أخرى؟ لا يعلم ماذا أحضرها برأسه الآن! لم يتحدث معها سوى لدقائق قليلة ولم يكن حتى حديثًا هادئًا، يطلب مشروبًا باردًا، علّه يهدئ من أعصابه ودقات قلبه المتسارعة من فرط الدهشة، كل الأشياء الآن تسير نحو حلمه؛ هو أمر لم يعتد عليه منذ أن ركل بطن أمه وخرج للدنيا التي كانت تقسو عليه منذ النفس الأول.

ينهي مشروبه ويخرج ليجلس على مصطبة مرتفعة قليلا بجوار باب المقهى،

يشعل سيجارة ويراقب دخانها المتطاير في هدوء، نسمات الهواء تداعب مشاعره، ينظر للقمر، يتذكر وجهها الذي يشبه بياضه، يبتسم، ثم ينفث دخانه مستندًا بخده على يده في انتظار خروج كريم إليه.

***

ينهي المحضر بقسم الشرطة القريب، يخرج مع محفوظ والصمت يخيم عليه، وكأن السكين الذي كان يسرقه منذ ساعات قد ولّى عنه، وتذكر أنه يجب عليه أن يحزن الآن، سُرقت سيارته وهاتفه وكل ما كان بجيبه من نقود، وكاد يفقد حياته بضربة مطواة واحدة، وهو لا حول له ولا قوة، يُدرك الآن ضعفه وقلة حيلته، إفلاسه وفقدانه كل ما كان يملك من مال، كانت السيارة هي كل ممتلكاته، كان يعمى عن أهم ممتلكاته، محمود ومنة الله، وقبلهما نشوى، لا يرى فيهم أي ثروة رغم أنهم ثروته الحقيقية، يتحدث محفوظ بالكثير، ولكنه لم يسمع منه شيئًا، كان فقط يرى حركة شفتيه المستمرة، وضحكاته على فترات متقاربة، ولكنه لم يفهم لمَ يضحك محفوظ الآن؟ "سُرقت سيارتي يا رجل وأنت تضحك؟".

يتحدث بها عقله، "ولكنك من بدأ الضحك" يذكّر نفسه، ثم يعود لأفكاره، يخرجه محفوظ من شروده، يهز كتفه:

- إيه يا أخينا، مالك؟

- ها! أبدًا مفيش أنا تمام.

- تمام إيه؟ ده أنت شايل الهم ومكشر ولا كأنك لسه واخد بالك إن عربيتك اتسرقت.

- اه، لسه واخد بالي، تخيل!

- روق يا صاحبي، هيلاقوها إن شاء الله.

يتنهد عزوز، ويرسم نصف ابتسامة على وجهه، قائلًا في هدوء:

- عارف يا محفوظ؟ أنا حاسس دلوقت إني بقيت عريان.

- عريان إيه بس يا جدع، دول سرقوا العربية ما سرقوش هدومك.

- اه والله زي مابقولك، أنا حاسس إني بقيت عريان، العربية دي كانت كل ما أملك، كانت ستراني، مدفياني أنا وجيبي، بتساعدني في مصاريف البيت، بتخليني أشوف الناس، الحلوة والوحشة والتخينة والرفيعة، بتخليني أعرف بيحصل إيه في البلد، إيه الموضة اللي طالعة، الألوان والموديلات، حتى المواسم والأعياد كنت بعرفهم من الزباين اللي بتركب معايا.

- وحد الله يا جدع، كله هيعدي والعربية هترجع وكله هيبقى تمام.

- ونعم بالله يا محفوظ يا خويا، ونعم بالله.

- ياللا اركب خليني أوصلك.

- لا اتكل على الله انت أنا عاوز اتمشى شوية.

- إنت فاكر نفسك في فيلم عربي؟ هتاخدها مشي من هنا للبيت؟ إحنا في المقطم ركز كده وفوق، ويالا بينا.

- والله يا محفوظ ما مركز في أي حاجة.

- طب ياللا بس اركب الوقت اتأخر والواد حمزة جايلي عاوزني في موضوع، مش عاوز اتأخر عليه.

متجاوران صامتان، يطوف كل منهما في عالم مختلف، عزوز يبدو كمن نزل عليه سهم الله، حتى عقله عاجز عن التفكير، ومحفوظ يستدعي العديد من المواضيع التي يمكن أن يكون حمزة قد يناقشه بها، عجز شديد يشعر به عزوز، مر العمر يا رجل، وحتى ما كنت ستستند عليه قد ولّى، وكل ذلك جراء فراغة عينك، لم

يكن ليحدث كل ذلك لو أنك لم تشتر تلك الشطيرة، هي السبب في كل ذلك، يصلا إلى بيت عزوز، يترجل من السيارة في صمت، ويكمل محفوظ طريقه في صمت.

يلج إلى مدخل المنزل، كان المكان هادئًا جدًا، حتى حارس العقار كان قد جلس بغرفته مع أبنائه، يرتمي بجسده على مقعده، ويمد رجله للأمام، يفتح أزرار القميص، ويمسك رأسه، يشعر بانفجار رأسه الوشيك، دموعه تقترب بشدة، يحبسها بشق الأنفس، تتصاعد أنفاسه، يزداد صعود صدره وهبوطه، يتعرق بغزارة، بدأت الأشياء في التلاشي من أمام عينيه، كل شيء أصبح مشوشًا، لا يسمع صوتا سوى صوت الفتاة تقول له يا عمو، يمسك رقبته، يشعر جدًا بالاختناق، تخور قواه، يشعر بسقطة قريبة، الظلام يلتف حوله ككيان شرير، يلفه ويغلف ما حوله.

سيارة تقف أمام المدخل، يترجل منها محمود ومنة الله، يحملان عدة حقائب بلاستيكية، تسبق منة الله محمود إلى الداخل بينما يقف مع السائق ليناوله باقي الأجرة، تلقي منة الله الحقائب من يدها صارخة:

- بابا! الحقني يا محمود.

يجري محمود ناحيتهما، يخرج حارس العقار من غرفته، في نفس لحظة سقوط عزوز عن المقعد، تصرخ منة الله بصوت أعلى:

- يا ماما! الحقينا يا ماما.

ولكن نشوى كانت تبتاع بعض طلبات المنزل من محل بقالة قريب، يرن هاتفها، تجد صراخ منة الله على الناحية الأخرى، تخبرها بما حدث، تلقي ما بيدها وتجري إلى سيارتها، تطلب الإسعاف التي تأتي لتحمل عزوز إلى المستشفى، بين الحياة والموت، ينتظر رحمة الله حتى يعود لحياته مرة أخرى.

***

يقود محفوظ سيارته في هدوء، حتى وصل إلى مكتبه ومنزله الجديد، يرن هاتفه ليجد حمزة يخبره بأنه قد وصل ولم يجده:

- أنا بركن وطالع أهو يا حمزة استناني دقيقتين.

ينتظر، تمر الدقيقتان عليه كساعتين، متحمس جدًا وخائف جدًا من ردة فعل أبيه، يتحدث في رسائل مع ريبيكا التي تدفعه دفعًا تجاه الحافة، هو يعلم أن رفض أبيه معناه انتهاء الأمر بشكل نهائي، الموضوع ليس سهلًا، الرفض القاطع هو الأقرب للواقع، وأي موافقة هي درب من دروب الخيال، ولكن لا بأس ببعض الحلم والخيال، فربما نجحت المحاولة.

- إزيك يا حمزة.

- الحمد لله يا بابا، إزي حضرتك؟

- بخير يا ابني الحمد لله، تعال..

يلجا للمكتب، ويتوجها مباشرة لغرفة المكتب.

- اقعد يا حمزة.

يقولها محفوظ وهو يهم بالجلوس على مقعده الوثير الموجود خلف المكتب، تتضارب الموضوعات بعقله!

- خير يا حمزة؟ إيه الموضوع المهم اللي عاوزني فيه ومايستناش للصبح ده؟

- بص يا بابا، إنت عارف طبعًا إن السنة الجاية دي هتبقى آخر سنة ليا في الكلية.

- عارف.

- ولو خلصت على خير إن شاء الله هدخل في دوامة الشغل ومش هعرف أخرج منها.

- دي سُنّة الحياة وكلنا كده.

- أيوه بس أنا كان في حاجة نفسي أعملها قبل ما أدخل الدوامة دي.

- حاجة إيه؟

- كنت يعني يا بابا... بص أنا عاوز اسافر.

- تسافر! تسافر فين؟

- ألمانيا.

- ألمانيا مرة واحدة؟ واشمعنى ألمانيا يعني؟

- يعني حضرتك عارف إنها بلد صناعي وأكيد هستفاد جدًا منهم هناك.

- طيب اتخرج واعمل اللي انت عاوزه.

- لأ، ما هو أنا عاوز اسافر قبل التخرج.

- قبل التخرج ازاي يعني؟ ودراستك.

- لا ماهو بص حضرتك أنا هسافر سياحة، الكام شهر بتوع الصيف.

- ما انت لسه قايل إنها بلد صناعي، إيه علاقة ده بالسياحة.

- أنا ليا صديقة ألمانية، هي هتعملي دعوة للسياحة، وأنا هروح أقعد هناك الثلاث شهور بتوع الصيف أشوف الدنيا هناك ماشية ازاي، وأشوف أنا ممكن أستفاد بإيه من هناك.

- صديقة! أعوذ بالله من غضب الله.

- أعوذ بالله ليه يا بابا؟ هو أنا بقولك مصاحب شيطانة!

- يا ابني، إزاي تقبل على نفسك تصاحب واحدة، لا من دينك ولا من بلدك.

- وفيها إيه يعني يا بابا، أنا مش شايف أي مشكلة، لكم دينكم وليا ديني، وبعدين ده تبادل ثقافات ملوش دعوة بالدين.

- يا ابني هتروح هناك هتغويك.

- تغويني إيه بس يا بابا! هو أنا عيل صغير؟ وبعدين حضرتك مربينا ومأسسنا دينيًا وأنا مؤمن بالله ومفيش أي حاجة هتهز إيماني ده.

- طيب هنفترض إن كل اللي بتقوله ده مظبوط، أنا إيه علاقتي بالموضوع؟

- ماهو حضرتك أنا هعوز مبلغ كده عشان مصاريف السفر والإقامة والذي منه.

يمتعض وجه محفوظ وتبدأ العروق بالنفر من رقبته:

- يعني انت جاي للبنك اللي هيديك الفلوس وبس، وياترى بقى أمك عارفة بالحكاية دي؟ ولا تكونش هي اللي بعتاك عشان تعجزني أكتر وتحسسني إني مليش لازمة في حياتكم!

- ماما ماتعرفش أي حاجة عن الموضوع ده، محدش يعرف أي حاجة غير حضرتك، وأنا جيت لحضرتك عشان انت أبويا، الكبير بتاعي، وماينفعش أعمل أي حاجة بدون مباركتك، وموافقتك.

- بتثبتني انت كده يعني؟

- أبدًا والله يا بابا، دي الحقيقة، أنا ماينفعش أعمل أي حاجة بدون موافقة حضرتك.

- وناوي على السفر امتى بقى إن شاء الله؟

- أنا عاوز ابتدي أجهز ورقي من دلوقت، وعقبال ما الامتحانات تخلص أكون جهزت وأسافر على طول إن شاء الله.

- وهتقيم فين هناك؟

- أفهم من كده إن حضرتك موافق؟

- مش لما أعرف التفاصيل الأول أبقى أقرر أوافق ولا لأ؟

- هقيم هناك عند ريبيكا صديقتي في بيت أهلها، هما هيستضيفوني هناك.

- وهيستضيفوك هناك بناءً على إيه؟

- بناءً على إني أبقى أستضيف ريبيكا عندنا لما تنزل مصر إن شاء الله.

- أعوذ بالله، هتناموا في نفس البيت مع بعض؟

- وفيها إيه يا بابا؟ ما كل واحد في غرفة، وأهلها موجودين.

- بس أنا ما أحبش حد غريب يدخل بيتي.

- يا بابا لما تبقى تيجي نبقى نشوف وقتها هتنام فين، المهم حضرتك توافق على سفري أنا دلوقت.

- وهتعوز مبلغ قد إيه؟

- يعني مش أقل من عشرين ألف.

- عشرين ألف!

- ده كده يادوب وياريت يكفوني، أنا هدور على شغل هناك في فترة الثلاث شهور دول كمان، عشان ما اتقلش على حضرتك في المصاريف.

- انت بتتكلم زي ما أكون وافقت خلاص.

- وافق يا بابا، الله يخليك، أنا مليش بركة غيرك.

- طيب ورأي أمك إيه؟

- ماما لسه ماتعرفش حاجة زي ما قلت لحضرتك، بس هي أكيد هتوافق لو حضرتك وافقت.

- طيب سيبني أشوف الموضوع مع نفسي وأدوره في دماغي.

- أرجوك يا بابا توافق، أرجوك.

يقولها حمزة وهو يمسك بيد والده، ويقبلها مترجيًا إياه الموافقة.

***

منهكة تعود إلى المنزل ككل ليلة خميس، تحاوط ما تبقى من أنوثتها بعباءة سوداء، وطرحة تتزين ببعض القلوب، تثقل كتفها بحقيبة كبيرة ممتلئة ببعض احتياجات المنزل من خضروات وكيلو جرام من اللحم، ودجاجة، تضعها فوق طاولة بالمطبخ، ثم تخرج منه لترمي بهمومها فوق أريكة بلدي تتوسط الصالة، بمساندها النصف دائرية، وقماشها المزركش بالوردات الكبيرة المتفتحة، تفك أسر شعرها لخمس دقائق ليجف عرقه ثم تعاود حبسه بين براثن مشبك كبير حتى لا يضايقها أثناء أداء أعمالها المنزلية، تخلع عباءتها لتترك بعض هواء المروحة يصل إلى ثناياها المستترة خلف قميص قطني طويل بلله العرق، تضغط زر تشغيل التلفاز لتشاهد إعادة حلقة من مسلسل ليالي الحلمية، بينما تقوم إلى المطبخ أثناء الفترات الإعلانية لتجهيز الطعام لها ولعنان التي اقترب موعد عودتها للمنزل، ستطبخ طاجن بامية مع اللحم؛ فعنان تحب البامية بالطاجن الفخاري، تقول أنه يشعرها بدفء فرن قريتهما التي ذهبت إليها مرة أثناء فرح ابنة خالتها منذ عدة أعوام، تجلس أمام التلفاز وتمسك بحبات البامية الصغيرة لتصنع لها نهاية هرمية أنيقة، لا تتماشى مع الشعيرات الصغيرة التي تغطيها والتي تشبهها سماح بالشوك القطيفة، لا تعلم ما هي علاقة الشوك بالقطيفة فالأول خشن قاس، والثانية مخملية هادئة، ولكنها ترى كل ذلك التضاد عن غير قصد بحبات البامية، تنتهي من تقميع البامية، مع انتهاء حلقة المسلسل، تترك التلفاز وتقوم للمطبخ، تغرق بين أوانيها المعدنية، ونيران موقدها الزرقاء، تتصبب عرقًا، ولكنها غير مهتمة، سوى بأن تصنع طاجنًا مثاليًا لصغيرتها التي كانت منهمكة في وضع خطتها للإيقاع بكريم.

تمشي في الشارع ترسم الخيلاء، لا يعجبها أحد ممن يلقون عليها كلمات الغزل، تسب هذا، وتشير بإصبعها لذاك، تمر على محل لبيع أدوات التجميل، تبتاع بودرة، وأحمر شفاه، ومحدد للعين، ستجبر كريم على النظر إليها، ولكن إن رأت أمها تلك الأشياء معها ستوبخها – ماعندناش بنات تحط كحل وأحمر إلا في ليلة دخلتها – تدسها بحقيبتها وتصعد للمنزل، تطرق الباب فتفتح أمها في سرور:

- الحلوة بتاعتي نورت.

- ده نورك يا موحة، عاملة إيه يا حبيبتي؟

- بخير طول ما انتي بخير يا ضنايا.

- ربنا يديمك نعمة، ها ياترى عملالنا إيه على العشا النهاردة؟

- عملالك طاجن البامية باللحمة اللي بتحبيه.

- ورز بشعرية؟

- ورز بشعرية، وبتنجان مخلل بالتوم.

- أحبك يا موحة.

تقولها عنان مداعبة أمها، هي تعلم أنها تشتاق للمداعبة، وتحتاجها مثلما تحتاجها هي تمامًا، تضحك الأم:

- يالا يا ضنايا ادخلي غيري هدومك عقبال ما الطاجن يستوي.

- لا أغير إيه ده أنا عايزة اتنقع في الحمام، النهاردة كنا بنعلق شغل جديد وبنطلع من المخزن واتبهدلت.

- طب خشي خديلك دش وفوقي كده.

تتركها عنان وتذهب لغرفتها ثم تتذكر شيئا هاما وتنادي عليها:

- موحة! هو المسلسل التركي جه؟

- لسه الاعلانات شغالة.

- طب كويس الحق آخد الدش بسرعة قبل ما ييجي.

تنتهي كلتاهما مما تفعل وتترك سماح عنان لتضع الطعام على الطاولة بينما تدخل للاستحمام سريعًا كما فعلت صغيرتها، تجلسان لتتناولا العشاء أثناء مشاهدة المسلسل التركي:

- الحاج سلامة عامل إيه معاكي يا بت؟

- ياريت الناس كلها زي الحاج سلامة والله يا ماما، الراجل ده بلسم.

- ماهو كده يا بت الطيبون للطيبات، الحاجة سليمة ماتتخيرش عنه.

- هو بيتهم حلو يا ماما؟

- حلو وواسع ونضيف، تحسي فيه إنك مرتاحة، ومش شايلة هم حاجة، بيت دافيان بالناس اللي فيه.

- تعرفي إني نفسي أشوفه قوي.

- أهو فرح أسماء قرب وابقي شوفيه لما نروح.

- الفرح مش في البيت يا ماما.

- أومال فين يا بت؟

- الحاج سلامة قال إنه هيكون في فندق خمس نجوم.

تمص سماح شفتيها قائلة في حسرة:

- يا اختي ليه خمس نجوم، مش تكاليف على الفاضي دي.

- الناس دي ما بتفرقش معاها الفلوس يا ماما.

- على رأيك يابنتي، ربنا يزيدهم.

- طيب بمناسبة الفرح ده يا ماما، أنا هلبس إيه؟

- يا اختي البسي أي حاجة، أقولك البسي طقم العيد.

- طقم عيد إيه بس يا ماما!

- يا بت ماهو حلو والكوتش جديد ما لبستيهوش كتير، اغسليه ويبقى فلة.

- يا ماما ماينفعش، ده فندق خمس نجوم يعني لازم فستان سواريه.

- سواريه إيه ده؟ لأ طبعًا ما عندناش بنات تلبس عريان وتحط أحمر.

- إيه علاقة الأحمر والعريان بالسواريه، هو لازم يعني عشان سواريه يكون عريان؟

- اه ما أنا بشوفهم لابسين كده في المسلسلات.

- لا أنا عاوزة أجيب فستان وهالبسله بدي يا ستي.

- وهتجيبه بكام ده بقى؟

- الحاج جايب تشكيلة فساتين جديدة حلوة هنقي منهم واحد وهو أكيد هيعملي خصم حلو.

- خلاص يا بنتي هاتيه وأنا هابقى أديكي فلوسه أما أقبض.

- أحبك يا موحة.

- أسكتي بقى خليني أتفرج على المسلسل.

- سكت أهو.

تنهيان الطعام، تقوم عنان في الفاصل الإعلاني للمطبخ، تغسل الأطباق بسرعة ثم تعود لتشارك أمها الأريكة، تضع رأسها فوق فخذ أمها التي تداعب شعرها في هدوء، تسرح كلتاهما مع المسلسل، ترى كل منهما نفسها مكان البطلة، تمتلك منزلًا كبيرًا، ذا مطبخ واسع، وحديقة خضراء، تتطاير الستائر البيضاء فوق نوافذها،

وتغطي الشراشف البيضاء أثاثها، ولها رجل يخصها هي وحدها، لا يشاركها أحد فيه، يحبها ويدللها، يعانقها أثناء وقوفها بالمطبخ، يصنع لها المفاجآت، يخرجان معًا بسيارتهما الفارهة، يسهران بأفخم الأماكن، يتناولان العشاء على طاولة مجاورة للبحر، ثم يعودان لمنزلهما الهادئ ليحظيا بليلة دافئة، تختم بحلم سعيد.

تغط عنان في النوم على حجر أمها، وتلحقها سماح قبل انتهاء الحلقة والحلم.

***

يتوسط القمر السماء، وتتوسط معه عقارب الساعة دائرتها، يجلس مصطفى بمكانه في انتظار كريم؛ لن يبارح مكانه ولو طلع عليه النهار، هذه فرصته التي كان ينتظرها، هي من بحثت عنه، وفي تلك الحالة عليه أن يستغلها، فمثل تلك الفرص الباحثة إن ذهبت لا تعود، المعلم تهامي لم يسأل عنه وهذا أمر جيد، الأمر السيء في كل ذلك هو أنه لن يجد مكانًا ليبيت فيه، سيكون الشارع سريره، وربما اتخذ الرصيف كوسادة له.

يتنهد مصدرًا آهة قوية، يرتسم خيالها في دخان سجائره المتلاحقة، يحاول التفكير في فرصته، ولكنها لا تنفك تراوده عن عقله، ينفتح باب المقهى ويخرج منه كريم، لينقذه من تلك الفاتنة:

- كريم باشا!

- انت لسه هنا؟ ده أنا نسيتك.

- يا باشا أنا تحت أمرك إنشالله تنساني سنة بحالها.

- قلتلي بقى انت بتعرف تعمل إيه؟

- أي حاجة تؤمر بيها.

- انت منين يا ابني انت؟

- من أرض الله يا باشا.

- أيوه يعني ساكن فين؟

- لحد الضهر كنت ساكن عند المعلم تهامي.

- ودلوقت؟

- مش عارف.

- تعرف تعمل شاي، قهوة، ترص حجر، تلف سيجارة؟ الحاجات دي..

- أعمل الجن يا باشا، ده أنا ممكن اعملك كابشتينو كمان.

- كا إيه..

- كابشتينو يا باشا، أبو رغوة ده.

- طيب يا كابشتينو، أنا هروح دلوقت، وبكره العصر هكلمك تجيلي.

- تحت أمرك يا باشا، بس هجيلك فين؟

- بكره هتعرف.

يتركه كريم وينصرف إلى المنزل، يقف مصطفى حائرًا، لا يعلم أين يمكنه الذهاب، لقد صرف معظم نقوده على الملابس الجديدة وعلبة السجائر، والمعلم تهامي طلب منه أن يبحث عن مكان آخر ينام به، وإن عاد إلى أمه ربما رآه المخبر وقبض عليه!

يتلفت حوله، فيجد المصطبة المرتفعة قليلًا عن الأرض، والممر شبه مظلم إلا من نور يافطة المقهى، الذي سيغلق أبوابه بعد ساعاتٍ قليلة، ويصبح الممر ملكًا له، لقد وجد نومته لهذه الليلة، ربما وجد في اليوم التالي نومة أدفأ..

***

الشمس تلقي بقميصها الأبيض على الظلام فيرتد له بصره، تتفتح الأزهار، تنشر عبيرها على الكون النائم في أحضان الصمت، تزقزق العصافير، تنقر على النوافذ، توقظ النائم بعد ليلة طويلة ما بين سرقة سيارة عزوز، وسفر حمزة الذي لم يكن بالحسبان، السابعة صباحًا يجب أن يقوم الآن إن كان يود اللحاق بدفتر التوقيع، يدفع غطاءه الخفيف متكاسلًا، يتمطأ، ويلقي بكسل الصباح عن جسده، يجهز للنزول، متوجهًا للطابق التاسع بمجمع التحرير، يتمكن من اللحاق بالتوقيع بالدفتر الورقي الكبير، الذي لا يعلم إلى متى سيظل يوقع به! فالجميع الآن يعمل بنظام بصمة الإصبع أو العين، إنما هم مازال عليهم تصفح أوراق الدفتر المهترئة للوصول إلى خانة اسمهم لنقشه بها، طريقة تقليدية اعتاد عليها، يلقي الصباح على عزة ويتوجه لغرفة مكتبه، كان يتوقع وجود عزوز ولكنه لم يحضر بعد، حضّر كوبًا من الشاي وطلب شطيرتين من الكافيتريا ليشق ريقه ريثما يأتي عزوز.

تخطت الساعة العاشرة ولم يظهر عزوز، حاول الاتصال به ولكن هاتفه مغلق، شعر بتأنيب للضمير، كان من المفترض أن يهاتفه بالليلة الماضية ليطمئن عليه بعد عودته للمنزل، لم يكن يبدو بخير، خاصة بعد الخروج من القسم وعمل المحضر، لاحظ محفوظ ذلك ولكنه انشغل بالتفكير في موضوع حمزة:

- صباح الخير يا محفوظ يا خويا.

- صباح النور يا عبد البديع، ما شفتش عزوز؟

- لأ! ده أنا جاي اسألك عنه، مش عوايده يتأخر كده.

- ما انا عارف بس يمكن جاي في السكة، الغايب حجته معاه.

- ما تكلمه تشوفه فين، قبل ما يشطبوا عليه.

- اتصلت عليه تليفونه مقفول.

- جايز مفيش شبكة.

- جايز.

يقولها وداخله يشعر بأن شيئًا سيئًا ربما حدث لعزوز، احمرار عينيه، رعشة يده، ووهن صوته قبل أن يتركه يشي كل منها بأمر سيئ، استعاذ بالله من الشيطان الذي يوسوس له بالسوء الذي حدث لعزوز، وأرجح الأمر لكونه غط في نوم عميق بعد تعب اليوم السابق، فقد أوصله حتى باب المنزل ولم يتركه.

انشغل بالعمل قليلًا، وعاود الاتصال ولكن دون جدوى فالهاتف مغلق وليس فقط غير متاح، تنهد بعمق:

- استر يارب.

- خير يا أستاذ محفوظ مالك؟

يقولها أحد زملائه بالغرفة متسائلًا عن القلق البادي على وجه محفوظ.

- أبدًا بس قلقان على عزوز.

- تلاقيه راحت عليه نومه ما انت عارفه.

- لا أنا مش مطّمن.

- هو في حاجة حصلت؟

- حوار كده حصل معاه امبارح، وخلصنا متأخر ووصلته للبيت بعربيتي بس مش عارف ليه مش مرتاح.

- حوار إيه بس لعله خير.

- عربيته اتسرقت.

- يا خبر! ازاي بس؟

- كان بيوصل ناس في المقطم طلعوا عليه شوية بلطجية ولاد حرام ثبتوه وأخدوا منه العربية وكل حاجة حتى تليفونه.

تذكر بعد هذه الجملة أن هاتف عزوز سُرق مع السيارة لذلك هو مغلق، تنفس الصعداء قائلًا:

- أما أنا غبي صحيح، عمال اتصل بيه على التليفون وناسي إنه اتسرق مع العربية ولازم طبعا يكون مقفول.

يضحك الرجل ويطمئن محفوظ:

- طيب خير إن شاء الله، وهيطلع نايم والله ماتقلقش.

- إن شاء الله، أنا هعدي عليه بعد الشغل، قلبي مش مطمن برضه، حاسس إن في حاجة.

- معاك العربية ولا آجي أوصلك بالموتوسيكل وأطمن عليه بالمرة؟

- لا ماعاييش العربية ما انت عارف ماباجيش بيها هنا.

- خلاص بعد الشغل نروحله ونطمن عليه.

***

يقف أمام النافذة يتطلع إلى الأفق المطل على منطقة عابدين وصولًا إلى هضبة المقطم، المزدحم بأسطح البنايات القديمة التراثية، بداية من مباني الجامعة الأمريكية القديمة وصولًا إلى علب كبريت صغيرة تتراءى له فوق الهضبة البعيدة، يلفح وجهه الهواء الساخن يحرّك أفكاره التي كان يغالبها حتى لا يتشتت عقله، هل يوافق على سفر حمزة؟ أم يرفض؟ موافقته تعني بُعد ابنه البكر عنه وتلوث

أفكاره الدينية والثقافية بأخرى من بلد آخر ذي فكر ومنهج ديني مختلف، ولكن في ذات الوقت هو فرصة ليستعيد أبوّته مع ابنه ليعلم أن الأب هو المسئول عن المصاريف الشخصية وأن ما تفعله أمهما معهما ليس سوى محاولة منها لاستقطابهما إليها، ولكن المبلغ كبير، هل سيضحي بكل هذا الرقم لأجل أن يثبت لحمزة أنه رجل المنزل وهو من يقوم بالصرف عليهم! وإن رفض حتمًا ستوافق إلهام عندًا فيه، وستعطيه ما يطلب ويزيد ولن يستطيع أن يُرجع ابنه إلى حضنه وسيطرته مرة أخرى.

حيرة كبيرة يقع فيها، كل احتمال منها صعب، وكل قرار أصعب، ينادي المؤذن لصلاة الظهر، يتذكر ضحكة عزوز المتقطعة، يبتسم ويدعو الله أن يكون بخير، يتوجه للصلاة وقلبه يدعو للوصول إلى قرار سليم لا يجعله خاسرا في تلك المعركة الحاسمة التي وجد نفسه بمنتصفها وعليه أن يخوضها بمنتهى الأبوة.

***

تُلقي بحملها الثقيل خارج الأبواب، تخلع عنها ثوب المراهقة، وترتدي قناع النضج، تحمل حملًا جديدًا أخف وزنًا من الذي ألقته، تخطو بثبات نحو حريتها، تنتزع ما تبقى لها من أنوثة من براثن ليث الشدة، تتعطر بصخب الحياة، تدب بحذائها الأرض في ثقة متناهية، تعبر الباب الزجاجي، تجلس على طاولتها المفضلة في الركن الهادئ.

لم يعد النادل في حاجة لسؤالها عن طلبها فقد بات يعرف أنها تنتظر منه فنجان اللاتيه، وبعض الخصوصية، آثرت هذه المرة أن تطلب الشيشة مع اللاتيه، علّها تنفث بعض الدخان بنكهة الفواكه كنوع من التغيير عن السجائر، أحضر النادل طلبها وأتى فتى الشيشة بواحدة بنكهة الكرز بالنعناع بناءً على ترشيحه لها، وضعت قدمًا فوق الأخرى في حركة تقليدية، وسحبت نفسًا عميقًا من الشيشة،

سعلت وكأن قنبلة دخان انفجرت بصدرها، احمّر وجهها وجحظت عيناها، هرع النادل وفتى الشيشة نحوها، شربت كوبًا من الماء، أعاد فتى الشيشة رص قطع الفحم المشتعلة لها، وعلّمها كيف تسحب الأنفاس رويدًا رويدًا حتى لا تصاب بالسعال مجددًا، سحبت نفسًا تلو الآخر وفي كل مرة كان ينقص السعال حتى اختفى تمامًا، وأصبحت تدخن الشيشة كمعلم صاحب مقهى بلدي يتلذذ بحجر المعسل ويصنع مزاجًا خاصًا، أمسكت بهاتفها باليد الأخرى ولم تترك ليّ الشيشة من يدها.

باتت تتجول بين صفحات العالم الأزرق وصندوق رسائله، ترسل لهذا وترد على ذاك، تضحك من آن لآخر، وتزيد من حروف الهاء بصندوق الرسالة، تقبل صداقات البعض، وترسل طلبات لبعض الأصدقاء المقترحين عليها، تشرب من اللاتيه متلذذة بطعمه، وتسحب أنفاس الشيشة، على فترات متقاربة، تغمز بطرف عينيها لمجموعة الأصدقاء على الطاولة القريبة، فيتلفت بعضهم لبعض لا يعرف أي منهم لمن غمزت، تضحك وتضرب كفا بكف، لعبة مسلية تلعبها بعينيها دائمًا، تداعب بها ذكورة المحيطين بها بمكر أنوثتها البكر!

***

عراك جديد يزعزع نخلة بيتهم الباسقة من جذورها، يرميها بحبوب اللقاح مع نسمات دهشة محب، فترميه تمرات جافة غير صالحة للمضغ، لا يستسيغ طعمها بفمه، لا يجد أثرا من طعم سوى المرار، هكذا ينهي مكرم دائمًا لقاءه الحميمي مع وفاء، التي لا تنفك تنكّد عليه وعلى أجداده، وكأنها تتغذى على سعادته كملكة نحل لئيمة، تسحب كل حلو فيه وتبدله بشوكة تضعها في منتصف بتلته، فيضمر كل ضوء فيه.

يترك غرفة النوم ويذهب للصالون، يتخذ من أريكته سكنًا له، "يبدو أننا

سنتضاجع يا حلوة" هكذا أمسى يتحدث إلى الأريكة، يرمي بثقل جسده عليها، ويحتضن إحدى وسائدها البضة، يشغّل التلفاز، يتجول بين قنواته حتى يستقر على فيلم أجنبي كوميدي، يحاول الاندماج معه، كان البطل والبطلة يتبادلان الحديث عبر شاشة اللاب توب مستخدمين الكاميرا، في معايشة أحدهما مع الآخر في سعادة بالغة، شرد بذهنه قليلًا، تذكر ما حدث بالغرفة مع وفاء منذ قليل.

تنهد وابتسم ابتسامة ساخرة، جحيم هو التشبيه الأقرب لعلاقته بوفاء في الفترة الأخيرة، ينتهي الفيلم نهاية سعيدة، ببقاء البطل مع البطلة وعدم تركه لها رغم المعوقات التي لمّت بهم، يغلق التلفاز ويسحب غطاءً خفيفًا على نصفه السفلي ليقيه برد المكيف، يضيء هاتفه بإشعار من العالم الأزرق، لقد نسي أن يفصل الإنترنت عن الهاتف قبل النوم، يمد يده ليلتقط الهاتف، يجد طلب صداقة من حساب لا يعرف صاحبته، يمعن النظر بالاسم علّه يتذكر أين صادفه.

(تالا لولو) أي حساب يملك اسمًا مثل ذلك هو حتمًا حسابًا مزيفًا، حقيقة كان يعرفها جيدًا، فمعظم من تعرّف عليهم على ذلك العالم كانوا يحملون أسماءً مستعارة وحسابات مزيفة لشخصيات لا تود أن تفصح عن حقيقتها، بعضهم يهرب من حقيقته والبعض الآخر يستتر خلف ذلك الاسم المستعار ليمارس بعض أنواع الحرية التي يفتقدها في الواقع، ولكن هذا الاسم – تالا – ليس غريبًا عليه.

- اااااه، البنت بتاعت الكافيه.

تذكر صاحبة الاسم، ولكنه لم يعرف كيف عثرت على حسابه، من المؤكد أن هناك العديد من المكرم على الموقع، كيف عثرت عليه هو بالتحديد، لم يطل الحديث مع نفسه بهذا الشأن، فربما قد أظهر لها الموقع نفسه صفحته كصديق مقترح، كما يفعل معه ببعض من يصادفهم بالسوبر ماركت أو حتى في الشارع، فالتكنولوجيا هذه الأيام مرعبة جدًا.

دخل إلى الصفحة الخاصة بحساب تالا لولو، فوجد أنها قد تم إنشاؤها منذ عدة أيام ويوجد عليها عدد كبير من الأصدقاء أصحاب الأسماء المستعارة وصور الورود، أدرك حينها أن تلك الصفحة قد أنشئت له خصيصًا، هل وفاء تنصب له كمينًا! لا يدري ولكن إن كانت هي وفاء، فلمَ اختارت ذلك الاسم بالتحديد! خاصة بعد مقابلته للبنت في المقهى، هي حتمًا ليست وفاء، بالتأكيد ليست هي، هكذا أقنع نفسه بقبول الصداقة، التي ما أن ضغط على زر القبول، حتى ظهرت له إشارة ترحيب في صندوق الوارد.

بادلها الترحيب، فبدأت الحديث:

- إزيك؟

- الحمد لله، وانتِي؟

- كويسة.

- بس أنتي عرفتي توصلي لصفحتي إزاي؟

- هو أنت عارف أنا مين؟

- تالا البنت اللي في الكافيه، ولا انا فهمت غلط ولا إيه؟

تصمت التالا على الطرف الآخر من المحادثة، ترتبك قليلًا ثم تعاود الكتابة:

- اه أنا تالا.

- بس انتي عرفتي توصلي لصفحتي ازاي يا أروبة؟

- اللي يدور يلاقي يا مكرم.

- عندك حق هي التكنولوجيا بقت مرعبة أساسًا.

- أيوه جدًا، بس ليها فايدة أهو وعرفت ألاقيك.

- ده إعجاب بقى ولا إيه؟

- يعني تقدر تقول انجذاب.

يرد مكرم بعدة حروف هاء، ويكمل الهاءات.

- بس حلو الانجذاب مع بنت جميلة زيك، حلو إيه ده حاجة كده مسكرة خالص زي اللاتيه بتاعك.

- بتحب اللاتيه؟

- لا أنا بشرب قهوة تركي بس، إنتي نسيتي ولا إيه؟

- لا ما نسيتش بس قلت يمكن غيرت رأيك.

- والله معاكي أنا ممكن أغير أي حاجة مش رأيي بس.

ويختم جملته بوجه أصفر يغمز بإحدى عينيه.

- بس انت بتتكلم هنا حلو وجريء قوي غير الواقع خالص.

- يعني زي ماتقولي كده الكلام المناسب في الشات المناسب، وانتي الشات بتاعك مناسب قوي قوي، ولازمله جرأة وحلاوة ماينفعش معاه خجل الواقع خالص.

- لا، على مهلك عليا، ده أنا كده ممكن أحبك.

- حبيني يا حياتي براحتك، اعتبريني ملكك من دلوقت.

- بالسرعة دي!

- لو خايفة من السرعة بلاش، خلينا بشويش بشويش.

- إذا كان كده ماشي.

ترسل جملتها وتصمت، لا تجد ما تقوله بعد، ينتظرها لدقائق ثم يرسل:

- إيه رحتي فين؟ نمتي ولا إيه؟

- تقريبًا اه.

- طيب يا حلوة تصبحي على خير.

- هكلمك بكرة.

- هستناكي يا قمر الحلوين، باي.

- باي.

ينهي محادثته القصيرة التي روت بعض جفاف حلقه الذي تسببت فيه وفاء قبل قليل، يتنهّد بقوة مصدرًا آهة طويلة، يحتضن الهاتف ويغط في نوم عميق..

***

تنفلت الأشياء من بين يديك رويدًا رويدًا، تنساب دموعك خلفها، تبكي علّك تلحق بها، تنهمر الدموع كشلالات النياجرا ولكنك تجد أن سرعة انفلات الأشياء أكبر من سرعة انهمار الدموع، تنتابك لحظات اليأس، فتمسح ما تبقى من زخات عينيك، تحتفظ بملوحتها في منديل مطرز بالورود، ينفلت شيء جديد منك، تركض الدموع خلفه، انتظر لا ترحل، ولكن كالعادة تعود محملًا بملوحة عينيك في ذات المنديل المطرز بالورود، تخبئه بين طيات آلامك الرثة، تبكي هذه المرة بكامل إرادتك، تدفع الدموع دفعًا ناحية الألم، تعاملها كحبات البانادول المسكّنة، دمعة، دمعتان، ثلاثة، ضمدي الجروح أيتها الدموع، سكنّي الآلام، أرجعي الغائبين، وأعيدي لي ما سلب الدهر مني، ولكن هذه المرة تنفلت هي الأخرى من بين يديك، ولا تجد دموعًا أخرى لتلحق بها وتجبرها على العودة، تفقد المنديل المطرز وسط المعمعة، لا تستطيع حتى الاحتفاظ بما تبقى من ملوحتها، تنساب وتنساب، تجز عنقك، تجبرك على النواح، يعلو صوتك شهيقًا، وتتقطع أنفاسك زفيرًا، تتمسك بما تطوله كفوفك، شرشف أبيض وخرطوم رفيع شفاف هو كل ما تحصل عليه، تشق عينيك بحثًا عن ضوء الصباح، تتعرقل بمصباح دائري ذي زجاج أبيض مصنفر

تتعلق به بعض فضلات الذباب، تدور برأسك يمينًا ويسارًا، لا ترى سوى شاشات وأسلاك وخراطيم، تستنجد بأي شيء، يتوقف الكلام عند حافة شفتيك، يصطدم بقناع الأكسجين الذي يمدك بالهواء اللازم لنفخ رئتيك، تدرك بعد عدة محاولات للصراخ أن لا شيء يجدي سوى الانتظار علّ أحدهم يمر عليك بغرفة الرعاية المركزة قبيل الصباح، يدرك عزوز بعد عدة محاولات أنه بغرفة رعاية بإحدى المستشفيات، لا يذكر ما حدث، كان آخر شيء يعرفه هو أنه فقد سيارته ونقوده، اه هؤلاء الملاعين الذين سرقوه، مع السكين التي سرقته بعد ما حدث، وجعلته يتقبل الأمر في البداية بمنتهى الهدوء والسخف، ولكن بعد أن تركته السكين عاد لعقله وانهار كليًا، حتى قلبه انهار معه باكيًا.

لا يعلم كم من الوقت مر عليه وهو بهذه الغرفة المعقمة، الستائر السماوية المحيطة به لم تغير من حقيقة كونه محبوسًا داخل هذا السرير شيئًا، يحرك يده الفارغة من الكانيولا ناحية فمه ويرفع عنه قناع الاكسجين لثوانٍ، يبحث عن زر النداء على الملاك المنوط به، يجده أخيراً معلقًا بطرف السرير، يمد يده عن آخرها، يصل إليه ويضغطه بكل ما تبقى له من قوة، لا يتركه وكأنه جندي بالميدان قد أقسم على ألا يفارق سلاحه قط، تهرول الممرضة من الغرفة القريبة ناحية الستائر السماوية، تترك اثنتان وتفتح الثالثة لتجد عزوز قابضًا على سلاحه الصغير مصدرًا جرسًا مزعجًا لكل الملائكة النيام في غرفة التمريض.

- على مهلك خلاص أنا جيت أهو.

- انتم سايبني كده لوحدي مش تشوفوني صاحي ولا ميت؟

- يا سيدي حمد الله على سلامتك الأول، إحمد ربنا إن لسه فيك نفسك.

- هو إيه اللي حصل؟

- أنا ما اعرفش إيه اللي حصلك، بس أنت جيت من يومين كنت قاطع النفس خالص، وعملولك دعامتين.

- دعامتين؟

- اه يا أستاذ.

- ودول اتكلفوا كام على كده؟

- ما اعرفش والله يا أستاذ، المهم انك بخير وحمد الله على سلامتك، أنا هروح اندهلك الدكتور النباطشي يطل عليك.

- ماشي يا قمر ما اتحرمش.

يقولها عزوز بفم مبتسم ابتسامة عريضة، مغازلًا الفتاة في زي الملائكة الأبيض، والتي تتركه وتذهب للخارج لتنادي على الطبيب ولتخبر نشوى المتخذة من أريكة الاستقبال المعدنية سريرًا لها.

تفرح نشوى باستفاقة عزوز، وتجري ناحية الغرفة ولكن رجلا بزي الأمن يمنعها من الدخول حتى يأتي الطبيب ويأذن لها، تقف عند الباب ترسم علامات السعادة على وجهها في انتظار الطبيب، مهما كان ما يحدث من عزوز مازال هو رجُلها الذي تستند على أنفاسه في الدنيا، تخرج هاتفها لتخبر منة الله ومحمود بالأمر ولكنها تجد أن الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا بقليل، فآثرت أن تنتظر إبلاغهما بهذا الخبر في الصباح حتى لا تؤرق منام صغيريها.

يأتي الطبيب مهرولًا ناحية الرعاية، يجد نشوى عند الباب وقد ارتسمت الابتسامة على وجهها لأول مرة منذ يومين حين جاءوا بعزوز بين الحياة والموت، يطمئنها مبدئيًا ويدخل لعزوز:

- حمد الله على السلامة يا بطل.

- الله يسلمك يا دكتور.

ينظر الطبيب في تقارير حالة عزوز المعلقة بسريره المعدني، يتطلع إلى شاشة الجهاز الملحق به، يبتسم مطمئناً:

- لا ده انت بقيت تمام خالص.

- الحمد لله يا دكتور.

- الصبح نكتبلك على خروج لغرفة عادية، ويومين كمان نطمن عليك ونخرجك لبيتك وولادك بالسلامة.

- ربنا يطمنك يا دكتور، يعني بقيت تمام خلاص.

- اه طبعًا يا راجل يا طيب.

- هو مفيش حد من العيال بره يا دكتور؟

- في طبعًا المدام بتاعتك بره مستنية تدخلك، وانا هاخرج واخليها تجيلك حالًا.

- متشكر يا دكتور.

يخرج الطبيب ولا تنتظر نشوى أن يأذن لها، فتدفع باب الغرفة الثقيل وتهرول ناحية عزوز، لتجده مستقرًا خلف الستارة السماوية، يحمل وجهه ابتسامة رضا يشوبها بعض الخوف، تقترب منه نشوى وتجلس بجواره، تمسك يده لتشعره ببعض الطمأنينة، تخرج الدقات من قلبها لتصل إلى قلبه، يتذكر جسداهما أيامًا ولّت كانت ممتلئة بالشغف بينهما، ولكن ذلك الشغف كان قد فتر مع أخطاء عزوز المتكررة والمتتالية في حق نشوى حتى ابتعدا في هدوء ولم تعد دقات قلب أحدهما تصل للآخر، اعتبرت نشوى هذه الدقات العائدة كإشارة لوصل ما كان قد مزّق منذ سنوات، علّ ما أصاب قلب عزوز يرد له بعض عقله ويعود الرجل الذي أحبته إلى سابق عهده ورزانته.

- حمد الله على سلامتك يا حبيبي.

- الله يسلم عمرك يا نشوى، أنا مش عارف إيه اللي حصل لي.

- مش مهم إيه حصل المهم إنك بخير.

- الحمد لله، هو الولاد فين؟ وحشوني قوي.

- في البيت يا عزوز، إحنا الساعة 4 الفجر.

- يااااه أنا مش واعي لأي حاجة، احكيلي اللي حصل ومين اللي جابني هنا.

حكت له نشوى ما حدث وهي ممسكة بيده تربت عليها في حنان، يتنهد بعمق قائلًا:

- يااااه ده أنا كنت هروح فيها.

- الحمد لله ربنا سترها.

- أنا آسف يا نشوى.

- آسف على إيه يا عزوز؟

- مش عارف، بس أنا آسف على كل حاجة وحشة حصلت مني، أوعدك من النهاردة هتغير وهرجع عزوز بتاع زمان.

- ما تعتذرش على حاجة يا عزوز، مفيش حد معصوم من الغلط، المهم ما نرجعلوش تاني.

- مش هرجع تاني يا نشوى عشان خاطرك، أوعدك.

- عشان ولادك، وعشان نفسك يا عزوز مش عشاني.

- خلاص أوعدك من أول يونيو هكون إنسان جديد، هها ها ها.

يضحك ضحكته الشهيرة بشق الأنفس، ثم يختمها بسعال خفيف، تطلب منه نشوى الصمت حتى لا يجهد قلبه، فيصمتا، يأتي الرجل في زي الأمن يطلب منها الخروج حتى لا تقلق منام من خلف الستائر السماوية المحيطة بهم، تعتذر نشوى عن علو صوتهما، وتودع عزوز وتخرج لأريكتها المعدنية.

***

متكورًا على نفسه، يعانق ركبتيه، نسيم الصباح يشعره بالنداوة رغم صلابة مرقده، نباح كلاب، مواء قطط، صوت صرخات خافتة لابن عرس، صياح ديك بعيد، زقزقة عصافير، صوت دوران عجلات على الأسفلت، إيقاع منتظم من سير حصان أو حمار يدق بحدوته على الأرض، سيمفونية مزعجة للبعض مألوفة له، خالية من صوت نداءات الأطفال لأصحابهم في الصباح، أو صراخ أم مع صغارها توقظهم للذهاب للمدرسة، سيمفونية تفتقد نكهة الفلافل وصوت التقائها بالزيت الساخن، الطرق المنتظم لماكينة فرمها وتحويلها لعجينة خضراء لدنة، صوت مغرفة الفول الطويلة عند اصطدامها بحافة القدرة، كل تلك أشياء افتقدها في ذلك الصباح، يترك عناق ركبتيه، ويفرد جسده، يشد طوله جيدًا، يعقد كفيه خلف رأسه ناظرًا للسماء الصافية، العصافير والحمام واليمام كل بدأ في البحث عن رزقه، يملأ صدره بنسيم الصبح العليل، صوت خرخرة قط يلفت انتباهه، ينظر ليجده نائما بالقرب من قدمه، يستأنس به في أمان، يظل على حالته مدة تقترب من الربع ساعة، يستمتع بذلك الصباح البكر الذي افتقده منذ ترك الدراسة والذهاب للمدرسة مع محمود.

يتنهد مخرجًا زفيرًا يحمل بعض الألم النفسي الذي يجتاحه، العوذ مؤلم جدًا، أن تجد نفسك مضطرا لسلك طريق أعوج لتصل لغايتك أهون عليك من سلك ذات الطريق لتصل إلى نهاية لا تعلمها، أن يُكتب عليك أن تسلك الطريق مرغمًا دون هدف أو ضالة سوى البقاء على قيد الحياة والحلم، يتذكر هاتفه وحافظة نقوده فجأة، يتحسس جيبوب بنطاله فيجد كل شيء بمكانه، يتناول علبة السجائر ويشعل سيجارة، يلوث بها ذلك النقاء الذي كاد يصفعه حنينًا إلى أيام ولّت، نفث تلو الآخر، تتشكل صورتها في الدخان، يتذكر العراك الصغير الذي جمعهما، يضحك، يسترجع الحوار "لا يا حبيبي فوق كده واتكلم على قدك، ده أنا نص محلات وسط البلد تعرفني، واللي يدوسلي على طرف مايطلعش عليه صبح هنا" نصف محلات وسط البلد تعرفها هي حتمًا تعمل هنا، اشتغلت بالعديد من المحلات، هي بائعة

إذًا، طريقتها وملابسها توحيان بذلك، ولكن أي محل تعمل به الآن! قابلها بشارع طلعت حرب متجهة لشارع 26 يوليو، إذًا هي تعمل بذاك الشارع أو شارع متفرع منه، لا توجد محلات ملابس أو أحذية كثيرة بشارع شريف، ولا توجد محلات ملابس أو أحذية أصلًا بصبري أبو علم، ربما تعمل بمحل بشارع قصر النيل أو ممر بهلر، سيبحث عنها، أو سيترك قلبه ليعثر عليها وهو على يقين بأنه سيجدها، فلم تخطفه فتاة كما فعلت هي، وربما هي ذلك النصف الآخر الذي يقولون عنه.

ينهي سيجارته، وينظر لشاشة هاتفه الذي قارب على انقطاع شحنه، ليجد الساعة تقترب من الثامنة، يترك مرقده ويصلب طوله، جسده يؤلمه للغاية، يشعر بأن هناك سيارة نقل ثقيل قد مرت فوقه، حطمت عظامه تحطيمًا، تمطّى أكثر من مرة وألقى بهمومه وكسله مع كل تمطي نحو الفراغ، بدأت أصوات العصافير في الاختفاء رويدًا رويدًا بعدما بدأ الناس في النزول إلى الشوارع، اختفت الكلاب والقطط، كلٌ سعى على رزقه كالطيور التي سبقتها، خرج من الممر متوجهًا لعربة فول تحتل أحد الممرات القريبة، تشارك الطاولة الخشبية الطويلة مع غيره من زبائن العربة، صينية من الألومنيوم تتوسطها تمتلئ عن آخرها بعيدان الجرجير الأخضر، وصينية أخرى تمتلئ بالبصل الأخضر، متوزعتين بين الزبائن، وقفصين متجاورين يحملان أرغفة الخبز الطازج، متأهبان لالتهام ما عليهما، تناول إفطاره وذهب لمقهى قريب، جلس بجوار قابس للكهرباء، وطلب كوبًا من الشاي، وانتظر استيقاظ كريم لينقله إلى حياته الجديدة بعيدًا عن قساوة الشارع الذي احتضنه بالأمس مضعضع عظامه.

***

تعانق خيباتها معه، خذلانه المتكرر لأنوثتها، قسوته وسوء معاملته لها في مشبك كبير يحيط بخصلاتها السوداء المصبوغة حديثًا، تلملم كل دموعها في قارورة

أنيقة، تخلطها بماء الورد، ترش منها فوق عمرها وتجاعيد وجهها التي بدأت في الظهور مؤخرًا، تمسح فوقها بقطنة نظيفة مسحة تشبه تلك التي يمسحها الطبيب قبل غرز سن الإبرة في جسدك، هي تعلم أن كل ذلك لن يغير من واقع وحدتها شيئًا، لن يغير رقمًا في عمرها الذي يتدفق كنهر ثائر، لا يتمهل حتى عند المنحنيات الممتلئة بالصخور، ولكنها رغم كل ذلك تحاول غرز سن إبرة الأمل في جسدها، علّها تجد من ريح الشباب شيئًا، تعود للطبطبة على وجهها بالقطنة المبللة بماء الورد، ثم تمسح بأخرى نظيفة، تضع بضع نقاط من كريم مقاوم للزمن في محاولة بائسة لتغيير الثلاثة خطوط العرضية بجبهتها إلى خطين أرفع، كحل شديد السواد لا يتأثر بملح الدموع هو كحلٌ مثاليٌ لامرأة في مثل خيبتها، خط بالداخل وآخر عريض يزين الجفن، تسحب طرفه إلى الخارج لتبدو عيناها أكثر تحديدًا كعين مها برية لا يقدر على مقاومتها أحد، تطوق كل ذلك بشال شديد السواد مطرز بخيوط السيرما الذهبية على شكل وردات صغيرة تعانق بعضها بعضًا.

العناق ربما هو الشيء الأكثر الذي تحتاجه بتلك الفترة، يشتاق جسدها للتنفس داخل جسد آخر، يشعر بالطمأنينة، الحماية، الحب، تحتاج لعناق يرويها حد تكسّر الضلوع، ولملمتها مرة أخرى، عناق تجده فقط في ورداتها المطرزة، أو نظراتها لمن بدأ يعبث بعقلها ويتملكها بطريقة تجعلها لم تعد تعرف نفسها!

ترتدي حذاءً ذا كعب عالٍ، لم ترتديه منذ أن كانت ترتدي التنانير القصيرة قبل أن تذهب لزيارة بيت الله بالأراضي المقدسة، لم تكن بحاجة إليه، ولا إلى صوت طرقاته على الأرض، والتي تجعل من يسمعه يرتجف من قوة دقات قلبه، رفيع جدًا الكعب، هزيل كأيامها، ترتديه كما ارتدتها الأيام، لا حول له ولا قوة، تدب بقدمها فوق كعبه فيدب الكعب فوق الأرض، فيدق قلبها كلما اقتربت من الباب المؤدي للموظفين المتعاملين مع الجمهور في الفرع، تراه يجلس في عصبية، يتعامل

مع العملاء بمنتهى الجدية، لا يرسم ولو نصف ابتسامة على وجهه، متجهم جدًا وكأنه قد خسر قطعة من جسده، عليل قلبه لم تكن تعلم بذلك، عليل جدًا، لا يجد من يربت عليه حتى أولئك الذين يتحدث معهم عبر العالم الأزرق لم تعد إحداهن قادرة على احتواء ذلك القلب العليل صاحب الروح المتعبة من كل شيء.

تقترب من النوافذ المطلة على البهو الكبير، تلقي التحية على الجالسين خلفها، وتلقي نظرات عابرة على الواقفين أمامها، عُلا مديرة القسم تهب واقفة من مقعدها، تشير لها بالجلوس ومتابعة عملها، تربت على كتف البعض، تمشي بهدوء وصوت الضوضاء من الخارج أقوى من صوت كعب حذائها، تدب بقوة أكبر، تحاول لفت انتباهه، تود أن يلقي نظرة عليها، يراها واقفة بالحذاء ذي الكعب المدبب العالي، تدندن أغنية شادية الشهيرة، واتمنى أشوفه ولو صدفة يشوف تسريحتي وفستاني، لقد جاءتك الفرصة يا مكرم، هيا تطلع إلي، إنها عباءة جديدة وحذاء يدق الأرض دقًا، وكحلًا شديد السواد يجعل من عينيها كهفا مليئا بالأسرار، ولكن مكرم كان منهمكًا فيما يفعل، ينهي المعاملات، ويعد النقود، يكتب الأرقام لا يتوانى عن التفكير بوفاء وتالا وقلبه المحطم ووحدته التي يشعر بها رغم جمع المؤنث السالم حوله.

تفقد الأمل في لفت انتباهه مصادفة، فتتوجه إليه مباشرة، تخلع نظارتها الطبية من فوق كهفيها المليئان بالأسرار، تنحني بالقرب منه مفتعلة النظر بالأوراق في حيز مجلسه، ينتبه لعطرها يتنحنح معدلًا من وضع نظارته وياقته ورابطة عنقه:

- صباح الخير يا ريسة.

- صباح النور يا مكرم.

تقولها بحنان وابتسامة ملفتة للقلب، تنتبه لنعومة صوتها ورقتها فتعيد وضع النظارة فوق أنفها، تحجب بها بعض الأسرار، تواري فضيحة تكاد تكون مرتسمة بسوادها تتحدث بطريقة أكثر حزمًا وبصوت أقوى:

- إيه الأخبار؟ فيه مشاكل تاني ولا حاجة؟

- لا يا ريسة كله تمام، حتى اسألي الناس أهو.

- أومال مكشر كده ليه يا أستاذ مكرم؟ لازم نبتسم في وش الناس لأن هما مالهمش ذنب في أي حاجة تخصنا.

- مفهوم طبعًا يا ريسة؛ أنا آسف.

يقولها محاولًا رسم ابتسامة مصطنعة على وجهه، تبتسم إلهام لرؤيتها، ابتسمت رغم يقينها باصطناعها، ولكنها كانت كفيلة بجعل قلبها يخفق:

- أيوه كده ماتخليش الابتسامة تفارق وشك.

تلاحظ التفات جميع الموظفين ناحيتها فتكرر حديثها بصوت أعلى موجهة كلامها للجميع:

- لازم الابتسامة ما تفارقش وش حد منكم، الابتسامة في وش العميل واجب، وقبل ده كله تبسمك في وجه أخيك صدقة.

يرسم الجميع ابتسامته، محاولا نيل رضا السيدة إلهام النجار، بينما هي كانت تحاول نيل اهتمام السيد مكرم..

تعود إلى غرفتها الزجاجية، تجلس خلف مكتبها، تمسك بقلم تدق به فوق المكتب، تود أن يحضر إليها، تتحدث معه، تبادله نظرات خالية من الخيبة، تود لو تغرق في بحر عينيه، لا ينقذها أحد، تغرق وتغرق حتى يشعر بها تركل بقدميها، تنازع من أجل البقاء، السقوط فيه لذيذٌ، ولكن إن لم يشعر بها سيكون سقوطًا مميتًا، ستود لو يمسك بيدها حينها، فينتشلها من ذلك الصمت أو يسقطان معًا.

يقطع أفكارها رنين الهاتف، ترفع سماعته وتضعها على أذنها، ولكن الرنين لم يتوقف، تنتبه إلى الهاتف المحمول "أين عقلك يا إلهام! يتهنى به مكرم" تحدّث نفسها، ثم تفتح الخط:

- أيوه يا يوشة، صباح الخير.

- صباح النور يا ماما.

- خير يا حبيبتي؟

- أبدًا يا ماما بس كنت عاوزة الفلوس عشان مراجعة الرياضة.

- اه صح أنا نسيت أسيبهملك، طيب عدي عليّا في البنك خديهم مني، لو محتاجاهم ضروري.

- حاضر يا ماما.

تغلق الخط دون سلام كعادتها، تعود لطرقاتها على المكتب، حتى تخرجها طرقات خفيفة على الباب الزجاجي لغرفتها، تلج علا بخطوات هادئة، ممسكة بملف أحمر به بعض الأوراق، تقترب من مكتب إلهام:

- معلش يا ريسة محتاجين بس إمضاء حضرتك على الورق ده.

- ما انا مضيت البوستة كلها الصبح يا علا.

- أيوه بس ده مش بوسته ده ورق قرض عميل مقدمه وكان عاوز تأشيرة من حضرتك عشان نستعجل الإجراءات.

- طيب وإدارة الائتمان إيه موقفها؟

- هياخدوا كل الإجراءات والاستعلام طبعًا، التأشيرة بس عشان السرعة لأنه محتاج الفلوس يسدد بيها تمن ماكينات شاريها لمصنعه من بره والحاجة وصلت.

توقع إلهام الأوراق بسرعة، تغلق الملف، وتطلب من علا أن تنادي مكرم، تندهش علا من طلب إلهام المتكرر لمقابلة مكرم في مكتبها، رغم أنها كانت بالصالة منذ قليل، فتحاول معرفة الغرض من طلب إلهام المتكرر لمكرم بطريقة خبيثة:

- لو في حاجة محتاجاها من مكرم أنا ممكن أعملها لحضرتك، بدل ما يقوم ويسيب الشباك والعملاء.

- لا خلاص مفيش لزوم، أنا هاعمل الحاجة دي بنفسي.

تستأذن علا للخروج، تعود لمكتبها، ترمق مكرم بنظرات ثاقبة، لا تجد به شيئًا يمكنه إخبارها عما بينه وبين إلهام، مجرد رجل عادي يحمل همومًا يحاول أن يواريها خلف وجهه الجامد، تأخذ ملفها الأحمر وتتجه إلى إدارة الائتمان مسرعة حتى تنهي مسألة القرض.

***

بخطوات هادئة، تدخل عائشة بهو البنك على استحياء، مرتدية فستانًا طويلًا بلون زيتي داكن، وتلف رأسها بشال قطني من لون الحمص، تحمل حقيبة كبيرة يبدو عليها الثقل فوق ظهرها، تتلفت يمينًا ويسارًا باحثة عن غرفة مدير الفرع، تتعثر بفرد من أفراد الأمن، يقترب منها، يسألها عن وجهتها، فتخبره ببحثها عن والدتها السيدة إلهام النجار مدير الفرع، ينحني الرجل أمامها، يتملقها، يرشدها إلى مكتب أمها وهو يسير معها خطوة بخطوة، وخلف كل خطوة اتفضلي يا فندم، من هنا يا فندم، يطرق الباب نيابة عنها، ويفتحه:

- البشمهندسة وصلت يا ريسة.

- شكرًا يا عم محمود، تعالي يا يوشة.

تدخل عائشة في صمت، تمسك طرف فستانها وتجلس بأناقة بعد أن تضع حقيبة ظهرها أرضًا بجوار مقعدها:

- إيه يا بنتي كل الشنطة دي؟

- فيها كتب وملازم يا ماما، ما انتي عارفة الثانوية العامة.

- اللي أعرفه إنهم بطلوا يشيلوا كتب في ثانوي.

- بس مش لما تكون الامتحانات بعد أسابيع، بنشيل كل حاجة معانا عشان ما نتزنقش.

- ماشي يا ستي، كنتي قلتيلي عاوزة كام بقى؟

- 300 جنيه.

- المراجعات دي غالية قوي.

- ماهو عشان في ملزمة كبيرة.

- ملزمة للمراجعة، وملازم قبل كده للمنهج، ويا ترى بقى في ملازم تاني؟

- في ملزمة مراجعة ليلة الامتحان بس يا ماما.

- لا جايين على نفسهم قوي.

- معلش بقى يا ست ماما، هانت أهي خلاص.

تبتسم إلهام وهي ترى فسيلتها التي زرعتها في أرض هذه الدنيا تكبر وتناقش، وتجادل كما لو كانت هي في صغرها، تخرج النقود من حافظة نقودها، تمد يدها لعائشة التي تخطف النقود من يدها، قائلة وهي تعلق حقيبة ظهرها على عجل:

- سلام بقى يا ماما، عشان هاتأخر.

تخرج عائشة مسرعة، تسير بممر طويل عائدة إلى البهو، أبواب الغرف مصفوفة على الجانبين، الموظفون يتحركون مجيئة وذهابًا، خلية نحل لا تنتج العسل، وإنما تبني تلالًا من الأوراق النقدية، تخرج إلى البهو، ترى عالمًا مزدحمًا وضوضاءً عارمة، تلقي نظرة إلى النوافذ الزجاجية المعدة للتعامل مع الجمهور، تلمح علا تجلس إلى مكتبها، تقترب من الزجاج، تطرقه برفق، يلتفت إليها موظف قريب، تشير له ناحية علا، ينادي عليها، تلتفت علا إلى عائشة، تلوح لها، تطلب منها الانتظار، تخرج لها:

- عائشة! ازيك يا حبيبتي؟

- الحمد لله يا طنط ازي حضرتك؟

- بخير يا حبيبتي، إنتي بتعملي إيه هنا؟

- كنت جاية لماما آخد منها حاجة.

- هي ماما بتشتغل معانا هنا؟

- اه ماما مديرة الفرع.

- الريسة إلهام؟

- أيوه.

- ياه على الصدف، يعني تبقي صاحبة بنتي من 3 سنين ومامتك مديرتي وما نعرفش.

- تخيلي بقى يا طنط، بس فرصة سعيدة والله إني شفت حضرتك.

- أنا أسعد يا حبيبتي.

تقولها وتنظر لساعتها:

- ياللا مش عندكم مراجعة دلوقتي؟

- اه ما أنا رايحة أهو، بعد إذن حضرتك.

تترك عائشة البنك وعلا وأمها ذاهبة إلى وجهتها، تشير لسيارة أجرة وتتخذ لنفسها مقعدًا بين الركاب في صمت.

***

اسم على مسمى، منة الله وهي فعلًا منة من الله على عائلة عزوز، فتاة تحمل المعنى الحقيقي للأنوثة، تحمل المسئولية على عاتقها كامرأة ناضجة، تهتم لأسرتها

وأخيها كأم حنون، تنحّي أحلامها جانبًا، تحتفظ بها في خزانة كبيرة ممتلئة عن آخرها، لا تظهر منها سوى حلم صغير؛ أن ترى الابتسامة والرضا على وجه أمها، وأن ترى الحب ينتشر في منزلهم الصغير من جديد، تستيقظ باكرًا، تنظف المنزل وتحضر طعام الإفطار لها ولأخيها النائم بعد ليلة طويلة من الأرق، والمذاكرة، توقظه، فيذهب للاغتسال، تمسك بهاتفها وتطلب أمها لتطمئن عليها وعلى والدها، تطمئنها نشوى.

- طيب يا ماما هنفطر ونيجيلكم على طول.

- محمود صحي؟

- اه يا حبيبتي وفي الحمام، هنفطر ونجيبلك معانا فطار ونيجي.

يقترب منها محمود متثائبًا، يجلس على المقعد المقابل لها على طاولة الطعام، يقطع رغيف خبز ويلتقم قطعة من الجبن قائلًا:

- ها إيه الأخبار؟ كلمتي ماما؟

- اه وبابا فاق الحمد لله، والدكتور قال هيتنقل لغرفة عادية كمان.

- الحمد لله يا رب، إحنا هنروحلهم صح؟

- أيوه يا حبيبي هنفطر وننزل على طول، أنا مجهزة أكل وغيار لماما كمان.

- طيب كويس كنت لسه هاقولك ناخد أكل لماما زمانها يا عيني مرهقة وجعانة بقالها 3 أيام هناك.

- ربنا يهون الأيام يا محمود.

- يا رب.

ينهيا طعامهما على عجل، يتوجهان للمستشفى كمشتاق للدفء شاهد ضوء نار على بعد، صامتان طوال الطريق، كل منهما يدعو الله في سره لنجاة أبيه ولم

شمل أسرتهما من جديد، يعلمان بمدى اتساع دائرة المشاكل بين أمهم وأبيهم، ويلحظان تصرفات أبيهما الرعناء، ولكن ليس بيدهما حيلة، ففي النهاية الوالد يجب احترامه ومحاولة تقويمه ولو بالقلب، رأت منة الله فيما حدث لوالدها خيراً كبيراً، لم تر أمها تحمل تلك اللهفة على وجهها منذ سنوات طويلة، لم تع على لهفتها من الأساس، لم تعرف متى كان آخر لقاء أسري دافئ في منزلهم، لم يجلسا لتناول الطعام على طاولة واحدة معًا، فنشوى دائمًا تدفن نفسها داخل أوراق القضايا، صامتة لا تتحدث إلا بالقليل وكأنها تخشى على المنزل من انفجاره بأحاديثها المكتومة، وعزوز دائمًا خارج المنزل وهاتفه مغلق، لا يعود إلا قرب منتصف الليل، ليأكل وينام، لا تسمع منه صوت ضحكته المتقطع سوى في الهاتف حين يأخذه للشرفة ليتحدث بعيدًا عن أذن أمها، أما عدا ذلك فلا تسمع سوى صوت شخيره وهو نائم أو صوت صمته كأمها تمامًا.

يصلا للمستشفى، يطويان الطرقة الطويلة بالدور الثاني هرولة، يجدا نشوى تتخذ من الأريكة المعدنية مجلسًا ومن حقيبتها الكبيرة متكئًا تريح جفنيها عليه، اقتربت منة الله من أمها ونادت عليها بصوت هادئ حتى لا تفزعها، بينما اقترب محمود من الباب الثقيل محاولًا رؤية ما بداخل غرفة الرعاية ولكنه لم ير سوى الستائر المنسدلة بلون السماء.

تفتح نشوى عينيها وتعتدل في جلستها، تنحني منة الله وتحتضنها، يظلان في عناق طويل لبضع ثوانٍ، فكلاهما تفتقد حنان الأخرى، تُجلس نشوى منة بجوارها، بينما يعود محمود ليعانق أمه كما فعلت أخته ويسألها بلهفة:

- إيه يا ماما الدكتور هيطلعه امتى للغرفة العادية؟

- هو قال النهاردة إن شاء الله أو بكره بالكتير، هنعرف أكتر لما يمر عليه كمان شوية.

تتابع منة الله في حنان:

- طيب يا حبيبتي قومي روحي الحمام اغسلي وشك كده وغيري هدومك بالهدوم اللي جبتهالك معايا وتعالي عشان تفطري، أنا عملتلك سندوتشات الجبنة الرومي بالفلفل الأخضر زي ما بتحبيها.

يقبل محمود رأس والدته قائلًا:

- وأنا هقوم أجيبلك أحلى فنجان قهوة، يفوقك ويعدل دماغك.

- اه والنبي يا محمود أحسن مصدعة قوي.

هالة من دفء أسري آمن تخيم على ثلاثتهم كما اعتادوا دائمًا، لم ينقصهم سوى أنفاس عزوز معهم حتى يشعروا بالأمان التام.

بضع ساعات تمر وثلاثتهم يجلسون في انتظار أن يأتي الطبيب يمر على عزوز، يطمئن على حالته، ويسمح له بانتقاله لغرفته الجديدة، يحدث ما تمنوا، ويخرج عزوز على تروللي لغرفته، ترتمي منة الله في حضنه، ويفعل مثلها محمود، عناق طال الحصول عليه، لم يذكر كلاهما كيف كان حضن أبيهما، فلم يعانق أي منهما منذ سنوات كانا لم يدخلا فيها للمدارس بعد، تغير كثيرًا هذا الرجل خلال سنواته العشر الأخيرة، لم يعد الأب الحنون الذي يملأ المنزل بهجة بضحكته المتقطعة الشهيرة:

- هها ها ها، كبرتي يا بت يا منة وهتروحي المدرسة.

- وهلبس مريلة جديدة وتجيبلي شراب أبيض عليه دانتيل وفيونكات؟

- وشنطة حمراء، وكولون، وفيونكات لشعرك كمان، هو أنا عندي كام منة.

- حبيبي يا بابا.

تتذكر منة الله حديثها الدافئ الأخير معه، ومحمود الذي يصغرها يحمل

زجاجة الرضاعة بيد ويسند على أريكة الصالون بيده الثانية، يرج الزجاجة ويسكب منها فوق قماش الأريكة، فتصرخ نشوى، ويضحك عزوز، يحمل محمود ويدور به في الغرفة، يمسك بزجاجة رضاعته ويفعل مثلما يفعل الصغير، ثم يخبره بأن ذلك فعل خاطئ ويضع الزجاجة على فمه ويمص فوهتها ليري محمود كيف تستعمل الزجاجة، تصرخ نشوى عند رؤيتها لعزوز يضع فمه بفوهة زجاجة الرضاعة:

- يا عزوز هتلوث الببرونة للولد.

- ألوثها ازاي بس؟ هو أنا ميكروب يا نشوى؟

- مش قصدي يا عزوز بس الولد مناعته ضعيفة، وممكن يتنقله أي فيروس ولو خفيف.

- خلاص يا ستي حقك عليا، خدي الواد أهو وعقميه كله على بعضه.

مرة تتبع مرة، مشاجرة صغيرة تتحول لعراك كبير، وعراك يتبع عراكًا، حتى اتسعت الفجوة على مر السنين، واكتملت بعبثية عزوز في تصرفاته غير المسئولة، والتي تعتبر خيانة لزوجته وبيته.

يدخل عزوز الغرفة ويستقر على سريره، يلتف حوله ثلاثتهم، في حلقة أسرية دافئة افتقدوها جميعًا منذ أعوام، تشعر نشوى بلدانة تمس قلبها تجاه عزوز، تبتسم له فيمسك بيدها ويقبلها، تخجل منة الله ويواري محمود وجهه ناظرًا تجاه النافذة، تحمّر وجنتا نشوى كابنة السابعة عشرة، تضع يدها الأخرى على فمها بينما عزوز يظل ممسكًا بيدها ولا يود تركها، الكثير قيل بهذه اللمسة، لمعت عينا نشوى ودق قلبها بسرعة، تذكرت لمسة يدهما الأولى، حين أمسك بها عند عبور الشارع، يومها شعرت برجفة تدب بأوصالها، تيار بارد مر خلال جسدها حتى وصل للقلب، يومها تيقنت من حبها لعزوز، طرق خفيف على الباب تبعه دخول الممرضة التي قطعت تلك الذكرى السعيدة، ترك عزوز يد نشوى ونظر للممرضة:

- مساء الخير، حمد الله على السلامة.

- الله يسلمك.

قالتها نشوى بتحفظ، متوجهة بنظرها إلى عزوز الذي بدأ في فحص جسد الممرضة، والذي تابع:

- مساء النور.

- إن شاء الله أنا اللي هكون مع حضرتك هنا، اسمي جميلة، لو احتجت أي حاجة رنلي الجرس بس وهاجي على طول.

- أنا قلت برضه لازم تكوني جميلة.

- ميرسي يا فندم.

ردت الممرضة بخجل، فتابع عزوز متناسيًا وجود نشوى بالغرفة:

- أومال فين الممرضة التانية الحلوة اللي شبه الهنود دي؟

- أنهي دي؟

- اللي كانت في غرفة الرعاية.

- اه، لا هي تابعة للرعاية إنما هنا أنا موجودة وفي شيفت بالليل إن شاء الله هيكون في زميل موجود بدالي.

امتعض وجه عزوز حين سمع كلمة زميل، فلن يكون هناك المزيد من الحسناوات في المساء، ستكون الليلة طويلة جافة وصامتة، ولكنها لن تكون جافة هشة كقلب نشوى الذي شعر بطعنة في داخله تردد صداها على لسانها قائلة:

- مفيش فايدة.

***

تنتهي نوبتجية الليل، ويشق الصباح الظلام بنوره، فيبعث الحياة في قلوب النائمين، يستيقظ على وقع أقدام الملاك المكلفة برعايته، جميلة الاسم والهيئة، تقترب منه وتقوم بواجبات وظيفتها، تقيس الضغط وغيره، تتابع مؤشراته وتناوله الدواء، تحقنه بعقار كتبه له الطبيب، وتقرّب منه طاولة الطعام ليتناول إفطاره كما وصفه الطبيب:

- صباح الخير يا أستاذ عزوز.

- صباح الورد، صباح الجمال، صباح القشطة.

- عامل إيه النهاردة؟

- كنت حاسس إني تعبان من شوية بس أول ما دخلتي بقيت كويس جدًا.

- طيب الحمد لله، شوية كده والدكتور هيمر عليك، عشان ممكن يتكتبلك خروج النهاردة.

- ليه بس؟ ماتخلوني قاعد معاكم هنا شوية، هها هها ها، ده حتى الجو هنا حلو وفي تكييف، والمستشفى ترد الروح.

- يعني مش عاوز تروح بيتك وتقعد في وسط ولادك.

- عاوز طبعًا بس هنا حلو برضه.

- ربنا يكمل شفاك على خير يا أستاذ عزوز وما يكتبلكش تيجي هنا تاني.

- تسلمي يا جميلة الجميلات.

تتركه جميلة، وتخرج لتكمل متابعة باقي الغرف، يبدأ عزوز في تناول إفطاره، مستمتعًا بطعم الطعام في فمه، فلم يدخل جوفه في الأيام الماضية شيئًا، سوى محاليل مغذية، طرقات خفيفة على الباب، يتبعها صوت عزوز.

- ادخل.

يدفع محفوظ الباب ببطء، ويدخل مبتهجًا:

- حمد الله على السلامة يا بطل.

- محفوظ! تعالى يا جدع، واحشني والله.

- إيه ياعم خضيتنا عليك، عامل إيه دلوقت؟

- بخير الحمد لله، لسه الممرضة بتقولي احتمال أخرج النهاردة.

- طيب الحمد لله على خير إن شاء الله.

- الحمد لله.

- مفيش أخبار عن المحضر إياه؟

- لأ مش عارف حاجة من يومها.

- عمومًا خير إن شاء الله.

يخرج علبة من كيسٍ بلاستيكي ويمد بها يده لعزوز:

- ده الموبايل اللي قلتلي أجيبهولك، ومعاه خط جديد.

- طب والقديم مش هينفع أرجعه؟

- ماهو مش هتعرف تطلع شريحة غير بالبطاقة وانت بطاقتك مسروقة، فمشي حالك بده عقبال ما تطلع بطاقة جديدة وابقى رجع رقمك القديم تاني.

- ماشي مش هتفرق، وأخبار الشغل والناس اللي فيه إيه؟

- كله بيسأل عليك وبيبلغوك سلامهم.

- الله يسلمهم، حد عرف بالحوار.

- أنا قلتلهم إنك اتسرقت بس وتعبت بعدها ومحدش طبعًا منهم يعرف سبب السرقة.

- ههها ههها ها، لا أسباب إيه إن الله حليم ستار.

- ما تخافش ما أنا ماقلتش حاجة، المهم انت اتجدعن كده وقوم بالسلامة.

- على الله، بس انت مارحتش الشغل ليه صحيح؟

- ما انا عامل أجازة.

- وصاحي بدري ليه طيب طالما أجازة.

- أصل الواد حمزة بيجهز ورقه وأنا بروح أوصله بالعربية بنخلص المشاوير فقلت أعدي عليك بالمرة قبل ما أعدي أخده.

- رايح ألمانيا برضه؟

- اه يا سيدي وأمه قلباهالي مناحة وعملاها حرب.

- سيبك هما النسوان كده، مابيصدقوا يلاقوا حاجة يندبوا فيها.

- على رأيك، ربنا يتوب علينا منهم.

- ليه ياعم هما آه نكديين بس نكدهم حلو باللوز.

- ما أنا مستنيك تنقيلي واحدة من اللوز دول عشان اتجوزها.

- أوباااا، خلاص خدت القرار؟

- أيوه من زمان بس هي الظروف اللي حصلت دي منعتني ولخبطت الدنيا.

- ههها ههها ها، لا مفيش لخبطة ولا حاجة أنا أخرج بس وارجع الملاعب تاني وأظبطك.

لعبة يمارسها بمنتهى الذكورية، معرفة هذه وتلك، أي شيء مؤنث يندرج لديه تحت بند المباح، حتى مشاعر زوجته مباحة للكسر طالما يرضي غروره، لا ينكر خطأه فيما يفعل، فهو يفعله مع سبق الإصرار والتعمد، ولا يشعر بالذنب تجاه أحد، ورغم ما حدث معه لا يزال قادرًا على ممارسة اللعبة، ومساعدة غيره على

النزول إلى ملاعبها واحترافها، يشعر بشيء من النشوة حين تلتقي عيناه بعيني أنثى، يشعر بأن بعض فحولته قد عادت إليه، ويستطيع حينها ممارسة اللعبة بمنتهى الاحترافية.

تقطع نشوى حديثهما بطرقات خفيفة على الباب، تدلف صامتة، تلتقي محفوظ للمرة الأولى، فتضطر للابتسام في وجهه، يبادلها محفوظ الابتسامة مقدمًا نفسه:

- صباح الخير يا مدام، أنا محفوظ زميل عزوز في الشغل.

- صباح النور يا أستاذ محفوظ، متشكرين قوي لتعبك.

- ماتقوليش كده يا مدام، عزوز ده أخويا، ولو احتاجتم أي حاجة أنا تحت أمركم.

- متشكرة قوي.

- طيب أستاذن أنا بقى عشان ألحق مشاويري.

يقولها محفوظ موجهًا كلامه لعزوز، يمد يده ليسلم عليه، ثم يمدها لنشوى، التي تبادله السلام، وتوصله للباب، تخرج خلفه موجهة إياه إلى باب الخروج، يشكرها محفوظ، ويكرر عرض خدماته عليها، يمد يده بالمصافحة مرة أخرى، فتسأله نشوى في خبث:

- ما تعرفش إيه اللي حصل لعزوز يا أستاذ محفوظ عشان يجراله كده؟

- هو حضرتك ماتعرفيش إنه اتثبت واتسرق؟

- اتسرق!

***

صباحها دائمًا يأتي متأخرًا، لا يبدأ إلا بصوته حين يدغدغ قلبها قائلًا "صباح السكر يا سمسمتي" فتلوي ظهرها للخلف وهي ممددة في سريرها وتداعب شعرها بأطراف أناملها، وترد في غنج "صباح الورد يا روحي" روحها أصبح بعد أن كان عدوها اللدود، كانا دائمي الشجار معًا في الجامعة، وجهات النظر كانت دائمًا على خلاف، لم يتلاقيا أبدًا إلا حين تعلق الأمر بالزواج وتكوين الأسرة الذي تم مناقشته في صالون اجتماعي كانا يحضرانه بصفتهما ممثلين لجامعتهما باتحاد الطلبة، بنفس عمرها ويزيد عدة أشهر، يزيد عنها طولًا، جسده الرياضي العريض كان سببًا في محافظتها على رشاقتها، ذو شخصية قوية، وقلب ليّن، أحبها وذاب بتفاصيلها العنيدة، أحبته ولانت قليلًا، أصبحا زوجين مثاليين، متكاملين، وداعمين لبعضيهما، تنهي مكالمتها معه، بعد نداء الحاجة سليمة عليها، اليوم هو اليوم المنتظر، زفافهما قد حان يومه، قامت من سريرها، وعرجت على سرير علياء المجاور لها:

- يا علياااء! اصحي يا للا النهاردة الفرح.

تقولها بحماس زائد، تضحك ضحكات تملأ المنزل ضجيجًا حلوًا، تدب بقدميها فوق أرض المنزل فتنثر عبيرًا وزهورًا، تضفي روحًا صافية على كل من بالمنزل، توجهت للصالة حيث تجلس أمها جلستها المعتادة بجوار النافذة، تقابل سماح التي جاءت منذ الصباح الباكر لتساعد أمها فيما تفعل، تلقي عليها الصباح، فتبادلها إياه:

- صباح الهنا يا عروستنا الحلوة، ربنا يجعله يوم مليان خير وفرح عليكي.

- يا رب يا طنط، ادعيلي.

- بدعيلك يا بنتي ربنا يرزقك حلو اليوم ويبعد عنك مُرّه.

تقبّل يد أمها على غير عادة، تمص الأم شفتيها متعجبة للين أسماء المفاجئ، تملس فوق شعرها كعادتها، تقول في حنان بالغ:

- ربنا يجعله يوم حلو ويبعد عنّا أصحاب النفوس الوحشة.

- يا رب يا ماما.

- اتأخرتي في النوم ليه كده يا بنتي؟ الوقت هيجري ومش هتحسي بيه.

- ما تقلقيش يا ماما، كله تحت السيطرة، لسه بدري على ميعادي مع الميكب ارتست والدريسير، والفستان موجود وجاهز.

- إيه يا اختي الارتست والدريسير دول؟ ممثلين؟

- ممثلين إيه بس يا ماما؟ الميكب ارتيست دي اللي هتعملي الميكب والدريسير يعني الهير دريسير اللي هتعملي شعري.

تمص الحاجة سليمة شفتيها على ما قالته ابنتها، وتابعت في تهكم.

- يا اختي ما تقولي الكوافيرة وخلاص هو لازم بالفرنساوي.

- فرنساوي ايه بس يا ماما ده إنجليزي.

- إنجليزي ولا فرنساوي أهو كله كلام عوج مافهموش، المهم يالا خلصي حالك وانزلي، إيه اللي معطلك!

- بنتك، مش ناقص بس غير إنها تقوم تهز طولها وتفطر عشان تنزل معايا.

- ما تصحيها طيب.

- صحيتها بس انتي عرفاها بتاخدلها ساعة عقبال ما تفوق وتقوم تشوف حالها.

بقدم موجوع، تسير بخطوات بطيئة، تستند على الجدران والأثاث، تلملم شعرها، وتعدّل من هندامها وبصوت ناعس ترد بعصبية:

- هي مين دي اللي بتاخدلها ساعة عقبال ما تقوم يا اختي؟

- إيه ده؟ مش مصدقة نفسي، إنتي قمتي وجيتي لحد هنا وبسرعة كده؟ لا لا يا علياء يا اختي هو انتي عيانة ولا إيه؟ سلامتك يا روحي.

تقولها أسماء بسخرية وتقوم لتجس رأس أختها في محاولة منها لمعرفة إن كانت مريضة؟ تدفع علياء يدها بعيدًا عن وجهها، وتجلس بجوار أمها التي لم تتوقف عن الضحك منذ دخلت علياء عليهن، صراعاتهما الصغيرة وشقاوتهما تذكرها بأيام طفولتهما وشبابها الذي بدأ يندثر بين جدران هذا المنزل الدافئة، تتذكر كريم العائد للمنزل في الصباح، يجب أن توقظه الآن، هناك بعض الأغراض التي يجب عليه إحضارها، تطلب من علياء إيقاظه:

- خلي بنتك تصحيه، هي اللي بتعرف تتعامل معاه، إنما أنا مليش دعوة بيه.

- يا بنتي إنتي ولا هي أي واحدة فيكم تقوم تصحيه أوام، عشان الوقت مايتسرقش مننا.

- خلاص يا ماما أنا هقومله، مع إن المفروض أنا العروسة، ومش فاضية للكلام ده.

تقولها أسماء موجهة نظرها إلى علياء التي ترد موجهة كلامها إلى أمها:

- العروسة المشغولة دي بالليل في الزفة والفرح إنما إحنا لسه الصبح.

- بنت انتي وهي! أنا مش عاوزة نقار على الصبح، إحنا ورانا مليون حاجة،

خلونا نخلص، قومي يا أسماء صحي أخوكي، وانتي قومي شوفي حالك، وجهزي فستانك وحاجتك اللي هتاخديها معاكي انتي واختك، وأنا هقوم أشوف المطبخ مع سماح، عشان تلحق تروح تغير هدومها وتجيب بنتها ويجيوا الفرح.

- طيب.

تقولها الفتاتان متأففتان، تقوم علياء إلى غرفتها بينما تذهب أسماء لغرفة كريم، تدق الباب دقات موسيقية، يتخللها نداءات متوالية لكريم الذي كان يغط في نوم عميق، تكرر الطرقات والنداءات حتى يستيقظ كريم مفزوعًا:

- في إيه يا زفتة؟

- قوم يا كريم بقى النهاردة الفرح، ووانا حاجات كتير.

- طب وانا مالي هو أنا العروسة، هو مش الفرح بالليل برضه؟

- أيوه بس قوم ماما عاوزاك تجيب حاجات.

- حاجات إيه بس دلوقت أنا نايم الصبح.

- قوم يا كريم بقى والنبي، ما تبوظليش اليوم وحياتي عندك.

يقوم كسولًا، شعره المبعثر بعشوائية، الاحمرار بعينيه يجعلانه كمارد غاضب، يفتح الباب بعصبية:

- أقسم بالله ما حد هيموتني ناقص عمر إلا انتي.

- يا عم قوم بلا ناقص عمر، ده انت هتموتنا كلنا وتفضل عايش ببرودك ده.

- أنا بارد يا بت انتي؟

- اه بارد، وأمك عارفة.

تقولها ضاحكة، فيمسك كريم بشعرها ويجذبها إلى صدره في حنان مقبلًا رأسها قائلًا:

- هسيبك بس عشان انت عروسة النهاردة ومايصحش تروحي الفرح وراسك متكسرة.

- حبيبي يا كيمو، ياللا فوق بقى وكلم ماما، عشان تشوف عاوزاك تجيب إيه.

- أجيب إيه بس في الجو ده، أنا مابحبش أنزل في الشمس.

- معلش يا كيمو عشان خاطر سمسمة انزل النهاردة وبكرة ابقى نام تاني.

تقولها وترسل له قبلة في الهواء وتتركه متوجهة لغرفتها، تجد علياء جالسة على طرف سريرها ممسكة بالهاتف تجري محادثة مع عزيزها، ولم تجهز للنزول معها، تهز رأسها في تعجب مما تفعله علياء غير المبالية بما يحدث في المنزل، تقترب منها وتنزع الهاتف من يدها في حركة مباغتة قائلة:

- هو مش هنجهز وننزل بقى ولا إيه؟ مش وقت تليفون خالص يا علياء.

- يا ستي أنا فستاني جاهز، وكل حاجة في الشنطة، يادوب هلبس وننزل، الدور والباقي على العروسة اللي ماجهزتش أي حاجة لسه.

- ومين قال كده؟ أنا كمان حاجتي في الشنطة والفستان جاهز وكله تمام، شغل فنادق من الآخر.

- طيب يا ستي يالا نلبس، أكدتي الميعاد مع البيوتي سنتر عشان يبعتولك الناس؟

- اه كله متأكد والميكب ارتست متأكد عليها وكله زي الفل.

- طيب تمام، أنا هلبس ونفطر وننزل.

تقوم كل منهما لتغيير ملابسها، تقترب علياء من أسماء وتحتضنها، تتساقط الدموع من عينيها قائلة في حنان:

- مبروك يا سمسمة، ربنا يتمملك بخير.

- الله يبارك فيكِ لولو، عقبالك يا قلبي.

- والله الأوضة هتبقى رخمة وهي فاضية عليا كده.

- معلش يا لولو بقى سنة الحياة يا روحي.

- تتهني يا حبيبتي إن شاء الله.

تنهي الفتاتان ارتداء ملابسهما وتحملان حقيبتيهما وفساتينهما، تخرجان للصالة، فتزغرّد سماح للعروس، وتلاحقها الحاجة سليمة بصوت مبحوح، تطلب منهما الجلوس لتناول الإفطار، فترفض أسماء ولكن علياء تصر على تناول الطعام، يلحق بهم كريم ويتناول أربعتهم الإفطار وسط الضحكات والمباركات للعروس، ينهون الإفطار وتنزل الفتاتان إلى الفندق لتجهيز العروس بالغرفة المخصصة لها، بينما يجهز كريم لإحضار ما طلبته منه أمه.

لن يحضر كل تلك الأغراض بمفرده، لابد له من عون، فكريم باشا لا يصح أن يحمل حقائب وكراتين من السوبر ماركت، الوقت مازال مبكرًا بالنسبة لأصدقائه وسيجدهم نائمين، يتذكر مصطفى، شاب في خدمته وسيلبي له أي طلب، يخرج هاتفه ويقوم بالاتصال.

كان مصطفى يجلس على المقهى، يرتشف من كوب الشاي على مهل، وينفث سجائره بتوتر، ينظر لشاشة الهاتف كل خمس ثوانٍ، يريد أن تضيء تلك اللعينة برقم كريم، الرقم الذي سينقله من حياة البؤس إلى حياة أفضل يسير فيها مرغمًا ولكن لديه هدف.

يخدمه القدر ويرتسم رقم كريم واسمه على الشاشة، كراقصة باليه تؤدي رقصة بمنتهى الإتقان تهمس للأرض بأناملها، همس مصطفى لهاتفه "أخيراً يا بن الفقرية" يجيب المكالمة، ويغلق الخط قائلًا "أوامرك يا باشا، دقايق وأكون عندك" يضع الهاتف بجيب بنطاله ويخرج بضعة جنيهات من الجيب الآخر، يعطيها للقهوجي ويطير جريًا ناحية المكان الذي طلب منه كريم ملاقاته فيه.

طوى الشوارع بسرعة، يقفز بين الأرصفة، يعدو عند التقاطعات، يريد أن يصل قبل كريم، لا يصح أن ينتظره الباشا، صورة جيدة يجب أن تُرسم في عقل كريم عنه، حَرِكٌ، ذكيٌ، مطيعٌ، وسهل التعامل، سيكون حتمًا ذراعًا أيمنًا مناسبًا جدًا.

يعرج على كشك في طريقه يبتاع علبة سجائر من النوع الذي يدخنه كريم - كما لاحظ من موضع علبة السجائر بجواره على الطاولة - وقداحة جديدة، يجب أن يكون متأهبًا لأي طلب يمكن أن يطلبه منه، يصل لمكان ملاقاته مع كريم، يقف بانتظاره، سيارة حديثة تقترب منه، صوت فرامل قوي يصدر صريرًا على الأسفلت، نافذة السيارة تفتح على مهل، صوت كريم يصل لأذنه مناديًا:

- ياللا يا ابني مش هقف استنى كتير أنا.

ينتبه مصطفى لصوت كريم، ينحني تجاه النافذة وبصوت متوتر:

- كريم باشا! لا مؤاخذة يا باشا.

يقولها وهو يهم بفتح باب السيارة، يضع نفسه في المقعد المجاور لكريم ويغلق الباب، يتحرك كريم بالسيارة، يقود بسرعة جنونية وكأنه في مسابقة سرعة لا في شارع بوسط المدينة ذاهب لإحضار بعض الأغراض من السوبر ماركت لأمه!

يصلا لوجهتهما، يقفز مصطفى من السيارة، ويركض حولها، يفتح الباب المجاور لكريم الذي ينظر له نظرة إعجاب قائلًا:

- شكلك هتكمل معايا فترة.

- خدامك يا باشا! اللي تؤمر بيه شبيك لبيك مصطفى هينفذه.

- طب ياللا يا خويا هات عربية من الكبار عشان نجيب الحاجة للحاجة.

لم تكن تلك هي الشغلانة التي كان ينتظرها مصطفى من كريم، ولكنه مضطر لخوض التجربة، فكريم بالأصل غير معتاد على الاستيقاظ بهذا الوقت المبكر – كما

أخبره تهامي – كريم يشبه الخفاش، ينام نهارًا ويحوم ليلًا، فمن المحتمل أن يكون هناك ظرفٌ استثنائيٌ هو ما جعل كريم يقوم بتلك المهمة!

يتجولان بالسوبر ماركت الكبير، يتناولان الأغراض من على الأرفف، كما طلبت الحاجة سليمة وكما دون كريم بورقة صغيرة أمسكها بيده، اقتربا من إتمام المهمة، لاحظ مصطفى العديد من علب الشوكولاتة والعصير، تنحنح متسائلًا:

- هو لا مؤاخذة يا كريم باشا إيه كل الحلويات والعصير ده؟ هو انتم فاتحين محل حلويات؟ لا مؤاخذة يا باشا في السؤال والله بس الكميات كبيرة قوي على عيلة يعني.

يقهقه كريم من كلمات مصطفى الساذجة، فيرد والضحكة تملأ حروفه:

- لا يا خويا مش فاتحين محل ولا كشك، ده فرح أختي الصغيرة النهارده والحاجة طالبة الحاجات دي عشان تفرقها على الجيران في الشارع.

- ياريتني كنت جاركم يا باشا والله.

- ألا صحيح انت ساكن فين؟

- كنت عايش مع أمي، في إمبابة بس المخبرين ماسابونيش في حالي، زوغت منهم وقعدت عند المعلم تهامي، وحاليًا مليش مكان يتاويني.

- ليه هو تهامي مشاك؟

- لا يا باشا هو بس قالي أشوف مكان تاني أبات فيه عشان بيجيله ضيوف الفترة دي وما ينفعش أفضل هناك.

- طيب أنا هشوفلك حل للحوار ده بس تصحصح معايا كده وتفتح مخك.

- يا باشا ما انا رسيتك على الحوار، مصطفى شبيك لبيك.

- ماشي يا عم العفريت، زق العربية لحد الكاشير عشان نحاسب ونمشي.

يدفع العربة متذكرًا طفولته، كان معتادا على دفع إطار سيارة قديم يجري خلفه، دائمًا ما يفوز بالسباق بين أقرانه، حتى التحق بالمدرسة وامتنع عن تلك العادة، وأصبح يقود دراجة حقيقية أعطتها له الست نشوى كهدية عند نجاحه في الابتدائية كما أهدت ولدها محمود، كانت تلك الدراجة حلم يراوده لسنوات، يراها كلما مر على محل العجلاتي على ناصية الشارع المجاور لهم، يدور برأسه مع لفات العجلات متخيلًا أوراق الكوريشة الملونة التي يزين بها دراجته، أحمر وأزرق وأخضر وشريط رفيع من الأصفر ليضفي بهجة على الدائرة الملونة، يتحرك لليمين واليسار كثعبان يتلوى على الطريق لا أحد يستطيع اللحاق به، كانت الدراجة حلمًا تحقق، وربما تلك العربة ذات العجلات الشبيهة بدراجته هي أول خطوة في تحقيق حلمه الكبير، يصلان للكاشير ويصطفان خلف الواقفين بانتظار دورهم، الطابور طويل، يخرج كريم مبلغًا من جيبه ويعطيه لمصطفى ويطلب منه أن يقف ويدفع حساب الأغراض ويحضرها للسيارة نيابة عنه، وهو سينتظره هناك، يشعر مصطفى بثقة بالغة، لابد أن كريم وثق به ليعطيه هذا المبلغ ويتركه معه ليحاسب، لن تندم على تلك الثقة يا كريم سأكون طوع يدك أعدك بذلك، على أن تنتشلني من حياتي البائسة المهددة دائمًا.

***

يصلا لمنزل العائلة، يخرج مصطفى الأغراض من شنطة السيارة ويحملها عن كريم "اتفضل يا باشا وانا وراك" يقولها مصطفى بحماس، يصعد السلم خلف كريم، يتخيله سلم النجاح، وكل خطوة خلف كريم ستصل به إلى غايته المنشودة، يقفا أمام باب الشقة.

- ما تنطقش ولا كلمة لو الحاجة سألت انت مين أنا هاجاوبها.

- أوامرك يا باشا.

يقولها بهمس، يضغط كريم زر الجرس فتفتح سماح الباب، ينظر لها مصطفى مطولًا، أين رآها لا يعلم ولكنه حتمًا رأى تلكما العينين، تنظر له سماح متعجبة من نظراته لها، هي التي بمثل عمر أمه!

- أومال فين ماما يا سماح؟

- الحاجة جوه في المطبخ يا أستاذ كريم.

يدخل كريم وخلفه مصطفى يحمل الحقائب وينظر للأرض محاولًا اختلاس بضع نظرات لسماح وللمنزل:

- أنا مش عارف هي تاعبة نفسها في المطبخ ليه؟ مع إن الفرح في فندق خمس نجوم، بتعمل أكل لمين مش فاهم أنا!

- لله يا أستاذ كريم، بتعمله لله، هتوزعه على أهل الشارع والمحتاجين، دي تجارة مع ربنا، بتوزع خير عشان ربنا يجبرها بالخير.

- ماشي يا ستي، تعالى ورايا يا مصطفى.

يدخلان للمطبخ، يطلب كريم من مصطفى وضع الأغراض على طاولة كبيرة تتوسط المطبخ:

- حمد الله على السلامة يا حبيبي، جبت كل حاجة؟

- أيوه يا ماما.

- طيب يا حبيبي ماتحرمش منك.

تنتبه لوجود شاب غريب بمطبخها، تنظر له ثم تعاود حديثها:

- إنت مين يا ابني.

يصمت مصطفى كما وصاه كريم فيرد الأخير عنه:

- ده مصطفى يا ماما، شاب مجتهد أعرفه من فترة قريبة وبيحب يساعد يعني ويسترزق.

ينتهز مصطفى الفرصة فيتابع خلف كريم:

- أنا تحت أمرك يا حاجة لو محتاجة أي مساعدة النهاردة أو أي وقت يعني، وألف مبروك كده وربنا يتمم بخير.

- الأمر لله يا ابني، الله يبارك فيك، عقبالك انت وكريم واللي زيكم.

لم يغضب كريم من انتهاز مصطفى للفرصة؛ اعتبرها ذكاء منه، هو يعلم أن مصطفى يجده فرصة للنجاة من مستنقع الشارع، وذلك الحديث الصغير سيمكنه من توصيل ما يرغب له حتى لو احتاجه بالمنزل، إذن المصلحة متبادلة، ولا بأس بها.

- عزمته على الفرح يا ابني؟

تقولها سليمة موجهة كلامها لكريم، الذي يرد مبتسمًا:

- طبعًا يا ماما، تعالى ورايا يا مصطفى.

يتعجب مصطفى مما يفعله كريم معه، ألهذا الحد يثق به بحيث يدخله منزله ويعرفه بأمه! هو مجرد ديلر أو صبي للديلر المعلم تهامي، كان يوصل له مزاجه من الحشيش، أي هو ليس شخصًا مؤتمنًا فكيف يثق به! هل دعوات أمه استجيبت وهناك من يساعده لوجه الله! لا يعلم مصطفى حقيقة ما يحدث، ظن لبعض الوقت أنه مازال ملتحفًا السماء على المصطبة المجاورة لمقهى لاتيه، وأن كل ما يحدث معه ما هو إلا هذيان من دور حمى أصابه أثناء نومه.

جال كل ذلك بباله في الطرقة الواصلة لغرفة كريم، دخل خلفه، فتح كريم خزانة ملابسه وأخذ يقلب بين محتوياتها، أخرج قمصانًا طويلة الأكمام، وأخرى قصيرة قطنية، ثلاثة بناطيل من الجينز بدرجات مختلفة وبنطال من القماش الأسود، ألقى بها إلى مصطفى الواقف في تعجب، وغير مصدق لما يحدث معه حتى الآن، يتلقف مصطفى الملابس ويفتح فمه متسائلًا:

- أوديهم للمكوجي دول ولا إيه يا باشا؟

- انت هتستهبل ياد، دول ليك بس على الله ييجوا مقاسك، إنت أرفع مني وكتافك مش عريضة، بس ممكن تضيقهم لو واسعين شوية.

يتهلل مصطفى، فالملابس شبه جديدة وعلى الموضة، حتمًا طاقة القدر قد فتحت له، واستجاب الله له، يقطع كريم أفكاره قائلًا:

- مقاسك كام في الجزم؟

- 44 يا باشا.

- رزقك واسع ياد يا مصطفى، عندي شوية جزم على كوتشيات مش عاوزهم خدهم كلهم حلال عليك.

- أنا مش عارف أقولك إيه يا باشا والله، أنا مش مصدق اللي بيحصل ده.

يقترب منه كريم، لدرجة جعلت مصطفى يتراجع للخلف، فأمسكه كريم من كتفه قائلًا في أذنه:

- اللي يشتغل مع كريم لازم يبقى نضيف ولبسه نضيف.

- بس هو انت بتعمل معايا كده ليه يا باشا؟ عدم اللامؤاخذة يعني، أنا حتة عيل معفن يادوب شفته كام مرة وكان بيوصلك المصلحة.

- إنت عيل معفن اه، بس ذكي، وعندك طموح، وأنا عاوز عيل زيك كده، ومش هتفضل معفن، هتنضف بس تخليك ذكي على طول، يعني كلامك مع الحاجة عجبني، وكلمة مصلحة اللي قلتها دلوقت عجبتني، إنك محافظ على سري، ده يخليني أحتفظ بيك إلى أن تغدر، بس ساعتها مش هرحمك.

- غدر إيه بس يا باشا، أنا خدامك.

- ماشي ياخويا، خد حاجتك واتكل على الله، روح لأمك استحمى والبس قميص وبنطلون منهم وتكون عندي هنا الساعة 5 بالظبط.

- أوامرك يا باشا.

خرج مصطفى وهو يشعر بالبلاهة، مازال غير مستوعبًا ما يحدث، سار في طريقه لأقرب محطة، استقل حافلة توصله إلى بيت أمه كما أمره كريم، لم يبالي بالمخبر الذي ربما أرشد عنه، فهو الآن يلبس ملابس نظيفة ويحمل غيرها نظيف وجديد، هو نفسه أصبح شخصًا جديدًا، لا يحمل المخدرات، هو الآن يعمل مع الأستاذ كريم أو كريم باشا كما يحب أن يناديه، يعود إلى أمه حاملًا بعض النجاح الذي وعدها به، ويحمل ابتسامة رضا غابت عنه منذ عدة أشهر، بات فقط ما يؤرقه الآن أين سيقيم وإلى متى سيظل بعيدًا عن أمه!

***

يراوده حلمه عن نفسه، يستقي قوته من الكلمات، يبعثر أمنياته على قارعة الغرفة، يلملم منها مستقبلًا وحبًا وحرية، يفتح نافذته على مصراعيها، يستقبل الهواء بصدر رحب، متفائل جدًا، متأهب لعالمه الجديد الذي سينفتح على عالمه المغلق، يمنحه مساحة أكبر للرؤية، زاوية أوضح لتلقي الأمور وإدارتها، يمسك بهاتفه ويدور في غرفته كطفلة ليلة عيد تجرب فستانها ذا الكرانيش، فقد وصلت أخيرًا رسالة ريبيكا التي تخبره فيها بأنها أوشكت على الانتهاء من إرسال دعوته للزيارة لتسهل عليه أمر فيزا الدخول، تصطدم قدمه برجل السرير - آآه - يتألم، يقفز على قدم واحدة، يسقط أرضًا، يفرد رجليه وذراعيه كنجمة البحر، ينظر للسقف مبتسمًا، يقطع فرحته طرقات على الباب، فتدخل أمه، يعتدل في جلسته:

- مالك يا حمزة، كنت معدية من قدام الأوضة، سمعتك بتقول آه.

- أبدًا يا ماما، رجلي اتخبطت في السرير.

- سلامتك يا حبيبي.

تلاحظ علامات الفرح على وجهه، لمعة بعينيه لم ترها منذ فترة، وجهه مضيء، كل حواسه تشي بفرحة عارمة لا يخطئها قلب أم أبدًا، تجلس على طرف السرير:

- تعالى يا حمزة أقعد جنبي.

يقترب حمزة ويجلس بجوارها، تأخذ نفسًا عميقًا، تمهيدًا لسؤاله السؤال الذي تخشى إجابته، هي إلهام النجار تخشى من إجابة سؤال ستطرحه، الصعوبة هنا في السؤال وليست بالإجابة، كيف ستخرج السؤال من فمها بطريقة لا تجعله ينفر منها أو يخاف أو يكذب، كيف يتقبله ويجيب إجابة نموذجية لا تتسبب لها في جرح أو خدش بقلبها، تستجمع قوتها وتُخرج الكلمات على مهل:

- أنا سايباك بقالي كام يوم ومش عاوزة أسألك، كنت سايباك تيجي تقولي من نفسك، بس قلت أستغل فرصة إنك مبسوط واسألك، إيه الموضوع المهم اللي كنت عاوز بابا فيه وما قلتش عليه؟

- أنا كنت مستني نتغدا وأقولك.

- ليه، خايف عليا نفسي تتسد ولا إيه؟ هو للدرجة دي الموضوع ممكن يضايقني؟

- لأ طبعا مش قصدي كده، أنا بس قلت تكوني حضرتك ارتحتي شوية من الشغل.

- أنا مرتاحة يا حبيبي، ها إحكيلي.

- بصي يا ست الكل.

أخبر حمزة أمه بالإجابة التي لم تكن تنتظرها، كانت تتوقع أن تكون الإجابة، الموضوع يخص أبي فقد رأيته مع إحدى الفتيات، أو الموضوع يخص أبي لقد عثرت له على عروس مناسبة، لم تتوقع أن الإجابة ستكون خنجرًا من نوع آخر، سفر حمزة، وتركها هي وعائشة بمفردهما بعد أن هجرهم محفوظ، لن يكون هناك دفء رجل بالمنزل، ستبقى هي وعائشة والفراغ، صمتت ولم تجب حمزة بشيء، سألها عن رأيها، هزت رأسها نفيًا وتركت دموعها تنساب، وقامت لغرفتها، حاول

حمزة توقيفها، احتضانها، تقبيل يدها، ولكنها قابلت كل ذلك بالرفض دون كلمة واحدة.

أغلقت الباب، وجلست على أريكتها التي باتت تحتضنها، كواحة أمان في الفترة الأخيرة من عمرها، بكت كما لم تبك من قبل، تنوح كأم ثكلى، أخبرها حمزة أنه سيغيب فترة أجازة الصيف فقط، ولكن من داخلها قلب الأم أخبرها أنه لن يعود، فالحياة بعيدًا عن هذا المنزل أفضل بكثير، سيستنشق فيها نسيم حريته التي سلبها منهم محفوظ طوال سنوات قربهم، باتت تضرب وسادة صغيرة بقبضتها، وكأنها تضرب محفوظ، تسب وتلعن فيما يحدث، تلوم نفسها على أي شيء لا تعلم ولكنها فضلت أن تجلد نفسها حتى على أخطاء محفوظ، "الوحدة تزداد من حولك يا إلهام، والصمت في حياتك سيزداد، ستبقين أنت وعائشة لا حول لكما ولا قوة، سيظهر ضعفك الذي غالبتِ وحاربتِ لسنوات كي تخفيه خلف ذلك القناع الصلب، أصبحت صلابتك هشة، هشة جدًا يا إلهام".

كتمت صرخة قوية في وسادتها التي تحملّت كل ضجيجها دون كلل، الوسادة تمتص وهي تزداد صراخًا وبكاءً، بكت حتى هدأت وجفت دموعها فلم تجد أي قطرة تسقط، لم يتبق لها سوى بضع شهقات متقطعة، اكتملت بصوت رسالة على هاتفها جاءتها من العالم الأزرق، نظرت لترى المرسل، فابتسمت وكأنها قد وجدت القشة التي سترمم هشاشتها وتقويها.

***

أعلنت أنوثتها، ووضعت كل القيود في خزانة ملابسها، وارتدت فستان أسود عاري الأكتاف، طويل بفتحة جانبية تصل للفخذ، يظهر بريق جسدها ولدانته، تركت شعرها منسدلًا متموجًا يعبث في الهواء بعشوائية فاتنة، نظرت في المرآة فشعرت بقدر كبير من الثقة، الآن ستجبره على الوقوع في شباك حبها، لن يستطيع

صبراً لكل ذلك الجمال، ستراوده عن نفسه بأنوثتها وجمالها الذي لم يره أحد من قبل، غطت الكرزتين خاصتها بأحمر شفاه براق، وسحبت عينيها بخط أسود سميك زاد من اتساعهما، رشة اثنتان ثلاث من زجاجة العطر التي كانت تحتفظ بها في جهازها، وأعادتها لمكانها قبل أن تلحظ أمها التي كانت تحكم لف طرحتها على وجهها الذي لم يقل بهاءً عن وجه صغيرتها، مرتدية عباءة جديدة أهدتها لها الحاجة سليمة تبرق من الفصوص اللامعة بها، كانت محرجة من ارتدائها لكن عنان استطاعت إقناعها بها.

طرق خفيف على بابا عنان، دخلت سماح للغرفة، كانت صغيرتها مدهشة جميلة إلى الحد الذي جعلها تقف صامتة تتمتم بصلوات وأذكار لتحفظها، ثم نقح عليها العرق الصعيدي فعلا صوتها:

- إيه اللي عملاه في نفسك ده يا عنان؟

- إيه يا ماما! مش عاملة حاجة.

- مش عاملة إيه بس يا بنتي ده جسمك كله عريان، وإيه الأحمر الفاقع ده! يا بنتي مش إحنا اللي بنحط الحاجات دي ونبين لحمنا كده.

تمسك بفتحة فستانها محاولة تورية ما تظهره قائلة في غنج:

- فين لحمنا اللي باين ده بس يا موحة! الفستان طويل أهو وهحط شال كبير على كتافي يعني مفيش حاجة هتبان مني.

- يابنتي!

- بنتك هتبقى أحلى بنت في الفرح، والعرسان هيتحدفوا علينا زي الرز.

- ربنا يسترها عليكي يا بنتي، بس هنمشي ازاي في الشارع بس باللبس ده!

- ماتخافيش يا ماما أنا بطلب أوبر.

- مين أوبر ده يابت؟

- أوبر ده أبلكيشن كده بنطلب منه عربيات تيجي توصلنا زي التاكسي كده بس بييجي مكان ما انتي عاوزة مش انتي اللي بتروحيله.

- يا اختي عيشنا وشفنا، أوبر أوبر، وده بياخد كتير؟

- ماتخافيش يا ماما، الحاج سلامة مديني فلوس قالي أديهالك عشان نركب بيها الأوبر ومانتبهدلش.

- الهي يستره، والله الراجل ده مافيش منه اتنين.

- اه والله يا ماما.

- طب يالا يا بنتي اتصلي بالراجل أوبر ده ييجي عشان ما نتأخرش، عاوزة أبقى جنب الحاجة أحسن تحتاج حاجة.

- طلبته وجاي في السكة ماتقلقيش، بس إيه الحلاوة دي موحة يا عسل انت.

تقولها عنان مداعبة أمها في دهاء حتى تلهيها عن فتحة الفستان التي تكشف عن ساقها..

***

طاولات مستديرة لتقريب المسافات الروحية بين الجلوس، تتزين بشراشف من اللون الأسود والفضي، تتوسطها مزهرية كبيرة بها زهور البنفسج الحزين، تملأ القاعة الكبيرة بالفندق يتوزع عليها أقارب العروس والعريس، تتخذ الحاجة سليمة أكبرها، تلك الموجودة بالقرب من الكوشة إلى اليمين، بينما تتخذ والدة العريس وإخوته الطاولة المقابلة لها إلى اليسار، لم تنزل العروس من غرفتها بعد، يقف الحاج سلامة عند الباب لاستقبال المدعوين، ويقف إلى جواره مكرم وكريم، يتأنق كل منهما ببزة سوداء، تجلس الحاجة سليمة في زهاء، ممتنة للحاج سلامة

على تلبية رغبة أسماء في تلك القاعة الكبيرة، فرغم معارضتها لها في البداية لارتفاع سعرها، إلا أنها تراها الآن كقصر الأمير وابنتها ستكون الأميرة في تلك الليلة خاصة مع فستانها الفضي المتلألئ.

تصل سماح عند الباب تتبعها عنان، تتهادى بخطواتها الهادئة، تسمع صوت كعب حذائها يرن على الأرض أنوثة، ترى كريم يقف بجوار الحاج سلامة، فتزحزح شالها إلى الأسفل، فتبدو أكتافها البيضاء كقمة جبل شاهقة البياض لامعة تحت ضوء الشمس، تزغرد سماح عند المدخل، فتخجل عنان من فعلها:

- يا ماما! إيه اللي بتعمليه ده؟

- إيه يا بت في إيه، ده فرح لازم الزغاريد.

- شكلنا بلدي قوي كده.

- يا بنتي بلاش تكبر، وارفعي الشال اللي متزحلق ده، كتافك باينة.

تقولها سماح وتمد يدها لترفع لها الشال، تسير بخطوات سريعة ناحية الحاج سلامة فتتبعها عنان بخطوات أبطأ، تزحزح الشال مرة أخرى ولكن من ناحية واحدة هذه المرة خوفًا من أمها، تبارك سماح للحاج سلامة، وكريم، وتمد يدها لمكرم الذي لم تكن تعرفه - فلم يصادف أن زار الحاج بالمنزل أثناء وجودها - بينما باركت عنان لثلاثتهم، لاسيما كريم، الذي وقفت قليلًا أمامه متصنعة ابتسامة راقية؛ لتجذب بها قلبه.

- يالا ياعنان نروح نبارك للحاجة، بعد إذنك يا حاج.

تقولها سماح وهي تجذبها من يدها ضاغطة عليها، تسير عنان مضطرة، تنظر ناحية كريم، الذي لم يعرها كامل انتباهه، بينما كان هناك مصطفى الواقف بالقرب منها، يتطلع إليها بشغف، يعلم أنه قد رآها من قبل، هذا الوجه القمري ليس غريبًا عن قلبه، لقد سهر معه ليلة كاملة لم يفارق خياله فيها لا صحوًا ولا نومًا، ولكن

هناك الكثير من التغيير عليها، ربما ليست هي، إنها واحدة أخرى تشبهها، ولكن قلبه الذي كاد يقفز من صدره لن يتوه عن روحها، تلك الروح التي اختطفت جزءًا من روحه لن تتشابه مع روح أخرى، تلقي نظرة سريعة عليه، وتعود للنظر إلى كريم، تصل مع أمها لطاولة الحاجة سليمة، تحتضنها سليمة وتقبلها:

- بسم الله ما شاء الله، طلعتي قمر بجد يا بت يا عنان، هما قالولي حلوة بس ماكنتش متوقعة تكوني بالحلاوة دي، الله أكبر ربنا يحرسك.

تقولها سليمة الممسكة بيد عنان في حب، تبتهج عنان لكلام الحاجة الذي يعني لها الكثير، هي حلوة وتعلم ذلك ولكن أن تُثني على جمالها الحاجة سليمة بنفسها وتمسكها بهذه الطريقة الحميمة يعني أنها قد أحبتها وربما ستزوجها ابنها كما تسمع عما يحدث في الأفراح، حين تعجب أم شاب بفتاة تحتضنها وتثني على جمالها، تمامًا كما فعلت الحاجة سليمة.

تبارك سماح للجلوس على الطاولة، وتسحب عنان من يدها لتجلسا على طاولة مجاورة:

- بعد إذنك يا حاجة هنقعد على الترابيزة اللي جنبك دي لو عوزتي حاجة اندهيلي على طول.

- وليه الترابيزة التانية خليكم جنبي هنا.

- خليكم على راحتكم يا حاجة واحنا جنبك أهو مش بعيد.

- ما تخلينا نقعد هنا أحسن يا ماما.

تقولها عنان ناظرة للحاجة سليمة وكأنها قد أصبحت حماتها منذ اللحظة السابقة، تغطي كتفها بالشال، فقد وقعت الحاجة في الشرك ولا داعي لرؤية المزيد من جمالها، يجب أن تظهر محتشمة أمام حماتها، هكذا دلّها عقلها الصغير، ترفض سماح فهي تعلم أن الطاولة الرئيسية تكون لأسرة العروس وليس لخادمتهم.

تجلس على الطاولة المجاورة مع عنان، تتطلع إلى صغيرتها التي أصبحت امرأة ناضجة تشبه للقمر في ليلة تمامه، تذكرت أيام الشباب قبل أن يختار الله زوجها، كانت تتأنق وتضع مساحيق التجميل، كانت تبدو كامرأة من هؤلاء الأغنياء، لم تكن في حاجة إلى العمل بالمنازل، كانت مكتفية بعملها في الحكومة نهارًا، وتعود لتصبح ملكة في بيتها ليلًا.

صوت الكونشيرتو المقدس يملأ القاعة، فيقف الحضور في استقبال أميرة الحفل، تطل عليهم متعلقة بذراع والدها، يتلألأ فستانها الفضي تحت الأضواء، الدخان الملون يتخلل الحضور، يقف العريس مواجهًا للباب، يتسلمها من الحاج سلامة، يلتف حولهم الحضور، يتمايلون معًا على أغاني الزفة، دُقت المزاهر، ودُقت معها الأرض برقصات علياء مع كريم، شفيت قدمها الآن، لم تعد تعرج بها، تتمايل الحاجة سليمة بجسدها معهم، الفرحة تملأ قلب الجميع، تقف عنان وسط الجموع، تُسقط الشال عن كتفيها، تهتز مع الموسيقى، تتمايل معهم، سماح ترفع لها الشال، تسقطه مجددًا، تنظر لكريم، الذي يتزين وجهه بضحكة صافية، الاحمرار بعينه لم يكن واضحًا جدًا، تغمز له عنان، فيرد لها الغمزة بطرف عينه، يد مصطفى من الخلف ترفع الشال إلى كتفها، تظنها يد أمها، تجذب سليمة سماح للرقص معهم، تسقط عنان الشال مرة ثالثة، ترفعه يد مصطفى، تندهش عنان، لم تكن تدري من يرفع الشال غير أمها، تنظر خلفها، تجده مبتسمًا لها، تركز بملامحه:

- إنت!

الآن تتذكر وجهه، هذا الجسد الذي ضمها إليه في أول لقاء عابر، من أين ظهر لها الآن؟ ليس وقته تمامًا، لا يجب أن يراها كريم وهي تتحدث معه، تتركه وتدخل حلقة الرقص، تحاول الإفلات من عينيه، تحتجب خلف أمها يدور حول الدائرة،

تتحرك خلف كريم، يدور معها، لم تكن تعلم أنه لا مفر من نظرات محب مهما حاولت، ستراك ولو خلف ألف حجاب.

***

يجلس العروسان بالكوشة، وتجلس علياء بجوار أمها تستريح من الرقص، تنظر ناحية الباب، وكأنها في انتظار أحدهم، تلاحظ أمها النظرات فتتابعها، تنادي كريم، تسأل عن الحاج سلامة، يخبرها بأنه مع عمه مكرم بالخارج يحتسيان القهوة على رواق:

- وهو ده وقته يعني؟ سايب الناس كده!

- يا ماما ما انتي عارفة بابا ما بيحبش الدوشة والخبط والرزع، هو شوية ويشرب القهوة وهيدخل.

- طيب خليك انت عند الباب يا حبيبي عشان الناس اللي بتيجي تلاقي حد بيستقبلها.

- ما انا كنت واقف وانتي اللي ناديتيني.

- طيب روح، ولا استني أنا هاجي أقف معاك.

- تيجي فين بس يا ماما، خليكِي قاعدة، هو أنا مش عاجبك ولا إيه؟

- لا يا حبيبي ربنا يحرسك، روح وخد الواد اللي جاي معاك ده وخليه يروح يندهلي أبوك.

- ماشي يا ست الكل.

كان مصطفى متخذًا ركنًا بعيدًا يراقب منه عنان الجالسة بجوار أمها، مازالت تسقط الشال، ومازالت أمها ترفعه، يقف هو مشدوهًا بها مبتسمًا من حركاتها الطفولية رغم الأنوثة التي تحاول أن تظهرها، ينادي عليه كريم، لا يسمعه، يقترب

منه، ولكن مصطفى كان بعالمٍ آخر غير الذي يوجد فيه الجميع، لا يعرف حتى اسمها ولكنه يشعر الآن أنها تمتلك كل حواسه.

يقف كريم بجواره ليرى الشيء الذي يخطف كل حواسه بهذا الشكل، فيجد عنان تتوسط المشهد، يخبط على كتفه:

- انت ياعم الكابشتينو.

- أيوه يا باشا، خدامك.

- باشا إيه بقى ما انا بقالي ساعة بنده عليك.

- لا مؤاخذة يا باشا ما سمعتكش من الدوشة والله.

- الدوشة ولا المزة.

- مزة إيه بس يا باشا، إحنا آخرنا نبص ونحلم.

- طب روح للحاج قول له الحاجة عاوزاك ضروري.

- عيني يا باشا، بس هو هيسمع كلامي يعني؟

- روح وبطل غلبة يا مصطفى ما تخلينيش أزعل منك.

- طيارة.

يقف كريم مكان مصطفى، ينظر لعنان، فيجدها امرأة كاملة النضج، تنتظر من يقطفها ويتلذذ بطعمها، يهز رأسه ضاحكًا:

- طلعت بتفهم ياد يا مصطفى، البت دي كانت غايبة عني فين!

يتحرك بنظره إلى أمه، تشير له أن يذهب ناحية الباب لاستقبال المدعوين، يشير لها بالموافقة، ويذهب ليستقر بجوار الباب وعينه عند عنان.

***

في مقهى الفندق يحتلان طاولة بعيدة، يحتسيان فنجانين من القهوة، بعيدًا عن ثرثرة المدعوين وصداع الموسيقى الصاخبة، الضوء الخافت بالمقهى يساعدهما على التحلي بهدوء الأعصاب، مكرم يحاول السيطرة على انفعاله المستمر من تصرفات وفاء وضغطها المستمر عليه، نكد نكد هي كل ما تمنحه له تلك الفترة، رغم محاولاته العديدة في فرض الحب على تلك الحياة البائسة إلا أنها تدفعه وبقوة نحو الكره.

يشعر الحاج سلامة بما يمر به أخوه الأصغر، انطفاء اللمعة من عينيه، افتقاده للشغف، روح الفكاهة والمداعبة التي كان يتحلى بها، كل ذلك ولّى الأدبار من تلك الحياة الجافة التي يعيشها الآن، ينفث مكرم دخان سيجارته بعصبية وكأنه يحاول التخلص من الهموم المتعلقة في خيط الدخان بسرعة، يبتسم له الحاج سلامة قائلًا في هدوء:

- روق يا مكرم، مش كده يا اخويا.

- تعبت وزهقت والله يا حاج.

- أنا حاسس بيك صدقني، بس الحياة ما بتتاخدش قفش كده.

- جربت كل حاجة معاها لكن شيطان النكد راكبها ومش راضي يحل عنها، أو هي اللي ماسكة فيه مش عارف.

- اعذرها برضه يا مكرم موضوع الخلفة ده يجنن أي ست.

- بس أنا راضي باللي ربنا كاتبه وحاولت أفهمها ده بس هي شايفة دايمًا إني هاخونها وأتجوز عليها.

- هاودها وخدها على قد عقلها يا مكرم، الراجل لازم يحتوي الست بتاعته، هما مجانين وإحنا لازم نكون أعقل منهم.

- يا حاج دي مارضيتش تيجي الفرح عشان بتقولي الستات هتبقى لابسة ومتزوقة وأنا هابصلهم وهي دمها هيتحرق لما تشوف كده، تخيل الجنان وصل معاها لفين؟

- طب ما كانت تيجي تشوف بنفسها إنك هتقعد معايا كده بعيد عن الدوشة.

- بقت لا تطاق والله يا حاج، كل ده عشان طلبت 5000 جنيه تجيب فستان جديد وأنا قلتلها عندك فستان اتلبس مرة واحدة في فرح أختك ومحدش من عيلتي شافه، إزاي بقى أقول كده، وراحت متخيلة بقى حكاية الستات هتبقى لابسة وهابصلهم، مجنونة رسمي والله.

يضحك الحاج سلامة مما يسمعه، لم يكن يتخيل أن تصرفات وفاء بتلك البشاعة، فقد وصلت لمرحلة متأخرة من انعدام الثقة بالنفس، هو يعطيها بعض العذر ولكنه يعلم أن مكرم لن يتحمل أكثر من ذلك، يهدئ مكرم حتى يصل إليهما مصطفى ويخبره بما طلبه منه كريم، فيقوم كلاهما ويتركان نكد وفاء ليتراقص مع دخان سيجارة مكرم على الطاولة.

***

تبادله عنان النظرات، تعلم الآن أن الصيد قد وقع، وانكفأ كريم على وجهه في جمالها وأنوثتها، الخطة أوشكت على الاكتمال، لن يطول الأمر هي تعلم ذلك في قرارة نفسها، يدخل الحاج سلامة للقاعة مع مكرم وخلفهما مصطفى، تتأفف عند رؤية مصطفى مرة أخرى، سيقطع عنها الطريق إلى كريم، كانت تخطط للقيام للتحدث مع كريم بحجة أنها ذاهبة لدورة المياه، ولكن وجود ذلك الحالم سيجعله يفترض أنها قامت للحديث معه هو، يجب أن تجد طريقة للتخلص منه، ولكن هذا أمرٌ مستحيل، يلاحظ كريم ارتباكها وتأففها، ويرى نظرات الحب في عيني مصطفى، تشير بعينيها ناحية الخارج في حذر، لا تريد لأمها أن تلحظ شيئًا،

يفهم كريم نظراتها، ينادي لمصطفى الذي يقترب منه على الفور، يميل ناحية أذنه، يحدثه بشيء، فيخرج مصطفى من القاعة مسرعًا، يشير كريم بإبهامه إلى عنان، تفهم ما يود قوله، تمسك بطنها، تترك أمها جالسة وتقوم إلى دورة المياه الموجودة بالخارج.

الحديث معه حلوٌ، لذيذٌ كطعم أحمر شفاهها الذي تضعه، تقضم شفتيها خجلًا معظم الوقت، تتغنج عليه، ويمطرها بكلام لم تسمعه من قبل، لطالما حلمت به، خيالها لم يصل لتلك الدرجة من الحلاوة، كانت تحلم بوقفة وحديث لدقيقة حتى، وها هي تقف معه ليسمعها حلو الكلام لمدة تقترب من النصف ساعة، يدخل مصطفى من الباب الخارجي، تراه فترتبك مرة أخرى، يتزامن دخول مصطفى مع خروج سماح من القاعة لتبحث عنها، تقف بالمنتصف، ما بين ثلاثتهم، بين مشاعر متضاربة ومختلفة، ما بين حب وخوف وشوق، تتعرق رهبة من أمها، ترفع الشال وتغطي كتفها العاري، تشعر الآن أن جسدها كله عارٍ لا يسترها شيء، نظرات أمها لها أخبرتها بذلك "استري نفسك" شعرت بها توخزها في جميع أجزاء جسدها، تقترب سماح وفي عينيها قبس من غيظ، يقترب مصطفى ويحمل الكثير من الانكسار ولفافة بحجم البنصر من السوليفان، يمد يده بها لكريم، يأخذها منه ويعود للقاعة، تمسك سماح بذراع ابنتها، مؤنبة إياها على ما تفعل:

- بتعملي إيه عندك هنا كل ده؟

- أبدًا يا ماما والله ده أنا لسه خارجة من الحمام.

- نص ساعة في الحمام يا بنت محمود!

- يا ماما والله كان زحمة.

- وكنتِي واقفة مع كريم بتهببي إيه؟

- أبدًا كان بيسلم عليا، أصله ما كانش واخد باله مني، ومش عارف انا مين.

- يا بنتي إحنا مش زي الناس دي ومش قدهم.

- يا ماما والله ما حصل حاجة، ده يادوب وقف سألني وانتي جيتي.

- طب ياللا قدامي عشان هنمشي.

تجذبها باتجاه الباب الخارجي، تقف عنان قائلة:

- طيب مش هنسلم على طنط الحاجة قبل ما نمشي؟

- لا مش هنسلم يالا يا بنتي الله يسترك.

- عيب يا ماما ما يصحش لازم نسلم عليها وعلى الحاج.

تقولها عنان بهدوء وصوت خافت، تستعطف أمها كي تعود معها إلى الداخل، لتلقي نظرة وداع لكريم، ولحماتها المستقبلية كما تراها الآن.

- هنسلم ونمشي دوغري.

- ماشي.

تدخلان للقاعة، تسحب سماح عنان من يدها كما اعتادت طوال الليلة، تجذبها تارة وترفع لها الشال تارة، تصلان للطاولة، تخبر سماح سليمة أنهما سترحلان، ترفض سليمة فقد حان وقت البوفيه ولا يجب أن ترحلا قبل أن تتناولا العشاء، ترفض سماح وتصر سليمة، تصمت عنان ولكنها تحدث سليمة بعينيها ألا توافق على رحيلهما، يعلو صوت سليمة قائلة في حزم:

- عيب تكسري كلمتي يا سماح، اقعدي انتي وبنتك بلاش لعب عيال.

تتابع علياء ما يحدث في ضيق، لا يهمها إن بقيت سماح وابنتها أم رحلتا، كل ما يهمها أن تبتعدا عن مجال رؤيتها لمدخل القاعة حتى تتمكن من رؤية عزيزها الذي أخبرها بمجيئه لحفل الزفاف والتعرف على والديها، كانت تحاول الاتصال به منذ ساعات لكنه لم يجب مكالماتها، وفي النهاية أغلق هاتفه.

تتحرك عنان أمامها بجسدها الملفوف، تنظر لمنحنياتها المرسومة بدقة، بياضها الذي يشع من فتحة الفستان، تنظر لجسدها الممتلئ تشعر بالغيرة منها، تلك الفقيرة تمتلك ذلك الجسد بينما هي تشبه المقطورة كما يصفها البعض أثناء نزولها الشارع، تتأفف من إلحاح أمها لبقائهما، تهمس لها في ضيق:

- ماتسيبيهم يمشوا يا ماما انتي مالك ماسكة فيهم كده ليه؟

- يا بنتي عيب يمشوا قبل البوفيه، ما يصحش.

- انتِي حرة، بس خليهم يوسعوا كده مش شايفة حاجة منهم.

- وانتِي عاوزة تشوفي إيه عند الباب، ما الكوشة جنبك واللي بيرقصوا قدامك أهم.

- ها! لا أبدًا يا ماما، بس بطمن على بابا وكريم.

- ومن إمتى الحنية دي؟

- في إيه يا ماما بقى؟ أنا هاقوم أشوف أسماء يمكن عاوزة حاجة.

- طيب قومي يا اختي.

تهرب من نظرات أمها، وتذهب للوقوف بجوار أختها، حتى بدأ البوفيه، فتناست كل شيء عزيز، وتوجهت نحو العزيز الأكبر، الطعام.

***

تعود بكامل خيبتها، تطلق اللعنات على ما يحدث، اللعنة على القلب، الحب، التسامح، العائلة، اللعنة على الخائن، وعلى العين الزائغة، الدفء الأسري أصبح بالنسبة لها أسطورة من الماضي، أسطورة لن تعود، سامحت وتناست ولكنه هو، كان مصرًا على إهانة كرامتها بدم بارد، ولامبالاة قاسية، لدرجة أنه لم يلحظ الطعنة التي خلّفها كلامه بقلبها، كانت تملك بعض أمل في عودته إلى كامل رجولته، لكنه كان مصرًا على البقاء في بئر الذكورة الرعناء مستمتعًا بنزواته العابرة، تعود لتجلس بغرفتها، تترك منة الله ومحمود يتناولان العشاء، بينما هي تتناول حسرتها وتبتلعها بمرارة.

تتذكر الكثير، سيئ وأسوأ من ذلك، ولكن أن يصل به الأمر لأن يفقد سيارته وكل شيء لقاء نزوة مع فتيات صغيرة هذا ما لم تكن تتخيله، كانت تظن أنه ربما يتحرش لفظيًا أو بمجرد نظرات عابرة، لا أن يذهب بسيارته مع فتاتين إلى منطقة مهجورة لممارسة الحرام، كيف لم يتذكر ابنته وابنه قبل أن يتخذ مثل ذلك القرار الأرعن، ماذا لو طعنه أحدهم وقضى على حياته، هل كان سيفرح بالحرام وقتها؟

حريق دون نار يأكل رأسها، لا تعلم كيف توقف ذلك السيل من الأفكار السلبية، يجب أن تتخذ قرارًا حاسمًا بهذا الشأن، لقد فاض بها منه، طوال سنوات وهي تحاول تعديل سلوكه المعيب ولكنه كان يزداد اعوجاجًا، حين قررت تركه يفعل ما يشاء لم يشعر أنها تركته ليلف الحبل فوق عنقه، كانت تمنحه فرصة تلو الأخرى في محاولة منها لتعديله لكنه كان عودًا أعوجًا لن يستقيم أبدًا.

تطرق منة الله الباب، وتدلف إليها، تجلس بجوارها على السرير، تشعر بألمها ولا تعرف كيف تخبرها بذلك، هي بحاجة لمن يربت عليها، تقترب منها وتعانقها، ترتمي نشوى في حضن صغيرتها، تبكي بحرقة، تشهق وتصرخ، تتأوه من الألم، تضمها منة بشدة، تتبادل الأدوار معها، هي الآن الأم ونشوى الصغيرة، تهدهدها، تطيّب خاطرها، تخبرها أن كل شيء سيكون بخير، تصمت نشوى، وتترك حضن صغيرتها، تمسح دموعها وتأخذ نفسًا عميقًا، تنظر لصورة زفافها المعلقة على الحائط، وتقول بثبات وقوة:

- كل شيء لازم ينتهي، أنا مش هاسمح بده تاني.

- هو إيه يا ماما اللي مش هتسمحي بيه؟

- ماتشغليش بالك يا منة، قومي يا حبيبتي نامي انت تعبانة من الصبح.

- أنا عاوزة أنام جنبك النهاردة، ممكن تاخديني في حضنك؟

تبتسم نشوى لكلام منة الله، هي تعلم أنها لا تود تركها بمفردها في تلك الحالة، كبرتِ يا صغيرة وصرتِ تهتمين بأمك، تقولها في داخلها وتومئ برأسها موافقة على نوم منة الله معها هذه الليلة، تخرج منة الله لتغيير ملابسها بغرفتها وتعود مع طبق صغير بشطيرة جبن رومي بالفلفل الأخضر وكوب من اللبن لتكمل دور الأم الذي تبادلته مع نشوى.

***

يعود ليكمل سيمفونية النكد اليومية معها، كانت تجلس بانتظاره على الأريكة التي بات ينام عليها كل ليلة بعد عراكهما الشبه متواصل، تشاهد مسرحية كوميدية، صوت ضحكاتها يصل لخارج الباب، استطاع سماعه قبل أن يدخل المنزل، قال في نفسه ربما هدأت الآن ولن تستكمل المعركة، ربما خمدت نارها، وخارت قواها، تقدم ببطء ناحيتها، وألقى عليها المساء، لم ترد وازدادت ضحكاتها

علوًا، تركها وذهب لغرفة النوم، خلع ملابسه وأخذ حماما دافئا، وأغلق الباب من الداخل وغاص بمنتصف السرير، هو ليس بحاجة لمزيد من الصوت العالِي، يحتاج فقط للراحة والهدوء، وربما محادثة دافئة مع إحداهن، أغلق نور الغرفة، وخفّت إضاءة الهاتف، وفتح عالمه الأزرق، بات يجول بين صفحات الجميلات، علّه يعثر على من تؤنسه هذه الليلة، قفزت دائرة رسائل تالا على الشاشة، ابتهج ورسم ضحكة عريضة على وجهه وكأنه يراها أمامه، فتح الدائرة ورد المساء:

- إزيك؟

- أنا كويس وانتِي؟

- كويسة.

- كنتي فين؟

- عرفتِ منين إني كنت بره؟

- يعني، كنت أوف لاين من بدري.

- كنت في فرح بنت اخويا، عقبالك.

- ألف مبروك.

- الله يبارك فيكِ.

- طب وإيه مصحيك لدلوقت؟ أكيد الفرح مش هيقعد للوقت ده؟

- عقبال ما وصلنا العروسة ورجعت البيت، المشوار بعيد والنهارده الخميس الدنيا زحمة.

- حمد الله على السلامة.

- عارفة، أنا بقيت احس بالسعادة وأنا بكلمك.

- بجد؟

- اه بجد وجدًا كمان، الغريب إني عمري ما حسيت بكده.

- وده معناه إيه يا ترى؟

- مش عارف، ومش عاوز أعرف، المهم إني مبسوط.

- صح، المهم إنك مبسوط.

- طيب وانتِي؟

- أنا إيه؟

- إنتِي مش مبسوطة؟

- أنا مبسوطة جدًا، حاسة إني واحدة تانية خالص، بعمل حاجات عمري في حياتي ما عملتها، أو حتى فكرت إني أعملها.

- غريبة!

- هي إيه اللي غريبة؟

- أبدًا ما تشغليش بالك، مش إحنا مبسوطين؟

- اه.

- خلاص طظ في أي حاجة.

- ألف طظ كمان.

تخرج الضحكات من قلبها صافية لا يشوبها شيء، تشعر وكأنها امتلكت كل شيء، ويشعر هو وكأن العالم كله يضحك معه، نسي وفاء وصوتها العالي، نسي العراك والمشاكل والتعب، نسي كل شيء، هو الآن مع تالا وفقط، ظلا يتحدثان حتى مطلع الفجر، بينما جاءت وفاء تطرق الباب، وجدته مغلق من الداخل، تركها مكرم تطرق دون رد، تصنّع النوم كاتمًا ضحكاته وصوت الهاتف عنها، أمسكت بهاتفها وحاولت الاتصال به علّه يستيقظ على صوته، ولكنه كان قد وضعه على

وضع الطيران للمكالمات وترك الإنترنت فقط يعمل كي يتمكن من محادثة تالا دون إزعاج من وفاء، استسلمت وفاء للأمر وعانقت الوسادة على الأريكة بدلًا منه، وظل هو مع تالا حتى راح في نوم عميق مع أول ضوء للشمس.

***

أي جريمة ارتكبها في حق نفسه؟ أكان يجب أن يتّبع نزواته حتى وصل إلى ذلك الحد! أما كان يجب عليه التمهّل قليلًا، ربما حينها كان محافظًا على سيارته وماء وجهه أمام عائلته، نزل محفوظ من المستشفى حيث يُحجز عزوز محدثًا نفسه، حزين على ما وصل إليه حال صديقه، شاردًا فيما يمكن أن يحدث له، هو الآخر تخلى عن أسرته الصغيرة، تركهم محاولًا إرضاء نزواته، ولكن نزواته حلال، هو يريد الزواج لا يفعل الحرام مثل عزوز، ولكنه سيرتكب جريمة في حقهم لا محالة، صحيح أن إلهام لا تخضع له، وصحيح أنها تقوّي أبناءه عليه بمالها، ولكنها في النهاية أم تحاول إسعاد أطفالها، لا يجب أن تلاقي مثل هذا الجزاء، لقد تركها طوال سنوات تعاني مرارة الوحدة، قاسٍ جدًا قراره، ولكنه مضطر إليه، يود أن يعيش حياته مع امرأة أصغر سنًا، أقل قوة وبأسًا، امرأة تطيعه لا تكون ندًا له، هكذا يعطي لنفسه الحق في كسر امرأته التي ظلت على عهدها معه لسنوات طويلة، لم تكل فيها ولم تمل.

وصل إلى مكتبه، غيّر ملابسه وراح يقلب في قنوات التلفاز، يبحث عن شيء يخرجه من تلك الحالة، ولكنه لم يجد سوى المزيد من اليأس والحزن، أغلق التلفاز وراح يقلّب في هاتفه، الكثير من الصور المليئة بأحاديث نبوية، وآيات قرآنية، لم يجد على هاتفه صورة واحدة لحمزة أو عائشة، أو حتى إلهام، هل وصل الشقاق بينه وبينهم إلى هذا الحد، هل ابتعد عنهم أم هم من ابتعدوا عنه! يريد الحديث بشدة، يشعر بانهيار قادم، هواء بارد يحيط به ممتلئ برائحة الوحدة، خوف

بدأ يتسلل إلى قلبه، هناك شيء خاطئ، شيء سيئ، شيء لا يجب أن يحدث، أو شيء يجب حدوثه، تدور رأسه وتمتلئ بالأسئلة، يغالب التيار، ولكنه شديد جدًا، يمتلئ بالدوامات، يستسلم له، ويترك الهاتف، يلقي بجسده فوق أريكته الوثيرة، يغمض عينيه، يرى الكثير من الأحداث، يخبط رأسه بمسند الأريكة في محاولة لطرد الأفكار منها، ينخلها، يهزها، ولكن لا شيء يسقط سوى جفنيه، يستسلم للنوم، علّه يجد فيه راحة مما يحدث معه.

يستيقظ بعد دقائق على صوت هاتفه، إلهام تقتحم عليه خلوته حتى وهو بعيد، يجيب المكالمة بصوت ناعس وعيون مثقلة من الهم:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله، إزيك يا شيخ محفوظ؟

- الحمد لله فضل ونعمة، إزيك انت يا إلهام؟ وكيف حالك؟

- مالكش دعوة بحالي خليك في حالك انت، أنا مش بكلمك عشان حالي ولا حالك.

- أومال بتكلميني عشان إيه يا إلهام؟

- بكلمك عشان حال ولادنا يا محفوظ، يا ترى فاكرهم؟

- مالهم ولادنا يا إلهام؟ ماهم كويسين وبكلمهم كل يوم أطمن عليهم.

- وانت شايف إن حمزة كويس وبخير؟

- أيوه طبعًا بخير وزي الفل، حمزة راجل وأنا مربيه كويس.

- طيب يا محفوظ أنا مش موافقة إن ابني يسافر ويسيبني.

- هو مش هايهاجر يا إلهام، ده رايح يتفسح.

- وهو ماحبكش يتفسح غير في ألمانيا؟

- بلد صناعي وهايستفاد منها في مجال دراسته وشغله، والولد فاضله سنة ويتخرج ودي هتكون تجربة كويسة ليه.

- إنت مصدق اللي بتقوله؟ ولا هو عِند وخلاص.

- لأ مش عِند يا إلهام، أنا فعلًا اقتنعت بكلام الولد، هو عنده حق، السفرية دي هتفيده جدًا في حياته بعد كده.

- ومافكرتش في إنه ممكن ما يرجعش!

- لازم يرجع عشان هو مسافر بفيزا سياحة وعنده سنة في الكلية لسه.

- محفوظ! ما تعصبنيش إيه البرود اللي بتتكلم بيه ده! ابنك مسافر عشان يهرب من مشاكلنا وقرفنا، وممكن جدًا يسيب دراسته ومش بعيد يكون بيحب البنت اللي هتستضيفه دي ويتجوزها ويقعد هناك.

- وهي يعني هتسيب كل شباب ألمانيا وتتجوز ابنك؟ صلي على النبي كده يا إلهام وسيبي الواد يشوف مستقبله، ما تنغصيش عليه حياته، بكفاية أنا.

- هو أنا برضه اللي كنت منغصة عليك حياتك يا محفوظ!

- مش هنعيده ولا هنقلب في القديم يا إلهام، أنا وافقت على سفر الولد وخلاص، ولا انتي عاملة كل ده عشان مش هتعرفي تاخدي بنط عنده.

- بنط إيه وزفت إيه اللي بتتكلم عليه؟

- ما انتي متعودة تديله فلوس وتدلعيه عشان يحبك، ولما لقيتي المرة دي الدلع جاي من ناحيتي رافضاه.

- إنت بتقول كلام فارغ، الفلوس عملتلك مشكلة في دماغك.

- بقولك إيه يا إلهام، أنا تعبان وعاوز انام روحي الله لا يسيئك، وسيبيني في حالي، ابني هيسافر وده آخر كلام عندي.

يغلق الخط ويغلق معه آخر فرصة لالتئام الصدع بينهما، أمسى الصدع عميقًا الآن، الطريقة التي تحدثا بها تنم عن حقد وكره بائت، حقد ينمو منذ سنوات تحت جبل بركاني خامل، وحانت لحظة انفجاره، يشعر بانتصار يلازمه خوف عجيب، يتسلل من بين خطوط الزمن المنحوتة برفق على وجهه، يندهش كيف وصلا لتلك المرحلة دون أن يشعر، هل كانا بها منذ فترة ولكن وجودهما معًا تحت سقف واحد كان يعمل كحلقة وصل، وقد انقطعت الحلقة بخروجه من تحت ذلك السقف! كانت تمثل عبئًا بوجوده إلى جانبها، والآن أصبحت تمثل عبئًا أكبر بوجوده بعيدًا عنها، امرأة مزعجة ومتعبة جدًا أنت يا إلهام، يقولها ويلقي بالهاتف بعيدًا عن يده، يفتح التلفاز مرة أخرى، وجهه ناحية الشاشة ولكن عينيه وعقله في مكان آخر من الفراغ.

***

- اللي حصل ده غلط وما ينفعش يتكرر تاني.

- ما تخافيش هما مابيعملوش فرح كل يوم، ولا انا بحضر أفراح كل يوم.

تقولها عنان بكسرة بعد توبيخ أمها لها، طوال الطريق كان الصمت يخيم على كلتيهما، وما إن ولجتا إلى المنزل حتى انفجرت سماح في وجهها، وكأنها تلومها على كل سيئ قد حدث لها منذ ركلت بطنها وآلمتها أثناء ولادتها، تسللت بضع دمعات من عيني عنان تبكي حالها، فرصتها الوحيدة في حياة كريمة أهدرتها أمها، بانغلاقها وتفكيرها الضحل كما يوحي لها عقلها الصغير، لم تكن لتخسر شيئًا إن تركتها حتى تأخذ رقم الهاتف من كريم، لماذا خرجت في ذلك التوقيت، أي حظ عسر هذا! تتركها وتدخل غرفتها ترمي بفقر حظها على السرير، تبكي همًا ودمعًا وحسرةً، تتذكر كلام كريم المعسول، تبتسم وسط هذا اليم من الدموع، تشهق، وتمسح دموعها، الفرصة لم تفت، أي غباء هذا! حتمًا سيأتي كريم إلى متجر الحاج سلامة،

وحتمًا ستكون هناك فرصة في مقابلته وأخذ رقم الهاتف، تقوم لتغيير فستانها، تضعه برفق على الشماعة، تمشط شعرها الذهبي برفق وتجمعه ككعكة كبيرة في منتصف رأسها، تمسح وجهها بمنديل مبلل، وتخرج لأمها.

كانت سماح قد دخلت لغرفتها تبكي هي الأخرى، هي تعلم أن تلك ستكون فرصة ذهبية لابنتها إن أحبها كريم، ولكنها فرصة بعيدة جدًا، صعبة الحدوث إن لم تكن مستحيلة، الأقرب أنه سيريد مصاحبتها لجمالها وفقط، جمال أوروبي هادئ، لفتاة فقيرة مثلها هو مجرد لعنة وهبها الله لها، سيستغلها أصحاب المال، وفتاتها صغيرة، أمامها الكثير من المغريات، متطلعة إلى ما هو أفضل من حالهما الحالي، تود الحصول على فرصة كي تعبر الجسر إلى الناحية الأخرى من العالم، حيث الترف والحب.

يحق لابنتها الحصول على كل ذلك، ولكن هل سيمنحها كريم ولو بعضه، أم سيمنحها المزيد من الألم والحسرة! تخرجها طرقات عنان على الباب من أفكارها، تدخل إليها وتجلس جوارها صامتة، دقائق تمر ومازال الصمت يخيم عليهما، تقوم عنان لتقبل رأس أمها قائلة في ندم:

- حقك عليا يا موحة، ماكانش قصدي أضايقك.

تحتضنها سماح، تضمها بقوة إلى صدرها محاولة منحها بعض الأمان، وتعويضها عن احتياجاتها:

- أنا مش زعلانة منك يا ضنايا، أنا بس خايفة عليكِي، الدنيا ملهاش أمان، وكريم مستهتر ودلوعة امه الحاجة، أنا لو عارفة إنه مش هيلعب بيكِي كنت سِبتك، وانتِ على نياتك، وهاتمشي وراه، واللي وراه ده أخرته وحشة.

- ما تخافيش عليا يا ماما، أنا مش هاعمل حاجة وحشة أبدًا، وأوعدك مش هزعلك تاني.

- ربنا يكملك بعقلك يا بنتي.

يحيطان بعضيهما في عناق دافئ، تتسلل دمعة من عين سماح، وترتسم ابتسامة على ثغر عنان، مشاعرهما متضادة ولكن حبهما وخوفهما مترادف، يحملان نفس القدر من الخوف من الغد، ولكن كل واحدة تخاف من شيء مختلف.

***

تدور رأسه في الفراغ، يشعر وكأن جبلًا من حزن حط فوق رأسه، فأفقده اتزانه، طريقان متضادان، حب وعداء، لا يعلم أي طريق يسلك، كثرت الطرق في حياتك يا مصطفى، لماذا قابلتها، ولماذا تكون على معرفة بكريم دونًا عن كل رجال العالم، يقف في المنتصف بين حب انتهى قبل أن يبدأ، وبين حلم ربما انتهى قبل أن يتحقق، عقله يود المناورة وكسب الحرب، ولكن القلب يقف بالمرصاد، تلك مرته الأولى في النبض بتلك الطريقة، يود الانتصار ولو لمرة واحدة في حياته، ولكن انتصار القلب يعني هزيمة العقل وفقدان الحلم، غير أنه رأى مشاعرها تكسو وجهها تكتب فوق جبينها أحب كريم، مسكين أيها القلب؛ انهزمت حتى قبل أن تبدأ المعركة، يخبط رأسه في جانب سيارة الأجرة التي ركبها ليذهب لأمه، لا يريد سوى إلقاء نفسه في حضنها، هش جدًا هذه الليلة، رغم بدايتها السعيدة إلا أنها انتهت نهاية لم يكن يتوقعها، تتراءى له محطة البنزين التي يترك السيارة عندها، يترجل من السيارة، يكتم سيلًا من دموع يحاول الانفجار، يعدو ناحية البيت وكأنه يهرب من جيش من المخبرين ذوي الشوارب العريضة، لقد وصلت الدموع إلى الحافة يجب أن تسقط الآن أو يسقط هو.

كانت تجلس بجوار نافذتها الخشبية التي تفقد بضع وريقاتها العرضية، تمامًا كحياتها التي تفقد بعض وريقاتها الداعمة لها، تبحث عن نسمة هواء عابرة في هذا الوقت المتأخر من الليل، الشارع هادئ وشبه خالٍ من المارة، وحيدة صامتة،

تشعر بالوحشة، لا يؤنس تلك الوحشة سوى نباح كلب أو مواء قطة، صوت كروان يعلو، الملك لك لك يا صاحب الملك، تتنهد وتدعو الله، هناك شيء بداخلها يحدثها بأن مصطفى يعاني، قلب الأم لا يكذب أبدًا "سترك يا رب، الملك لك يا واحد يا أحد، لا توجع قلبي على ولدي يا رب" نباح الكلاب يعلو في الجوار، صوت خطوات مسرعة، يحتك بالأرض، تزداد نبضات قلبها ارتفاعًا، تنظر جهة الناصية البعيدة، تلمح شبه يقترب منها في الظلام..

- مصطفى!

فتحت له الباب، دخل وجلس بجوارها، كان وجهه شاحبًا، يكسوه الحزن، لم تره بهذه الهيئة من قبل، كان قد تركها منذ ساعات قليلة وهو يرتدي تلك الملابس الأنيقة التي أحضرها معه، حلق لحيته وتعطّر، كان يشبه هؤلاء الذين تراهم بالتلفاز، وسيم أنيق يرتدي ملابس غالية الثمن، ماذا حدث لك يا ولدي!

- ضميني يا اما عاوز ابكي.

- مالك يا ضنايا؟

- حاسس إني مكسور قوي يا اما.

- ما عاش اللي يكسرك يا حبيبي، حصل إيه بس؟ فهمني.

- مش قادر أتكلم دلوقت أنا تعبان، تعبان قوي وعاوز أرتاح في حضنك.

تضمه بحنان، تربت عليه، تهدهده كما كانت تفعل وهو رضيع، يعود الكروان للتسبيح، فتردد الملك لك لك يا صاحب الملك، تعلو شهقات مصطفى، ويعلو قلبها بالدعاء، يظل في بكائه حتى يغط في النوم، تظل على جلستها تداعب شعره بحنان حتى لحقت به في النوم.

***

تنتهي الليلة بحلوها ومرها، ولكن المرارة التي كانت تشعر بها كانت أقوى من حلاوة أي شيء، لم تعرف لمَ لم يحضر كما وعدها، أو ربما حضر ولم يعجبه ما رأى! كلاهما خيار سيئ بالنسبة لها، سيكون أهون عليها أن لم يستطع الحضور، ولكن إن أتى واكتشف كذبها فذلك لن يكون أمرًا جيدًا.

غيّرت ملابسها، وأمسكت بهاتفها، دخلت لعالمها الأزرق ومحبيها ومتابعيها، وضعت صورة عروس من الإنترنت وكتبت أخت العروس، انهالت عليها تعليقات المباركة، ورسائل العقبى لها، انتظرت تعليقه، ولكنه لم يظهر أبدًا، فتحت صندوق رسائله، كتبت له رسالة طويل، ثم محتها، كتبت ومحت، كتبت ومحت، لعشرات المرات تكتب وتمحو قبل أن تضغط زر الإرسال، حتى واتتها الشجاعة وأرسلت مساء الخير، انتظرت منه الرد ولكنه لم يكن على اتصال بالإنترنت من الأساس، علمت ذلك من الدائرة الصغيرة الفارغة التي كانت بجوار رسالتها، ذهبت بخيالها بعيدًا، رأت نفسها عروسا بفستانها المتلألئ وهو يسير بجوارها، تتساقط أوراق الورد فوق رأسيهما، والسعادة تتقافز من أعينهما، ثم أفاقت على الواقع المر، هي بمفردها الآن في غرفتها، تشعر بالوحدة، والألم بدأ يراود قدمها من جديد، ولكنها لن تستسلم لهذا الشعور، فهي ملكة ذلك العالم وهناك الكثيرون ممن يتوددون إليها، ستختار أحدهم لتنيله شرف محادثتها لهذه الليلة، تدخل إلى صندوق الرسائل، وتقلب يدها بين الأسماء والصور، تختار أوسمهم وأعلاهم مركزًا، وأنسبهم سنًا، توليفة مناسبة لزوج ربما أوقعته في شباكها بدلًا عن عزيزها عزيز الذي ربما هرب منها حين أتى العرس ورآها على حقيقتها دون فلتر للصور أو اختيار زاوية تنحيف لالتقاط الصورة من أعلى، وقعّت الاختيار، وفتحت الدائرة وبدأت حديثًا لا تعلم متى ستنهيه ولكنه يرضي مزاجها لهذه الليلة.

***

يوم فالثاني فالثالث، تمر الأيام دون جديد يحدث، يجلس في المنزل مع أمه يرفض الخروج، منتظرًا مكالمة كريم حتى تعيد له حلمه الذي شعر بضياعه منه، تعود أمه من السوق محملّة بالكثير، علامات الحيرة ترتسم على وجهها، يساعدها على وضع ما أحضرت أرضًا، يمسك بثمرة خيار يمسحها بكم قميصه ويقضمها، متابعًا فيلم في التلفاز، تخلع أمه عباءتها السوداء، متأففة من الحر ورطوبة الجو، تجلس بجوار النافذة، تحاول فتح الحديث معه:

- غريبة، يعني بقالك كام يوم قاعد معايا ومابتخرجش حتى لأول الشارع!

- زهقتي مني، يعني أمشي؟

- لا يا ضنايا ما زهقتش، بس عاوزة أعرف مالك، إيه اللي صايبك؟ ده انت حتى ما بتخرجش تجيب سجايرك.

- ماليش نفس أخرج ولا أشوف حد.

- هو انت سبت شغلك؟

- لأ ماسبتش حاجة، بس ما بقاش في مكان أبيت فيه، والمعلم لما بيحتاجني بيتصل بيا.

- طب والبيه اللي قلت هيشغلك معاه وهتفرج، ما بيكلمكش؟

- لأ، من يوم الفرح بتاع أخته ده وماكلمنيش.

- تلاقيه مشغول بس، وهيكلمك.

- يارب يا اما.

ينهيان الحديث بضحك متواصل على أحد مشاهد الفيلم، يقطع ضحكاتهما صوت طفل صغير ينادي على أم مصطفى يخبرها بأن الست نشوى تريدها أن تذهب إليها في المكتب على وجه السرعة.

تخرج أم مصطفى لنشوى بينما جلس هو يداعب خياله بوجه عنان التي لم يكن يعرف اسمها حتى ذلك الوقت، رن هاتفه برقم المعلم تهامي فأجاب المكالمة، وقام من مكانه ارتدى ملابسه وذهب يجري على أكل عيشه، ومازال حلمه يراوده عن عقله ولن يهدأ حتى يتحقق.

***

- تعالِي يا أم مصطفى.

- حمد الله على السلامة يا ست.

- الله يسلمك، أخبارك إيه ومصطفى عامل إيه؟

- كويسين يا ست نحمد ربنا، كنتِي فين قلقت عليكِي.

- جوزي كان تعبان شوية، وكنت معاه في المستشفى.

- ألف سلامة على الأستاذ ربنا يطمنك عليه.

- متشكرة يا أم مصطفى.

- أؤمريني يا ست.

- الأمر لله، أنا بس كنت عاوزاكي تنضفي المكتب عشان القفلة كام يوم دي مليته تراب.

- ساعة زمن ويبقى فلة.

- أنا هروح مشوار صغير كده، وانتِي اشتغلي براحتك.

- تروحي وترجعي بالسلامة يا ست الكل.

تخرج نشوى شاردة الذهن، تعلم أن القرار قاسيًا ولكنه شرٌ لابد منه، يجب أن تنهي تلك المهزلة مهما كانت عواقبها، سيكون الأمر مؤلمًا على الجميع، ولكن ألمًا قريبًا خير من راحة لن تأتي مهما حاولت في الوصول إليها، كانت تعتقد أن

صمتها سيجعل الأمور تبدو بخير، وسيهدأ عقلها، ولكن ما آلت إليه الأمور في الفترة الأخيرة يمنعها من الاستمرار في هذا الصمت، يجب أن تفجر البركان الكامن، لتتطهر نفسها من خبث المشاعر السلبية التي تملؤها.

***

يصعد السلم نحو سطح البناية التي يتخذها المعلم تهامي سكنًا ومخزنًا له، كان يتمنى ألا يصعد هذا السلم مرة أخرى، ولكن ما يتمناه لم يتحقق أبدًا، فلمَ سيتحقق هذه المرة!

يجلس المعلم تهامي ممسكًا بالشيشة كعادته، لم يتغير شيءٌ في هيئته، لم يمر على بقاء مصطفى في منزله أكثر من أسبوع ولكنه شعر بأن دهرًا قد مر عليه، فلم يعتد جلسة المنزل أبدًا، نفث المعلم تهامي دخانه الأزرق وضحك نصف ضحكة قائلًا:

- حمد الله على السلامة يا ننوس، كنت غطسان فين؟

- كنت قاعد مع أمي في البيت عشان لا مؤاخذة كانت تعبانة شوية.

- لأ سلامتها الست الوالدة.

- الله يسلمك يا معلم.

- طب يا خويا في شغل هتروح تسلمه.

- أوامرك يا معلم.

- غريبة يعني ما سألتش على كريم باشا زي عادتك!

- عادي يعني يا معلم.

يضحك المعلم تهامي ضحكة ساخرة ثم يتابع حديثه متهكمًا:

- سيبتوا بعض ولا إيه؟

- إيه اللي بتقوله ده بس يا معلم! الأستاذ كريم من أحسن الناس وأنا كنت بحب أوصل له المصلحة عشان بيديني بقشيش حلو.

- ماشي يا خويا، عمومًا هو طالب مصلحة وطالبك توصلهاله بالإسم.

تبتهج ملامح مصطفى مما سمعه، فيرد في لهفة:

- بجد يا معلم؟

- اه بجد يا خويا، ياما نفسي أعرف في بينكم إيه! بس معلش كله هايبان.

- مفيش غير كل خير والله يا معلم.

- ماشي يا ننوس، خد بضاعتك واتكل على الله.

- أوامرك يا معلم.

يوزّع بضاعته، ويرجئ طلب كريم للنهاية، يعاوده الحلم، وتعاوده الرغبة في تحقيقه، لا يصدق ما قاله المعلم تهامي، لقد طلبه كريم بالإسم، إذن هو ليس غاضبا منه، ولم ينتبه لنظراته للفتاة التي خطفت قلبه، لم يشعر بالمنافسة معه، أي منافسة ستوجد بين باشا مثل كريم وصعلوك مثله! يذكّر نفسه مبتسمًا بسخرية، أي شيء يهون صعلوك صعلوك المهم أن يتحقق الحلم ويتخذ الطريق النظيف.

وصل للمقهى حيث يجلس كريم دائمًا، دلف للداخل باحثًا عنه فلم يجده، سأل عنه فأخبره النادل أنه لم يحضر منذ أسبوع، تعجب مصطفى وأخرج هاتفه، وطلب كريم:

- كريم باشا!

- إزيك يا كابشتينو.

- بخير يا باشا.

- انت فين كده ياد؟

- أنا رحت لحضرتك الكافيه بس قالولي إن حضرتك مش بتروح من أسبوع.

- اه ما أنا بقالي فترة قاطع كده.

- طب أجيب المصلحة لحضرتك في البيت عند الحاجة يا باشا؟

- لأ بيت إيه، الله يخرب بيتك.

- أومال أجيلك فين بس يا باشا.

أخبر كريم مصطفى بعنوان شقة في منطقة قريبة، عبر مصطفى الكوبري متجهًا إلى الناحية الأخرى من النيل، حيث يوجد كريم.

شقة صغيرة في حي راقٍ، أجرها كريم للاستمتاع بأوقاته بعيدًا عن ضوضاء المقهى ووسط المدينة، تطل على شارع هادئ، يصل مصطفى إلى العنوان، يستقل المصعد للدور الأخير، ويصعد إلى سطح البناية حيث أجر كريم الشقة مع الباقي من السطح، المكان مرتب بعناية، الأرض مفروشة بنجيل صناعي، وهناك أرجوحة في أحد الأركان، جلسة عربية تحت برجولة خشبية، تحتل جزءًا كبيرًا من المكان، على الجانب الآخر يوجد مدخل الشقة، طرق مصطفى الباب الذي كان مفتوحًا، ودلف للشقة:

- تعالى يا مصطفى.

يقولها كريم الجالس على أريكة وثيرة وعلى الأرض تجلس فتاة وشابان، يدخنون الشيشة، يقترب مصطفى في احترام زائد، يمد يده لكريم بورقة السوليفان:

- اتفضل يا باشا.

يمرر كريم السوليفانة أمام أنفه ويستنشق رائحتها مستمتعًا بها، يُلقي بها إلى أحد الجالسين أرضًا، يفكها ويخرج ما بها ويبدأ بتسييحه وفركه للف بضعة سجائر محشوة، يظل مصطفى بمكانه منتظرًا أمرًا جديدًا من كريم الذي ينشغل بهاتفه،

فيبدأ مصطفى الحديث محاولًا البحث عن كلمات تساعده في تحقيق حلمه، ولكنه لم يجد سوى:

- أي خدمة تاني يا باشا.

- اه ادخل المطبخ اعملي كوباية كابشتينو يا كابشتينو.

- عيني يا باشا.

يلتقط مصطفى أنفاسه، كان يخشى أن يطلب كريم منه المغادرة، ولكن بطلبه هذا قد منحه فرصة جديدة للبقاء معه، وفرصة حقيقية للوقوف على طريق حلمه، يحضّر كوب الكابتشينو، كما تعلّمه من أمه، يقلّب مطحون القهوة سريعة الذوبان جيدًا مع السكر وملعقة حليب واحدة، حتى يحصل على قوام كريمي فاتح اللون مائل للبياض، يصب فوقه اللبن الساخن ويرش القليل من بودرة الشوكولاتة على الوجه، يقدّم الكوب لكريم الذي يستنشق رائحته متذوقًا إياه قائلًا:

- هو مش كابتشينو بس حلو، أنا حبيته.

- متعلمه من أمي، وأي حاجة بتعملها أمي بتبقى حلوة يا باشا.

- لا، تسلم إيدها وإيدك ياد.

- تسلم يا باشا، تؤمرني بحاجة تاني؟

- انت وراك شغل تاني بره؟

- لأ يا باشا، ولو ورايا يتأجل لأجل عيونك.

- طب شوفلك حتة اقعد فيها وانا لما أعوزك هاندهلك.

- خدامك يا باشا.

يخرج مصطفى للجلوس تحت البرجولة الخشبية في الهواء الطلق، السعادة تملؤه، يشعر بجناحين قد نميا له، سيحلّق الآن نحو مستقبله، وسيتخذ الطريق

الجديد الذي سيصل به إلى عتبات حلمه، يعلم جيدًا أن صنع كوب كابتشينو أو قهوة أو شايًا لكريم ليس هو الحلم المنشود، ولكنه قد يساهم في تحقيق ذلك الحلم، يشعل سيجارة ويجلس أرضًا، يستند بظهره على عمود البرجولة الخشبي، يفرد قدميه ويضع إحداهما فوق الأخرى، ينظر للشمس التي تبدأ في الغروب متوارية خلف مبنى قريب، يداعب قلبه شعاعها الذهبي الذي يشبه شعرها، يتذكر ابتسامتها والشال الذي كان يترك كتفها وينزلق عنه، يتذكر لمسته لكتفها في إحدى محاولاته لرفع الشال عنها، يتذكر أول لقاء لهما والعناق الذي لم يستمر لثوانٍ، يبتسم متنهدًا بعمق، ثم يتذكر نظراتها المتبادلة مع كريم، يرجع رأسه للخلف، ويغمض عينيه، لا يريد أن يرى ذلك الخيال السيئ في شعاع الشمس الذي يحبه، يشعر بالمرارة تقترب من حلقه، مجرد تذكر تلك النظرات يصيبه بالخوف، ينفث سيجارته على مهل، يخرج هاتفه ويتصل بأمه ليطمئنها على حاله، ويخبرها أن الله لم يخذلهما وأنه عاد لعمله مع الرجل الكريم، أغلق الهاتف وعلى وجهه ابتسامة رضا لم يشهدها منذ أيام.

زحف الليل بعتمته وألقى النسمات الهادئة على المدينة، خاصة في تلك البقعة الراقية منها، يخرج الشابان والفتاة، صوت كريم يصل لأذنه مناديا عليه، يهب واقفًا ويدخل إليه:

- بص بقى، أنا سبق وقلتلك إني عاجبني فيك دماغك فمن هنا ورايح أنت المسئول عن المكان ده.

- أنا يا باشا!

- اه إنت، أنا مش باجي هنا قبل العصر، والشقة دي أنا مأجرها لمزاجي، عاوز آجي ألاقيها زي الفل وكل حاجة جاهزة للمزاج، فاهمني طبعًا.

- فاهمك يا باشا.

- من الصبح لحد العصر انت حر اعمل اللي تحبه، وزع لتهامي اشتغل مع العفريت ماليش فيه، ده رزقك، أنا ليا آجي هنا الاقي كل حاجة متظبطة وتمام، ولما أكون موجود إنت صم بكم عمي.

- مفهوم يا باشا، بس أنا هادخل ازاي وحضرتك مش هنا لا مؤاخذة.

- فاتتني دي، بسيطة هاعملك نسخة من المفتاح، بس قبل ما تيجي هنا لازم تتصل عليا.

- أوامرك يا باشا.

- يالا روح هاتلي كوباية كبيرة وتلج.

يجري مصطفى ناحية المطبخ، غير مصدقٌ ما يحدث معه، سعادة غامرة تغرقه في بحور الأحلام، اليأس أصبح كلمة غير متواجدة في قاموسه، يحضر كوبًا كبيرًا وبعض مكعبات الثلج، يتوقف لبرهة، ويسأل نفسه السؤال المنطقي، كيف يثق فيه كريم إلى هذا الحد؟ ولماذا يفعل معه كل هذا؟ هل يريد منه شيئًا سيئًا! هل يجب عليه أن يأخذ كلام المعلم تهامي على محمل الجد!

- يا نهار إسود لا يطلع منهم!

يقولها لنفسه متذكرًا شخصية حاتم رشيد في عمارة يعقوبيان، يطلق العديد من الألفاظ النابية، ويشعر بكسرة تقتحم قلبه، يخرج للصالة بحال غير الذي تركها فيه، يضع الكوب والثلج أمام كريم ويبتعد، يلاحظ كريم التغير على وجه مصطفى الذي بدا له كمن التقى بشبح في الطرقة المؤدية للمطبخ:

- مالك ياد وشك متغير كده ليه؟

- أبدًا يا باشا مفيش حاجة.

- انت هتعملي زي البنات وتقولي مفيش.

- بنات إيه يا باشا أستغفر الله العظيم.

- يا ابني هو انا بقولك حاجة حرام، إنت مجنون ولا إيه؟

- لا يا باشا، أنا بس افتكرت حاجة ضايقتني.

- طب ياخويا، روح ولعلي فحم عشان أشربلي حجر عكرت مزاجي.

- أوامرك يا باشا.

***

بضعة أسابيع مرت، وأخذت معها الكثير وجاءت بالأكثر، اليوم سيبتعد عنها صغيرها الذي اكتشفت فجأة أنه أصبح رجلًا، كان العمل لاهيًا لها عمّا يحدث في المنزل، كانت تعتبر النقود هي السلاح القوي الذي يتحكم في كل شيء، لم تعرف شيئا يدعى الدفء الأسري، وأن الجلوس مع صغارها والحديث معهم، والسماع منهم هو أقوى سلاح يمكنها أن تدافع به عنهم، مشاكلهم التافهة من وجهة نظرها كانت عظيمة بالنسبة لهم، لم يكونوا ممتنين لها ولنقودها، ولم تكن ممتنة لنفسها حين قرر ابنها السفر والابتعاد، هو فقط يرد ما زرعتْه فيه، المصلحة والمال أولًا، أما الأسرة فتأتي في آخر سلسلة الاهتمامات.

تستيقظ باكرًا، فالمصيبة اليوم مزدوجة، سفر حمزة، وعليه مستقبل الكثير في هذا المنزل، ونتيجة الثانوية العامة، وعليها تحديد مستقبل عائشة، تواجه كل ذلك بمفردها، تعاني الفراق والتوتر والضغط العصبي، بينما محفوظ الذي من المفترض أن يتقاسم معها كل تلك الأشياء لا يتقاسم معها سوى اسمه الذي يذيل أسماء أطفالها، تحضر طعام الإفطار وتجمّع أبناءها على الطاولة، يجب أن تنقذ ما يمكن إنقاذه، ستحاول أن تغرس فيهما بعض دفء العائلة، حتى يشتاق لهم حمزة ويعود، تنادي عليهما فيخرج حمزة مرتديًا ملابسه متأهبًا للسفر، بينما تخرج عائشة بملابس النوم:

- صباح الخير يا ولاد.

- صباح النور يا ماما.

يرد كلاهما، يجلسان على الطاولة كل منهما في جانب، بينما تتوسط إلهام الطرف المشترك بينهما، كفتي ميزان تراهما، ليس لأحدهما ثقل، ترى الغربة والوحدة في عيونهما، هشاشة تحتل قلوبهما ولكن كل منهما يحاول أن يواريها خلف قناع قوي غير مبالٍ، تحاول إظهار اللامبالاة نحو سفر حمزة، هي الأخرى ترتدي قناعا لا يقل قوة عن قناعيهما، تتوجه بالحديث إلى عائشة التي تتناول الطعام في هدوء:

- النتيجة لسه ماظهرتش على النت يا يوشة؟

- بيقولوا هتظهر كمان ساعتين.

- إن شاء الله هتجيبي مجموع كبير وتدخلي هندسة زي حمزة.

تهز عائشة رأسها وفي داخلها رفض تام لكلية الهندسة، فلن تتركهم يتحكموا في مستقبلها أكثر من ذلك، هي لا تحب الميكانيكا والإستاتيكا والديناميكا، لا تحب الرياضيات والفيزياء والكيمياء، هي تحب الأضواء والكاميرا والاعلانات، تحب الإعلام، ستكون إعلامية ناجحة تخطف الأضواء.

يلاحظ حمزة أن إلهام لم تتناول شيئًا من الطعام، يضع لقمة خبز من يده وينظر إليها، كانت شاردة يهتز جفناها بسرعة، وكأنها تقاوم كابوسًا مزعجًا، يبتسم إليها:

- مالك يا ماما، مابتاكليش ليه؟

- أبدًا يا حبيبي ماليش نفس.

- أنا عارف إنك زعلانة عشان أنا مسافر، بس صدقيني يا ماما أنا مش هكون مبسوط إلا لما تكوني راضية عني وعن السفر ده.

- أنا راضية عنك يا حمزة بس مش راضية عن السفر.

- ده مستقبلي يا ماما، ودول كام شهر بتوع الأجازة بس، ما تقلقيش ياست الكل، وبعدين ما انا هاكلمك كل يوم.

- انت هاتكلمني طول اليوم، كل شوية عشان أطمن عليك.

- حاضر يا ست الكل، بس ارضي عني وحياة أغلى حاجة عندك.

تربت إلهام على رأس حمزة وتمسح على شعره، تعود لغرفتها محملة بسؤال هام لم تسأله لنفسها من قبل، ما هو أغلى شيء لديها، لم تعرف حتى لحظتها تلك ما هو أغلى شيء لديها، حمزة يحلّفها بأغلى شيء، إذن هو يعلم أنه ليس أغلى شيء، "ما هو أغلى شيء عندك يا إلهام؟ حمزة، عائشة، محفوظ، المال، الواجهة الاجتماعية، المركز الوظيفي، الدفء الأسري، أم مصلحتك الشخصية ونجاحك!"، تتوقف كثيرًا أمام السؤال الذي لا تملك له إجابة، هي حقًا لا تعلم ما هو أغلى شيء لديها، ربما لا يوجد لديها غالٍ ولا عزيز بعد أن عانت تلك الفترة من الوحدة والخذلان، فحين تحصل على خذلان متتالي لا تحمل بداخلك مشاعر خاصة لأي شيء أو أي أحد، تدرك أن لا شيء يستحق، ولا أحد يُقدّر، تفعل أو لا تفعل لا شيء سيتغير بالنسبة لك، التأثير فقط سيكون على مصلحة الغير، أما مصلحتك فلا يهتم بها أحد، فمن الأفضل إذن أن تهتم بمصلحتك وما يخدمها، وليذهب أي شيء آخر إلى الجحيم، تختم حديثها مع نفسها بنصف ابتسامة ساخرة قائلة بصوت عالٍ:

- إنتِي عمرك ما أخدتي بالك من اللي حواليكي يا إلهام فماتستنيش حد ياخد باله منك، وعمرك ما كان عندك غالي، فماتستنيش تكوني غالية عند حد.

تختم جملتها لنفسها، وقد رسخ بداخلها مبدأ الأنا أكثر من أي وقت، وتيقنت أن حمزة لن يتراجع عن قرار سفره نهائيًا، وأنها ستعاني من تلك الوحدة حتى النهاية، إن لم تقم بما يسعدها هي وفقط.

***

يودّع حمزة قسوة والده ولامبالاة أمه بقبلة على يد كل منهما، يقبل اليد التي أشبعته صفعًا في صغره تأنيبًا على أتفه الأسباب، واليد الأخرى التي طالما أعطته نقودًا، سيتركهما الآن باحثًا عن مستقبل أفضل وأهدأ، لا يشعر بالخوف عليهما، هو فقط يشعر بالخوف على عائشة التي أصبحت صامتة منذ فترة بشكل بدأ يثير دهشته، كان معتادا على صمتها ولكنها كانت رغم ذلك تأتي لتفرغ ما بداخلها معه، بينما في الفترة الأخيرة أصبح الصمت عنوانها الدائم وأنا بخير هي كلمتها المعتادة، مجموعها بالثانوية العامة الذي علمه قبل سفره لم يكن هو المتوقع منها، يدرك أن ما حدث بمنزلهم مثّل صدعًا كبيرًا في نفس كل منهم، ولكن عائشة لم تكن أبدًا مبالية بما يحدث في المنزل، لم يجد فرصة تجعله يتحدث معها قبل سفره، حتى أنها لم تأتِ معهم لتودعه في المطار فقط اكتفت بتوديعه في المنزل متعللة بتعب مفاجئ أصاب معدتها!

عبر بوابة حريته، وسار نحو جناحيه بخطىً واثقة، لوّح لوالديه الواقفين بثبات، سار حتى اختفى عن ناظريهما، نظرت إلهام لزوجها نظرة حقد، بادلها إياها محفوظ، ثم افترقا وذهب كل منهما في طريقه، غادر محفوظ بسيارته، بينما جلست إلهام في سيارتها تستجمع بعض قوتها، لا يجب أن تعود للمنزل وهي في هذه الحالة، يتعارك داخلها بين قوة وضعف، التزام ورعونة، ستستسلم هذه المرة لرعونتها التي طالما حاربتها، تمسك هاتفها بلهفة، يقطع لهفتها اسم عائشة الذي يتوسط الشاشة، تجيبها فتطلب منها عائشة النزول لمقابلة صديقتها ريناد – ابنة علا زميلتها في البنك - وافقت دون السؤال عن أي تفاصيل، هي في غنى عن أي شيء إضافي يشتت تفكيرها، ويثنيها عن اتخاذ قرارها.

***

كان يقوم بعمله خلف نافذته الزجاجية لا يشغل باله شيئًا سوى الحسناء التي باتت تمتلك كل حواسه، لا ينام إلا على كلماتها، لا يبدأ يومه إلا بصباحها عليه، حاول أن يقابلها أكثر من مرة ولكنها رفضت، ذهب مرارًا للكافيه الذي قابلها فيه أول مرة علّ الصدفة تتكرر، ولكن القدر لم يمنحه تلك الفرصة، أصبح عقله مشغولًا بشكل دائم، لم يعد يهتم لمعاركه مع وفاء، أصبح بقابل كل عراك معها بكلمة "معلش" ويتركها ويذهب لينام في غرفة الأطفال التي لم يُكتب لها أن تشهد أي طفولة بهذا المنزل، ولكنها أصبحت غرفة خاصة لنومه بعد أن قرر الابتعاد عن وفاء ومزاجها العكر ونكدها المتواصل، أصبح كل ما يريده الآن هو رؤية تالا أو على الأقل سماع صوتها، يشعر بإرهاق شديد، عقله لم يعد يتوقف عن التفكير بها، يقوم لدورة المياه، يغسل وجهه ويحظى بدقائق قليلة من الراحة، يخرج بهاتفه، ويفتح الإنترنت علّه يجد شيئًا من ريحها، تقفز الدائرة التي تحمل صورة وردة إلى الشاشة، يبتهج قلبه ويشعر بدقاته تكاد تخترق قميصه، يقرأ الرسالة:

- مساء الخير، أنا فكرت كتير في اللي بيحصل بينّا، أنا عندي كلام كتير قوي ليك، أنا لازم أقابلك.

لا يصدق ما بها:

- هنتقابل في نفس الكافيه؟ أنا رحتلك هناك كتير ما لقتكيش.

- أنهي كافيه؟

- الكافيه اللي شفتك فيه أول مرة.

- أنا مش فاهمة حاجة، كافيه إيه اللي بتتكلم عنه.

- هو مش انتِي تالا!

- أيوه، بس مش فاهمة أي كافيه ده اللي بتتكلم عنه، هو انت تعرف واحدة تانية اسمها تالا غيري؟

- لأ أنا ما اعرفش غيرك انتي يا روحي، بصي مش مهم، شوفي تحبي نتقابل فين وانا هاجيلك بعد الشغل.

- تمام، أنا هاستناك في الكافيه اللي في آخر الشارع اللي فيه البنك.

تكتب رسالتها وتغلق الإنترنت وتتحرك بسيارتها حتى لا تتأخر على ميعادها معه، فلم يتبق سوى نصف ساعة على انتهاء مواعيد العمل.

يعود لمكتبه والحيرة تتملكه، لم يذكر أنه أخبرها بمكان البنك الذي يعمل به، وكيف لها أن تعرف بوجود مقهى في نهاية الشارع! ينهي معاملاته المتبقية على مضض، يريد للوقت أن يتحرك بسرعة، تلاحظ علا انشغاله بالهاتف ونظره في شاشته كل دقيقة، تقترب منه وتسأله بخبث:

- مالك يا مكرم؟

- أبدًا مفيش.

- شكلك مستعجل، عمال تبص في الموبايل كل شوية وكأن وراك ميعاد مهم.

- لا عادي بس مرهق وعاوز أمشي.

- مممم مرهق! لأ ألف سلامة عليك.

- الله يسلمك.

- بس هو ما تعرفش الريسة أجازة ليه النهاردة؟

- لأ الحقيقة ماعنديش فكرة.

- غريبة!

- إيه اللي غريبة؟

- يعني أصلكم بتقعدوا مع بعضكم كتير اليومين دول.

- ما احنا بنتكلم في شغل مش بنتكلم في حاجات شخصية يعني.

- أنا أسمع إنكم كنتم أصحاب قوي زمان قبل ماهي تبقى مديرة الفرع، ويعني إنك كنت مستلطفها.

- إيه اللي بتقوليه ده يا علا، ما يصحش كده.

- مش قصدي حاجة أدينا بندردش.

- دي وقاحة مش دردشة، بعد إذنك بقى أنا ماشي.

يمسك بحقيبته وهاتفه وسلسلة مفاتيحه، يغلق درج مكتبه ويتوجه ناحية الباب، شغلته تلك الملعونة عن التفكير في تالا حبه الذي يمتلك حواسه، ولكن لمَ تسأله علا عن إلهام، لماذا فتحت تلك الصفحة القديمة، فقد طواها منذ عقد ويزيد، هل لوفاء يد بالأمر! علا ابنة خالتها، وهي من عرفته عليها وكانت سببا في زواجهما، هل تلاحظ عليه شيئًا!

يقف بمنتصف الطريق "هل علا هي تالا!؟" يتساءل في رعب، لقد علمت أنه على موعد هام، "يا ربي هل نصبت لي كمينًا مع وفاء؟ سأذهب للمقهى وأجد وفاء تجلس بانتظاري، هذا حتمًا ما سيحدث، لقد أوقعاني في الفخ، لم تتعرف تالا على المكان الذي قابلتها فيه أول مرة، هل نسيتني؟ غبي هي لم تنساك، هي لم تكن تلك التالا التي قابلتها، مجرد صدفة تشابه أسماء، وقد وقعت فيها" يستقل سيارته ويتحرك ناحية المقهى، يقف أمام الباب، يقترب منه شاب يرتدي قميصا قطنيا يحمل اسم المقهى:

- هتركن يا باشا؟

- ها! اه، لا لا أنا افتكرت حاجة مهمة.

يدير سيارته ويبتعد عن المكان، موليًا الفرار من الكمين الذي تنصبه له وفاء!

***

تصل متأخرة عن ميعادها معه بنصف ساعة، تصّف سيارتها، تبحث عن سيارته حولها لم تجدها، ربما تركها بمكانها أمام البنك، تحدث نفسها، تدخل إلى المقهى على استحياء، ترتدي نظارتها الشمسية الكبيرة لتخفي أكبر جزء ممكن من وجهها، تتلفت بداخل المكان بحثًا عنه، يقترب النادل منها:

- اتفضلي يا فندم.

يرشدها لطاولة قريبة، ولكنها تفضّل الجلوس على واحدة في ركن هادئ، يدلها النادل على واحدة في آخر المقهى، تجلس موليّة ظهرها للمدخل، لا تريد لأحد أن يتعرف عليها، تشعر بخجل شديد، يتركها النادل مع قائمة الطعام لبضع دقائق ثم يعود إليها:

- هتطلبي إيه يا فندم؟

- هاتلي لاتيه.

تخرج هاتفها من حقيبتها، تشغل بياناته وتدخل للعالم الأزرق ترسل له:

- إنت فين؟

تنتظر الرد، ولكن دائرته مطفأة، لا ضوء أخضر بها، تبهت الأشياء في عينيها، لماذا لم يأت حسب الموعد، كان فرحًا حين أخبرته برغبتها في المقابلة، شعرت حينها بأن كل الأشياء مبهجة، الشوارع والسيارات والشجر، وحتى رجل المرور، الزحام الشديد نفسه لم يؤرقها، بينما الآن هي تجلس في انتظاره، هل أتى وملّ انتظارها؟ ولكنه لم يرسل لها شيئًا يخبرها بأنه قد وصل أو يجلس بانتظارها، هل حدث له مكروه؟ ظلّت تعدد الأسباب والمبررات، تخلق له العديد من الأعذار، حتى لا تشعر بالإهانة من عدم تقديره لها والمجيء في موعده، يحضر النادل فنجان كبير من اللاتيه، يضعه أمامها:

- تؤمري بحاجة تانية يا فندم؟

- لا ميرسي.

- مش عاوزة شيشة ولا حاجة؟

تصمت لبرهة ثم تجيب:

- اه هاتلي شيشة.

يذهب النادل ويرسل لها فتى الشيشة، تطلب منه نوعًا محددًا، وتجلس في انتظار الشيشة والرد، تتابع شاشة هاتفها بشغف، لا تبرح عيناها عن دائرته، تنتظر الضوء الأخضر، كمن يقف في إشارة مرورية طويلة مغلقة لحين مرور موكب ما تنتظر، يحضر الفتى الشيشة، تنفث منها على مهل، تزفر ضيقتها ودقائق انتظارها، وحنقها، تلفظ وحدتها مع رائحة التوت البري، تشعر بانتعاشة الدخان الباردة في صدرها، تهدئ من روعها قليلًا، نصف ساعة أخرى تمر، ولم يظهر بعد، لم تفتح إشارتها، تظل على حالها، حتى يمر الموكب في سلام، وتضاء الدائرة، تسمع صوت تسلم الرسالة، يدق قلبها بشدة، تفتح الرسالة تشاهد كلمة typing تنتظر وتنتظر، كل ثانية تمر عليها كدهر، تتلفت حولها علّه قادم إلى طاولتها، ولكن لا أحد يدخل، علّه دخل منذ قليل ويجلس إلى أي طاولة قريبة، سيقوم إليها حين يعرف بمكانها، تتلفت مرة أخرى، ترسل النظرات إلى كل شخص يجلس على طاولة، تبحث عن وجهه بين وجوههم، ولكنها لا تتعثر بأي شيء من ريحه، يجيئها الرد، لم يأتِ مكرم..

- مساء الخير تالا، كنت أود الحضور ولكن يجب أن أعرف أولًا من تكوني؟ على أي حال لقد عرفت من أنت وهذه الحيلة لن تفلح معي، فأنا رجل أحب زوجتي ولن يستطيع أحد التفرقة بيننا، تحياتي.. مكرم.

كان الرد صادمًا، موجعًا، قاتلًا، لمَ يحدثها بهذه الطريقة وتلك اللهجة! عربية فصحى حادة وكأنه خطاب رسمي يرسله لمديره، هل علم فعلًا بحقيقتها؟ هل

علم أنها إلهام؟ ولكن لمَ ستوقع بينه وبين زوجته وهي لا تعرف زوجته من الأساس، تترك الهاتف من يدها دون رد، تتساقط الدموع من عينيها دون حساب، خذلان لمشاعرها، هذه المرة هي من خذلت نفسها، حطّت من شأنها، تصرفت برعونة وطيش، لم يكن من المفترض أن تتصرف مثل هذه التصرفات، كيف ستواجه نفسها الآن؟ وكيف ستواجه مكرم؟ كيف ستتجرأ بالنظر لعينيها في المرآة، وكيف ستتعامل معه بعد الآن؟ "وضعتِ نفسك في مأزق محير يا إلهام، صغّرتِ من نفسك بتصرف غير لائق" تترك ليّ الشيشة من يدها، وتطلب الحساب من النادل، لا يجب أن تبقى أكثر من ذلك، تحكم وضع نظارتها على وجهها، لا يجب أن يلمح أحد قطرة من دموعها، تدفع الحساب وتخرج لسيارتها، تتحرك بها ناحية البنك، تلقي نظرة حوله لا تجد سيارته، تخبط يدها بمرارة فوق مقود السيارة، تسير شاردة، لا تعرف أين يمكن أن تذهب، تقرر العودة إلى المنزل، لترتمي بأحضان وسادتها، تبكي تلك الخيبة التي حطت عليها.

***

ينهي صلاة الجمعة، يجلس على المقهى في هدوء، يتابع المارة ويدقق في تفاصيلهم، يحاول قراءة الوجوه ولغة الأجساد، يشعر بالملل قليلًا، يفتح هاتفه ويشاهد بعض مقاطع الفيديو على يوتيوب، يقترب منه القهوجي، يضع كوب شاي على الطاولة، يفتح ورقة ملفوفة بداخلها شطيرة، يتناولها، يلحقها بكوب الشاي، يرن هاتفه:

- أيوه يا عم فينك؟ طيب ما تتأخرش.

نصف ساعة تمر وهو يقلب وجهه ما بين المارة والتلفاز والهاتف، يجلس على نار، الإنتظار في مثل هذه المواقف قاتل، ينظر في ساعة يده كل دقيقة، يعدّل من ياقة قميصه، ويفتح الكاميرا الأمامية في الهاتف ليشاهد وجهه ويتأكد من ترتيب

شعره، حياة جديدة تنتظره، بيت جديد، زيجة جديدة، يقترب عزوز منه بخطى متثاقلة، يلقي عليه التحية ويجلس على المقعد المقابل، يشير للقهوجي بإحضار كوب شاي، يضحك ضحكته المعروفة:

- ههها ههها ها، إيه يا عريس جاهز؟

- جاهز يا عم إيه رأيك كده؟

- ماصبغتش شوية الشعر البيض دول ليه؟

- لأ صبغة إيه أعوذ بالله.

- بلاش صبغة، كنت حنيهم، ههها ههها ها.

- بتتريق يا عزوز!

- أبدًا والله يا جدع، أنا بهزر بس، وبعدين أبيض ولا إسود العروسة هتقولك كلك عاجبني يا ولا كلك عاجبني.

- طيب هما عارفين إننا رايحين تعارف بس ولا هيدبسونا في قراية فاتحة؟

- لا ما تقلقش هو تعارف ورؤية كده، عجبتوا بعض أهلًا وسهلًا ماعجبتوش كل واحد يروح لحاله، أنا متفق مع الحاجة على كل حاجة.

- هي الحاجة دي تقربلك إيه؟

- دي يا سيدي تبقى بنت خالة أمي الصغيرة، وكان بقالي سنين ماشفتهاش بس لما عرفت بالعملية جات زارتني، وعرفت حوار بنتها ده.

- طيب ما تياله بينا.

- إيه يا جدع مستعجل على إيه لسه بدري؟ إحنا ميعادنا معاهم الساعة 6 المغرب.

- طب ما قلتش ليه يا أخي ما كنتش لبست وجهزت كده من دلوقت.

- ما هما غيروا الميعاد على آخر لحظة بقى معلش.

- ما بحبش شغل المماطلة ده من أولها.

- يا عم الصبر حلو، وبعدين إحنا هنشرب كوبايتين الشاي ونروح نتغدا عند الحاتي كده ونروق على نفسنا وبعدين نروح نحبس عندهم بالشاي المنعنع.

- والله انت رايق قوي يا عزوز.

- وما أروقش ليه يا عم، أنا واحد نجيت من الموت مرتين في ليلة واحدة، وعربيتي رجعتلي والعيال اتقبض عليهم، والولية هادية ومابتتكلمش في حاجة معايا.

- أغرب حاجة موضوع العربية اللي رجعت دي انت مرزق والله، مفيش عربية بتتسرق وترجع بالسرعة دي أبدًا.

- فلوسي حلال يا عم محفوظ، وربك عالم بالحال.

***

على أريكة في غرفة الضيوف، يجلسان متجاوران، يضع محفوظ قدمًا فوق الأخرى، بينما عزوز يجري محادثة إلكترونية مع إحداهن، لم يتب عما يفعله رغم ما حدث له، بل إنه رأى أن الله راضٍ عنه حين عادت له سيارته، بينما يسرح محفوظ في تفاصيل الغرفة، محاولًا اكتشاف المستوى المعيشي لأهل المنزل، يرسم بخياله حياة سعيدة هادئة مع العروس، يقطع كل ذلك طرق خفيف على الباب:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يغلق عزوز هاتفه، ويضعه على الطاولة المقابلة ويقوم مادًا يده بالسلام، للحاج سلامة وزوجته الحاجة سليمة، ويتبعه محفوظ بالسلام على الحاج سلامة،

مشيراً بيده ناحية صدره للحاجة سلامة كناية عن كونه لا يسلم على سيدات!

يرحبان بهما، بوجه مسرور:

- نورتونا والله ياجماعة.

- النور نورك يا حاج، تشكر والله.

تمد الحاجة سليمة يدها بطبق كريستالي به بضع قطع الشوكولاتة:

- اتفضل يا أستاذ عزوز، اتفضل يا أستاذ...

- محفوظ يا حاجة.

- اتفضل يا أستاذ محفوظ.

توجه حديثها لعزوز المنهمك في فتح ورقة الشوكولاتة:

- وازي نشوى والولاد، ماجوش معاك ليه؟

- مريحين بقى يا حاجة النهاردة الجمعة ومابيصدقوا يريحوا يوم هها هها ها.

- صحيح الواحد لما بيصدق يرتاح يوم.

تستأذن الحاجة سليمة للخروج وتترك الحاج سلامة معهما، تعود بعد قليل ومعها علياء تحمل صينية عليها أكواب ممتلئة بالعصير، تضع علياء الصينية على الطاولة وتجلس بجوار أمها على استحياء.

- دي علياء بنتي، أدب وأخلاق ودين ما أقولكش تربيتي بقى.

تقول جملتها وتضحك بثقة، تضع علياء وجهها في الأرض خجلًا، يتوجه محفوظ بنظراته إليها متفرسًا في ملامحها الهادئة، وجسدها الممتلئ، شبابها وأنوثتها يطغيان على وزنها، جمالها الهادئ يبعث الراحة في نفسه.

- منورين يا جماعة والله.

يقولها الحاج سلامة محاولًا بدء حديث يبدو ثقيلًا على البعض، فينتبه محفوظ

لما يرمي إليه الحاج سلامة، فيبدأ بطلب يد علياء، تشعر علياء بالخجل، فتقوم مع الحاجة سليمة وتتركان الجلسة والحديث للرجال.

تعود لغرفتها لا تدري ماذا تفعل، هل توافق على رجل يكبرها بعشرين عامًا، ولديه أولاد وزوجة كي تهرب من لقب العانس البدينة التي لا يعجب بها أحد، أم ترفضه انتظارًا لعريس مناسب بسن مناسب وظروف مناسبة! كل من تعرف بالإنترنت لديهم ظروف مناسبة ولكن هناك عائق واحد، كلهم متزوجون، وإن لم يكن أحدهم متزوجًا فهو غير مناسب سنًا أو مستوى اجتماعيًا، تشعر بدوار يصيبها، الأفكار تتزاحم أمام عقلها، تضغط عليها، تجلس شاردة، تحاول محادثة عزيزها الذي عاد لمحادثتها منذ بضعة أيام، بعد إصابته في حادث سير منعه عن حضور زفاف أختها، ولكنه قد أغلق الإنترنت، تدخل لمملكتها تكتب منشورًا رومانسيًا، تنهال عليها التعليقات والرسائل، تبتسم وتخلع حذائها، تفرد جسدها على السرير وتبدأ في إدارة شئون مملكتها الزرقاء.

***

- يا بنتي إعلام خاص إيه بس؟

- ما هو أنا مش هادخل جامعة حكومية، أنا هادخل جامعة خاصة زي أصحابي.

- طيب أصحابك دول ما جابوش مجموع يدخلهم أي حاجة حكومية، إنتي مالك بيهم بقى.

- ما هو أنا كمان مجموعي ما جابش إعلام في أي جامعة حكومية.

- بس جاب تجارة، والدراسة بدأت والمفروض تروحي كليتك.

- وانا مش هروح الكلية دي، أنا هادخل إعلام مع أصحابي وفي جامعة خاصة.

- يا بنتي إيه جرالك بس ربنا يهديكِي، شفتي أخرة دلعك يا مدام؟

تزفر إلهام بقوة، قائلة في ضيق:

- وانت ماكنتش بتربي ليه يا أستاذ بدل ما انت مش عاجبك تربيتي كده؟ عمومًا ده مش وقته، أنا كلمتك عشان تشوف حل معاها، عشان أنا ماعدتش قادرة عليها.

- يا بنتي طب فكري تاني.

- قراري قرار نهائي يا بابا، هادخل إعلام خاص يعني هادخل إعلام خاص يا إما والله أموت نفسي.

غصة تصيب قلبيهما جراء جملتها الأخيرة، لم يتوقعا يومًا أن تنطق بها صغيرتهما المحبة للحياة، عصفورتهما المغردة دائمًا والتي أصبحت صامتة في الفترة الأخيرة، باتت أفكارها داكنة سوداوية، تهدد بالانتحار!

يوافق محفوظ على مضض، ولكنه سيضطر لبيع سيارته لتغطي مصاريف الجامعة، سيفقد جزءًا مهمًا من ممتلكاته، والتي يعلم بها الحاج سلامة والد العروس الجديدة، ولكن لا بأس ابنته أهم.

- أنا هدفع لها المصاريف يا محفوظ.

- محدش هيصرف على تعليم بنتي غيري، أنا كنت بسيبك تدلعي وتصرفي وتدي فلوس أكل ودلع لكن مصاريف الدراسة أنا اللي متكفل بيها، محدش هيبقشش عليا.

- أبقشش! ماشي يا محفوظ ادفع وأنا مش هابقشش، أنت حر.

تقول جملتها وتتركهما لتدخل غرفتها، سئمت الحديث معه، كلماته مكررة، وأحاديثه لا تخرج عن إطار النقود والدلال وفساد أخلاق الأولاد بسببها، رغم أنه السبب في معظم مشاكلهما، تحكمه الزائد وانغلاقه، والضغط عليها وعلى كل من حوله ولّد انفجارًا بنفوسهما، دفعهما للتمرد بعدما فاض بهما منه، نضج تفكيرهما

وحاول كل منهما أخذ حقه في تقرير مصيره، هي الأخرى تتمرد وتقرر مصيرها، ولكن عائشة كانت أجرأ منها أفصحت عما تريده، أما هي فمازالت تمارس حقوقها في السر.

يخرج محفوظ عائدًا إلى عالمه الهادئ بعيدًا عن إلهام ومشاكلها، ومشاكل أبنائها، يعود ليجلس بمكتبه ومسكنه الجديد، يفكر في زيجته الجديدة، يتذكر أنه قد حصل على رقم هاتف علياء، من عزوز وربما تمكن من محادثتها لتشغل وقت فراغه الكبير.

تدخل عائشة لغرفتها، تجلس وحيدة تفكّر فيما سيحدث بعد أن تلتحق بالجامعة الخاصة، تبني أحلامًا كثيرة تنتهي بالحرية والخروج من هذا المنزل إلى منزل أهدأ مع شاب تتزوجه ليخرجها من جحيم والدها المنغلق، تخرج هاتفها الكبير الذي تخفيه عن أمها، تتحدث مع صديقتها المقربة ريناد، تشكيان الملل والكلل من جلسة المنزل، تتناولان أطراف الحديث عبر محادثة إلكترونية طويلة تحكي فيها الصديقة لعائشة عن شاب معجبة به، تضحك عائشة تتخيل نفسها مكان صديقتها، تستمع إلى حلو الكلام من حبيبها، تتنهد وتقترح على صديقتها النزول لفعل أي شيء يضيع ذلك الملل:

- بس هنقول رايحين فين؟

تتساءل عائشة، باحثة عن حجة تطلب بها النزول من أمها، تقترح ريناد أن تخبر عائشة أمها أنها ذاهبة للجلوس معها في المنزل:

- يا بنتي إنتي غبية، ما هي ماما مع مامتك في الشغل وأكيد يعني معاها رقم تليفونها، لو اتأخرت شوية هتتصل عليها تسألها عليا وهنروح في داهية.

- اه صح، إزاي فاتتني دي؟ طيب هانعمل إيه؟

- أنا أقولك.

***

تجلس وحيدة على أريكتها الوثيرة، تتجول بين صفحات العالم الأزرق، لم تعد ترى صورته بجوار الدائرة المضيئة منذ أن حظر حسابها المزيف، تحاول منع نفسها من الحديث إليه عبر برنامج آخر، سيكشفها هذه المرة، البرنامج الآخر يعمل برقم الهاتف، وهو شيء يستطيع الوصول لمالكه بسهولة، تغالب الشوق ولكن الشوق أقوى منها، تمسك بالهاتف، ستتخذ خطوة جريئة هذه المرة، لن تتحدث إليه باسمًا مستعارًا، ولن تتخفى حتى لا يعرف حقيقتها، فربما هو الآن يعلم حقيقتها بالفعل، تبحث عن اسمه على برنامج الواتس آب، تفتح صورته التي طالما نظرت إليها وتأملتها دون أن تتجرأ وتكتب أي كلمة، هذه المرة ستتمرد على قالبها الجامد، ستذيب تلك القوة، ستشعر بوهن مشاعرها، تتركها لتذوب فيها، تغلّفها بالكامل، ستترك نفسها لهواها، ستتحدث إليه، تعترف بكل شيء، تعبّر له عن حب تخفيه منذ سنوات، عن حلم طالما راودها، وليد طالما بكى كي تصفح عنه، ولكنها كانت تتعمد وأده.

طرق خفيف على الباب، تدخل عائشة في هدوء، تظلم إلهام شاشة هاتفها وتضعه على الطاولة القريبة منها، تطلب من عائشة الجلوس بجوارها، كانت تعتقد أنها قادمة للتحدث معها بشأن الجامعة الخاصة والكلية التي سترتادها ولكن عائشة فاجأتها بطلبها للخروج:

- بس الدنيا ليّلت يا يوشة.

- يا ماما الساعة لسه 6 وده عيد ميلاد ما ينفعش يتعمل بالنهار.

- وهايبقى فين بقى عيد الميلاد ده؟

- في كافيه في وسط البلد، وريناد هتروح معايا.

- وعلا هتوافق إن ريناد تنزل معاكي في وقت متأخر كده.

- متأخر إيه بس؟ إنتي ليه محسساني إن الساعة 10.

- يا بنتي خايفة عليكم.

- يا ستي إحنا مش صغيرين، ما احنا بنروح نشتري حاجات وبنرجع أحيانا الساعة 8 و9.

- أيوه بس مش بتنزلي الساعة 6 من البيت.

- 6 زي 2 الشوارع مليانة ناس وزحمة واحنا مش هنتأخر كلها ساعتين تلاتة ونرجع.

- طيب بس ما تتأخروش، وكلميني كل شوية طمنيني عليكِي.

- ماشي يا حبيبتي.

تسرع عائشة إلى غرفتها تتحدث إلى ريناد التي نفذت نفس الخطة مع والدتها، ترتدي ملابسها وتحمل حقيبتها الثقيلة فوق ظهرها وتنزل لمقابلتها.

تطمئن إلهام لنزول عائشة من المنزل وتعود لتمسك بهاتفها تكمل ما بدأته منذ قليل، خروج عائشة من المنزل سيتركها حرة لفعل ما تريد وقول ما تشاء، لن تشعر بأي خوف من الحديث، فلن يسمعها أحد، تفتح برنامج الواتس آب وتكتب له "مساء الخير" تهم بضغط زر الإرسال، فتقاطعها مكالمة واردة من حمزة تجيبها بلهفة:

- أيوه يا حبيبي عامل إيه؟

- أنا كويس يا ماما الحمد لله، إنتي عاملة إيه ويوشة عاملة إيه؟ وحشتوني قوي.

- أنا زعلانة منك يا حمزة، السنة الدراسية بدأت وانت مارجعتش زي ما قلت.

- هارجع قريب إن شاء الله يا ماما، المهم طمنيني أخبارك إيه؟ وعاملة إيه مع بابا؟

- أنا بخير يا حمزة، المهم انت، طمنِّي عليك يا ابني.

- أنا كويس جدًا يا ست الكل، عمري ما كنت كويس زي الأيام دي.

- يعني إحنا كنا مخلينك مش كويس يا حمزة، إخص عليك.

- مش قصدي يا ماما والله، أنا أقصد يعني إني مبسوط وحاسس بحرية، البلد هنا حلوة والناس بتتعامل باحترام.

- طيب يا حبيبي المهم إنك مبسوط، وبتاكل كويس؟

- باكل يا ماما ما تقلقيش عليا، المهم أنا هاقفل دلوقت وهاطلبك أطمن عليكِي تاني.

- ما تغيبش عليا يا حمزة، أنا وأختك محتاجينلك يا ابني.

- ما تخافيش يا ماما، أنا موجود وأي وقت تحتاجيني ابعتيلي بس رسالة على الواتس آب وأنا هاكلمك أول ما أفضى.

تنهي مكالمتها مع حمزة وتعود لرسالتها، تضغط زر الإرسال في تردد وتنتظر، يضع البرنامج علامتين صحيحتين بلون رمادي بجوار رسالتها، تتحولان للون أزرق بعد ثوانٍ، تتلونان ويمنحان قلبها صدمة قوية تجعله يرتعد، ينبض بقوة حتى كادت تشعر به يخرج من صدرها، يظهر لها أن الطرف الآخر يكتب ردًا، تنتظره بشغف مختلط بخوف، فتأتيها الرسالة قصيرة جدًا كالتي أرسلتها - مساء النور - تبتهج لإجابته رسالتها، لا تعلم إن كان يعلم أن ذلك الرقم لها أم لا، تستجمع قوتها وتكتب له:

- إزيك يا مكرم، عامل إيه؟ أنا إلهام النجار.

تضغط زر الإرسال وتغلق عينيها بقوة، تتحاشى النظر إلى الشاشة، لا تود أن ترى إن كان قرأ الرسالة أم لا، خائفة جدًا من ردة فعله، مشاعرها متضادة،

توبخ نفسها على ما تفعل وتشجعها على فعل المزيد في نفس الوقت، مترددة جدًا وجريئة جدًا، تسمع صوت البرنامج المميز ليخبرها بأنه قد أرسل لها، تفتح عينيها بسرعة تقرأ ما كتب:

- مساء النور يا ريسة، أنا بخير الحمد لله، إنتِي عاملة إيه؟

تتملكها الرهبة، هي الآن على وشك أن تخبره بكل شيء، لا شك أنه لا يعلم حقيقة تالا، حتمًا قد شك بأمر امرأة غيرها، فلو كانت هي من شك فيها لما كان أجاب رسالتها، شعرت بالاطمئنان قليلًا، ستعترف له الآن في رسالة طويلة، لن تطلب منه ردًا، هي فقط تريد أن تفرغ ذلك العبء عن قلبها.

على الجانب الآخر يجلس مكرم على أريكته مثلما تجلس هي، ينتظر رسائلها في شغف، لم تعد تالا موجودة لتؤنس وحدته، ولا يريد الحديث مع أي امرأة ممن اعتاد الحديث إليهن، أصبح الآن خائفًا من فكرة أن وفاء تنصب له كمينًا وتريد أن تمسك به متلبسًا بجرم الخيانة، ينتظر غير مصدقٌ أن إلهام النجار تراسله، حلم حياته والمرأة التي طالما حلم بها تتحدث إليه وتظهر كلمة **typing** بأعلى الرسالة لمدة تقترب من الخمس دقائق الآن، بدأت الشكوك تراوده وتعبث بعقله عمّا يمكن أن تكون إلهام على وشك إنهاء كتابته وإرساله له، هل ستوبخه على مصيبة ما فعلها دون أن يدري؟ هل ستخبره بشأن خصم جديد؟ هل علمت بشأن القرض الذي منحوه لعميل متعثر دون رد إدارة الائتمان حين جعلتها علا توقع دون أن تقرأ الملف جيدًا؟ لو علمت بهذا الشأن لانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، لن يفلتوا منها هو أو علا، ولن تفلت هي من عقاب رادع، يقطع كل تخميناته صوت الرسالة القادمة، يبدأ بقراءتها ومع كل حرف تبدأ حدقتا عينيه في الاتساع غير مصدق ما يقرأ، يشعر وكأنه في حلم وأن صوت المنبه سيوقظه بعد قليل، يتنقل بين سطور رسالتها الطويلة بسرعة، يريد أن يطوي الرسالة طويًا، يلتهم الحروف حتى يشبع

من حديثها، يطبعه بعقله حتى لا تتراجع فيما تقول، حتى لا تنكر ما اعترفت به توًا "هل كنتِ تحبسين كل ذلك يا حبيبتي! كل تلك الأعوام وأنتِ تملكين حبًا كبيرًا خلف ذلك القناع البائس العبوس، طال صمتك يا حبيبتي، ليتك نطقتِ منذ زمن، كان الكثير سيتغير بحياتك وحياتي، ولكن لا بأس فكما تقول الحكمة أن تأتي متأخرًا خيرٌ من ألا تأتِ أبدًا".

تبعث رسالتها وتغلق الإنترنت، لم تنتظر أي رد منه، هي اعترفت وانتهى الأمر، لم تكن تملك شجاعة كافية لتلقي الرد، فلن يقوى قلبها على أي صدمة يرد بها عليها، تضع الهاتف على الوضع الصامت، تريد أن تختلي بنفسها الآن، تشعر وأنها قد عرّت جسدها أمامه، أخبرته بكل شيء، لم تخفِ حرفًا مما تشعر به، حملت قلبها وسلمته له على بساط من فضة، لامع كعينيها التي تقفز السعادة منها، قدمت له لؤلؤتها التي أخرجتها توًا من صدفتها، فخرجت له شاهقة البياض لامعة، لملمت ما تبقى من شغفها وتقوقعت على نفسها وأغمضت عينيها مستسلمة لنبضات قلبها.

لم يكتفِ هو بقراءة حروفها والسباحة على شاطئ اعترافاتها، يود الغوص في أعماقها، أن يصل للآلئها يحصل عليها كاملة، له وحده، يصنع لها من إحدى لآلئها عقدًا يزين به صدرها بلؤلؤة تحمل اسمه، تخبر الجميع بأنه يحبها ولم يتمن غيرها حبًا.

يطلب رقمها عبر الهاتف، يريد أن يوصل مشاعره إليها منطوقة لا مكتوبة، لو لم يكن الوقت متأخرًا لطلب منها النزول لمقابلتها، ولكنه سيكتفي الآن بسماع صوتها ليخفف من دهشة الموقف، ينتظر ردها على جمر ساخن، تغيب في الرد عليه، كانت مغمضة عينيها محتضنة نفسها تحاول أن تحصل على بعض الهدوء، لم تنتبه لصوت اهتزاز الهاتف مخبرًا بقدوم مكالمة، يستمر اهتزاز الهاتف، يتحرك

قليلًا تجاه كوب زجاجي على الطاولة، فيصدر صوتًا تنتبه له إلهام، تنظر للشاشة فتجد اسم مكرم يتوسطها، يرتجف الهاتف مع رجفة يدها، تخاف أن تجيب المكالمة، تخاف أن تفقد ما تبقى من كرامتها، لا تريد أن تحصل على خذلان جديد، هذه المرة لن تتحمل الحياة إن كان الرد مؤذيًا، ستؤذي نفسها أكثر وتنهي حياتها إن لزم الأمر.

***

يجلس تحت برجولته يستنشق نسيم الخريف، بارد عطِر، يتخلل جسده القوي فيجعله هشًا كروحه، ينتظر صوت كريم ليناوله شيئًا أو يشعل له فحمًا للشيشة، الجو هادئ بشكل مقبض بالنسبة له، يحدثه قلبه بشيء سيئ، لا تنفك تراود خياله، يطردها بشكل لا إرادي، بينما هي تصر على مداعبته، يخرج كريم بشكل مفاجئ ممسكًا بمفاتيح سيارته:

- أي خدمة يا باشا؟

- لا، أنا رايح أجيب حاجة كده ربع ساعة وراجع، خليك انت هنا.

- أوامرك يا باشا.

لم يمر الكثير حتى عاد كريم، وكانت هي معه، بهيئتها التي رآها عليها أول مرة، حين عانقها لثوانٍ، شعر بالدماء تغلي بعروقه، كانت تمشي على استحياء، ارتبكت حين وقعت عيناها عليه، أرادت الهروب من عينيه، ولكنه لم يعطها فرصة، لاحقها بنظراته، كان يتوسل إليها، يبغضها ويحبها، يطلب منها ألا تدخل مع كريم، يلاحظ كريم ما يحدث، يجذبها من يدها:

- تعالى يا مصطفى ولعلنا فحم عشان الشيشة.

يبلع مرارة حلقه وكرامته، يطعن قلبه بسكين الصمت ويجيب:

- أوامرك يا باشا.

يدخل ثلاثتهم، يذهب مصطفى للمطبخ يشعل بضع قطع الفحم، ويجهز الشيشة وقلبه يعتصر ألمًا، لا يستطيع أن يوقف ما يحدث، لا يستطيع أن يقول لها أحبك، لا تفعلي ذلك أرجوكِ، لا حول له ولا قوة، لا مال ولا جاه، لا يستطيع شيئا سوى تلبية أوامر كريم باشا.

يسمع صوت كريم يحاول استمالتها، يطلب منها أن تجلس بالقرب منه، ولكنها ترفض:

- أنا قاعدة مرتاحة هنا.

- يا بنتي إنتي خايفة من إيه؟ ده أنا كريم، وبعدين إحنا مش لوحدنا، ولا الواد اللي جوه ده مش مالي عينك؟

- أنا كنت مفكرة إننا هنقعد في كافيه، ماكنتش أعرف إن المكان كده.

- الكافيه دوشة والناس هتفضل تبص لنا وحاجة كده توجع الدماغ إنما هنا إحنا على راحتنا، طب ده الواد مصطفى ده بيعمل كوباية كابتشينو ما تتوصفش.

- طيب أنا هاقوم أمشي بقى.

- تمشي إيه ده إنتي لسه جاية.

- ماهو أنا كده هاتأخر وأمي هتزعقلي، أنا استأذنت من الحاج ساعة بدري والساعة خلصت.

- أنا هوصلك بالعربية ومش هتتأخري ما تقلقيش.

- لا أنا خايفة، أنا عاوزة أمشي.

تقوم عنان ناحية الباب، تمر كل الأفلام العربية والمسلسلات التركية أمام عينيها، تتذكر فوران القهوة، والنوافذ الخشبية المتخبطة، تشعر بخوف، كيف

جاءت معه إلى هذه الشقة، أين كان عقلها؟ وأين وعدها لأمها؟ لولا اليوم الذي غاب فيه الحاج عن ذهابه للمحل، لما جاء كريم وأخذ رقم هاتفها وأعطاها رقمه، لو لم يغب الحاج لما وصلت إلى تلك الشقة في ذلك الوقت، كانت تشعر بنظرات مصطفى المحبة، وكادت ترى عيني الذئب بين عيني كريم، تبكي حظها العسر، هل كان يجب أن يكون مصطفى فقيرًا!

الآن فهمت كلام أمها، أمثالها لا يحبهن الأغنياء، فقط يصاحبونهن لجمالهن، كيف أوقعت نفسها في براثن الانحلال بتلك الطريقة، تمسك بمقبض الباب الذي أغلقه كريم عند دخولهما، يقوم كريم إليها، يحتضنها ويجذبها من ظهرها:

- على فين؟ تعالي انتي مستعجلة ليه؟

- أنا لازم أمشي، اتأخرت.

- مفيش حد هيمشي دلوقت، لسه الليل طويل.

يقولها ويتفحص جسدها بنظرات ذئب جائع، يحاول ضمها إليه، يسرع مصطفى خارجًا من المطبخ يحمل الشيشة، يشاهد ما يحدث، يرفع صوته:

- كريم باشا، مايصحش كده، سيب البت تنزل.

- انت تخرس خالص يا زفت انت، إنت صم بكم عمي.

- أنا صم بكم عمي، في حتة حشيش، في إزازة خمرة، في حضن لبت شمال، في بوسة لواحدة راضية، إنما غصب، لا يا باشا.

تجري عنان ناحية مصطفى، تقف خلفه، تمسك بيده وتقبلها:

- أبوس إيدك خليه يخرجني، أنا مش وحشة، أبوس إيدك خليني أروح لأمي.

يربت مصطفى بحنان على يدها، قائلًا بهدوء:

- ماتخافيش، محدش هيمسك.

ينظر بشراسة ناحية كريم، يخرج مطواة من جيب بنطاله، يفتحها بحركة سريعة يمسك عنان بيده الأخرى، تتمسك به كغريق يمسك بلوح خشبي هو آخر أمل في نجاته:

- افتح الباب يا كريم باشا وخليني أروح البت لأمها.

يشعر كريم بنار تخرج من وجه مصطفى، يُدرك أنه لو لم ينفذ ما يطلبه، ربما فقد حياته، يرفع يده أمام وجهه مبعدًا مصطفى عنه، يمد يده ناحية جيب بنطاله، يتحرك مصطفى حركة مفاجئة:

- اهدى أنا بطلع المفتاح.

يخرج المفتاح ويقذفه على الأرض، تجري عنان ناحيته، يظل مصطفى شاهرًا مطواته في وجه كريم حتى فتحت عنان الباب، يخرجان معًا ويغلقان الباب من الخارج على كريم، تعدو عنان ناحية السلم، يتبعها مصطفى، يقفزان خلف بعضهما، يصلان للشارع، تقف عنان حائرة لا تعرف أين تذهب، تبكي، يقف مصطفى أمامها، تنظر له:

- شكرًا.

يرد عليها بصفعة قوية على وجهها، يمسك كتفها ويهزها بشدة، ينهرها، يسبها وهي لا تفعل شيئا سوى البكاء، تلطم خدها:

- أنا مش وحشة والله أنا مش وحشة.

تكررها كثيرًا تصاب بهيستريا، كانت على وشك الالتهام كفريسة ذهبت بإرادتها لذئب جائع، لن يلومه أحد على فعلته، هي فقط من ستلام، ظلت تبكي

وظل مصطفى ينهرها، بدأ الناس في التجمع حولهما، لقد فقد كل شيء بسببها، لن يستطيع العودة للعمل مع كريم ولا حتى المعلم تهامي، ولن يستطيع أن يكمل معها، سيعود لأمه حاملًا خيبته والفقر مرة أخرى، يجذبها من يدها، يجرها كدابة بلا عقل، يكف عن نهرها، يشعر بالذنب تجاهها، يعلم أنها فقيرة غُرر بها باسم الحب، كما غُرر به باسم الحلم، وصلا لشارع عمومي، أفلت يدها وسألها:

- ساكنة فين؟

- شبرا.

- فين في الزفت شبرا؟

- روض الفرج.

يوقف سيارة أجرة، يسأله توصيلهما لروض الفرج، يوافق الرجل، يدفعها في المقعد الخلفي ويغلق الباب بقوة، يجلس بجوار الرجل، وشرر من نار يخرج من عينيه، يلاحظ السائق بكاء عنان في الخلف، يفتح الزجاج المجاور لها من الزر الموجود بجانبه، تذكره بابنته، وجهها ملائكي مثلها، أراد أن يمنحها بعض الهواء النقي، يخرج مصطفى علبة السجائر من جيبه، يشعل إحداها وينفثها بعصبية، يلاحظ الرجل ما يحدث يشعر بأنهما عاشقان تعاركا، ابتسم ابتسامة صافية وتوجه بالحديث ملاطفًا مصطفى:

- هها هها ها، روق يا ابني كده، عينك بتطق شرار.

- وإيه في الدنيا دي يخلي الواحد رايق.

- البنات ناقصات عقل فماتعملش عقلك بعقلها، الراجل عاقل والمفروض ما يحسسش اللي معاه إنها هبلة، حسسها دايمًا بقيمتها، هتحبك وتبقى طوعك.

- انت مش فاهم حاجة يا حاج.

- ياسيدي أهو كلام فارغ بقوله، اعتبرني بقوله لنفسي.

- مش القصد يا حاج.

- عارف يا ابني، أنا ابني تقريبًا من نفس سنك، وعندي بنت أكبر منه، تشبه للعروسة دي، بحبهم قوي بس أهملت فيهم قوي قوي، لو رجع بيا الزمن مش هههحسهم إنهم مالهمش لازمة، هاقولهم دايمًا إنهم ليهم لازمة ولازمة كبيرة قوي، حتى مراتي نفسي أقولها إن ليها لازمة كبيرة قوي في حياتي بس أنا غبي بدل ما بقولها كده بأذيها بكلامي وتصرفاتي.

- ده انت معبي قوي يا حاج.

- اه بس ارتحت لما فضفضت، بيقولوا دايما فضفض للغريب، هترتاح، لو فضفضت للقريب هيمسك عليك ذلة.

- ربنا مايذلك لحد أبدًا يا حاج.

- ولا يحوجك لحد يا ابني.

تتابع عنان حديثهما في اهتمام، تدرك قيمة وجود الأب في الحياة، الظهر الذي يستند عليه الأبناء، الجذع الذي ينقذهم وقت الغرق، تنظر لمصطفى الآن نظرة مختلفة، لقد أنقذها قبل الغرق في الوحل، هو جذعها الذي سندها في وقت الانحناء.

لا يختلف شعور مصطفى عنها؛ فهو أيضًا يفتقد وجود الأب في حياته، منذ نعومة أظافره ومعنى الأب لم يكن موجودًا، لم يجد أبًا حقيقيًا يقف بجانبه، يقومه عند الاعوجاج، يسنده في أوقات السقوط، لم يجد سوى أب يرشده إلى الطريق

الأعوج، أب لا يسند إنما يدفع من معه دفعًا ناحية الهاوية، يجره إلى الخطأ بضمير ميت، كلاهما لم يجد سوى أم تحاول التقويم، وكلاهما كان ينحني ناحية الطريق الخطأ بزعم الخروج من الفقر.

يصل بهما الرجل إلى روض الفرج، يترجلان من السيارة، كان كلاهما أهدأ، سألها عن منزلها، أخبرته بمكانه، سار بجانبها حتى وصلا إلى الشارع الموجود به منزلهم، كانت سماح تقف في شرفة المنزل بانتظارها، فقد اقترب الليل من الانتصاف، ولم تعتد تأخرها حتى ذلك الوقت، اتصلت على هاتفها فكان مغلقًا، شاهدتها تدخل الشارع برفقة الشاب الذي كان موجودًا يوم الفرح، خبطت على صدرها خوفًا، لم تعرف ما حدث مع ابنتها.

أوصلها حتى باب المنزل، صعد معها السلم، كانت أمها تنتظر أمام الباب، مد يده يسلم عليها، طلبت منه الدخول:

- تشكري يا خالتي.

- هو إيه اللي حصل؟

كانت ترى نظرات الرعب منحوتة على وجه طفلتها، تحاول عنان أن تواريها خلف وجه متعب مريض، ولكن قلب الأم لم يهدأ، سألت عما حدث:

- مفيش يا خالتي ده بس الآنسة تعبت، وأنا كنت في المحل بالصدفة فالحاج طلب مني أوصلها عشان ما يجرالهاش حاجة في السكة.

- كتر خيرك يا ابني، إيه اللي جرى يا بنتي؟

- دخت يا ماما وأغم عليا.

- مليون مرة أقولك كلي، بس انتي ممقوتة طول عمرك.

- اللي حصل بقى يا ماما.

- حمد الله على سلامتها يا خالتي، أستأذن أنا.

يقولها مصطفى متوجهًا ناحية الباب، تطلب منه سماح الجلوس قليلًا ولكنه يرفض، يود العودة إلى حضن أمه في أسرع وقت، يحتاجها كثيرًا تلك الفترة، يود العودة لكنفها، يسمع كلامها ولا يتركها مجددًا، تودعه عنان بنظرة ممتنة، بعد أن سترها ولم يفضح أمرها، ولكن أمها تشعر بكذب كل منهما، تحاول معرفة الحقيقة من عنان، ولكنها تلتزم الصمت، لا تود أمها أن تضغط عليها، تضمها لصدرها في حنان قائلة:

- سلامتك يا ضنايا، قضا أخف من قضا، حمد الله على سلامتك.

لا تفهم عنان ما تقصده أمها بكلامها، تنظر إليها والكثير من التساؤلات تتقافز من عينيها، ولكنها تحجزها كلها مع سيل الدموع وتذهب لغرفتها.

***

بأحد الفنادق الشهيرة بالعاصمة، مطعم يملك من الفخامة معظمها، موسيقى هادئة، وأناس تبدو عليهم ملامح الرقي والغنى، رائحة العطور الفواحة المختلفة تملأ المكان، تجلس علا مع اثنين من رجال الأعمال، يبدو عليهما الثراء الفاحش، تجلس بينهما وكأنها متسولة تنتظر منهم هبة تسد بها جوعها، يدور بينهما حديثًا قصيرًا، بينما يتناول ثلاثتهم وجبة العشاء:

- انتِي متأكدة إن مفيش حاجة هتعرقل القرض ده يا علا؟

- طبعًا يا كينج ما تقلقش خالص، الورق كله خلص والتوقيعات كلها تمت بمنتهى السلاسة.

- والست الكئيبة اللي اسمها إلهام دي وقعّت؟

- إلهام أول واحدة وقعّت على الورق بتاع سيادتك.

- بالسهولة دي؟ أنا مش قادر أصدق.

- دي حاجة تُحسب ليا بقى يا كينج والمفروض تكافئني عليها، أنا غامرت مغامرة محدش يقدر يتحمل عواقبها، لو كانت إلهام اكتشفت اللي في الورق ده عمرها ما كانت هتوقّع.

- حقيقي أنا مش عارف انتي عملتيها ازاي؟ بس برافو عليكِي، إنتي تستاهلي مكافأة كبيرة.

- كلك نظر يا كينج.

يتوجه الرجل إلى الآخر الجالس بجواره قائلًا:

- معاك الشيك بتاع علا يا نجيب؟

- معايا يا كينج.

تقاطعهما علا بابتسامة واثقة:

- اعذرني يا كينج، أنا عاوزة الفلوس كاش، ماينفعش الشيك.

يقهقه الرجل قائلًا في دهاء:

- مش سهلة انتي يا علا.

- بنحاول نتعلم ونعيش يا كينج.

- ماشي يا علا، هاتاخدي فلوسك كاش، عشان تعرفي تعيشي وتعيشي اللي حواليكي.

- متشكرة يا كينج.

ينهون العشاء والحديث، ويأخذ الرجل أوراقه ويتوجه ثلاثتهم لسياراتهم، تحمل علا حقيبة جلدية ممتلئة عن آخرها بالأوراق النقدية، وتذهب لسيارتها، تجلس خلف المقود، وتفتح الحقيبة، تتأمل رصتها المتساوية، تمرر أصابعها فوقها، تشعر بملمسها، تتنهد بعمق، أخيراً ستتمكن من العيش بكرامة هي وابنتها، ستتمكن من شراء منزل جديد، لن تكون مضطرة لانتظار موعد صرف الراتب الذي تنتظره من منتصف الشهر، لن تكون مضطرة لطلب سلفة أو نقود من أحد، معها الآن ما يكفيها حتى نهاية العمر، ستصرف جزءًا ضئيلًا منه وتدخر الباقي لتصرف منه دون الحاجة لأحد، تنظر لساعة يدها، تحاول الاتصال بابنتها التي لم تهاتفها منذ ذهبت لعيد ميلاد صديقتها، لم تحصل منها على رد "ربما عادت للمنزل" هكذا ظنّت، أدارت سيارتها وتوجهت إلى المنزل، دخلت فكان المنزل صامتًا كئيبًا، قد انتصف الليل ولم تعد ابنتها بعد، شعرت بقلق شديد، حاولت الاتصال أكثر من مرة ولكن دون رد، تحاول الاتصال بإلهام لتسأل عن عودة عائشة، تجد هاتف إلهام مشغولًا، مرة وثانية وثالثة ولا يوجد رد، أصبح الأمر مثيراً للرعب الآن، تشعر بانقباضة في صدرها، ترفع مرتبة السرير وتزيح بعض الألواح الخشبية، تخفي حقيبة النقود بأسفله، وتعيد كل شيء لمكانه، تأخذ حقيبتها وتعود مسرعة لسيارتها، لتحاول البحث عن ابنتها.

***

يعود لجلسته بمقهى لاتيه يتوسط أصدقاءه، يضحك وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنه لم يوشك على ذبح شاه بريئة لولا وجود مصطفى الذي مازال يملك بعض صفات الرجولة التي ورثها عن أمه وتربيتها له، تجلس هي على طاولتها المفضلة في الركن البعيد، ومعها صديقة، لأول مرة لا تكون بمفردها، تتشابهان في الجسد

والعمر المتواري خلف طبقات المكياج، ملابسهما العارية لا تتناسب مع برد الخريف، ولكن دخان الشيشة والإضاءة الخافتة بالمكان، ونظرات كريم ورفاقه تزيد من دفئهما، تضحكان وتتسامران، تدخنان الشيشة بمنتهى المتعة، نظرات متبادلة بين كريم وأحد رفاقه وبينهما، تطور إلى غمزات وهمسات بالشفاه، يقوم كريم من مكانه مقتربًا منهما، يستأذنهما في الجلوس، توافق تالا، يسحب مقعدًا ويجلس، يشير لرفيقه فيشاركهم الجلسة، تتعالى الضحكات من فم تالا بالمكان، رنانة، متذيلة بآهة شهية، يقضمها كريم بقبلة خاطفة، تخجل تالا، فيتبع كريم القبلة بأخرى فوق جبينها، لم تكن تعلم أن المقهى في الليل هادئ ومنفتح إلى هذا الحد، تلك المرة الأولى لها في ارتياده مساءً، يقضمها كريم قضمات متتالية في أماكن متفرقة من وجهها، تبعده عنها في غنج:

- مش خايف حد يتكلم معانا؟

يضحك كريم بصوت عالٍ، ينفث دخان سيجارته في هدوء قائلًا بثقة:

- محدش هنا يقدر يقولي انت بتعمل إيه؟ اللي يفتح بقه بكلمة معايا يمشي فورًا.

- ليه يعني؟ انت مين؟

- أنا كريم.

- أيوه يعني كريم مين؟

- كريم وبس.

- ماشي يا سي كريم وبس، كنا بنقول إيه بقى؟

- كنا بنقول هناكل الحلو امتى يا حلوة؟

- تؤ الحلوة مش للأكل.

- مممم، الحلوة للذواق بس.

- بالظبط كده، عليك نور.

- طيب ما تدوقيني الحتة دي كده.

يقولها كريم ويحيطها بذراعيه محاولًا تقبيلها في أماكن عدة، وهي تتمنع عنه في غنج، يقوم ويمسكها من يدها، يدخل بها إلى ممر ضيق مؤدي إلى منطقة الإدارة ومكتبه الخاص، يلجان للغرفة في هدوء، تشعر تالا ببعض الخوف، لم يسبق أن جلست مع أحدهم في مكان مغلق، كل جلساتها كانت في أماكن مفتوحة لاسيما في مقهى لاتيه، لم تكن تنوي الوقوع في مصيدة التحرر إلى هذا الحد، تبتسم له وملامح الخوف تكسوها، تتذكر قسوة والدها معها، ثوب الفضيلة الذي يرتديه حتى يثبت للجميع أنه على صواب وأن من عداه مخطئ، يقترب منها كريم وقد خلع قميصه عنه، يتحسس جسدها في اشتياق، كانت تتمرد على تربية أهلها المنغلقة بانفتاحها على العالم، تتلذذ بإثارة فتنة الرجال الذين ترى فيهم وجه أبيها، يبدأ بمعانقتها وتقبيل أجزاء متفرقة منها، ترى قسوة عين أبيها، لا مبالاة أمها، لم تكن تستمع إليها، كانت تتركها تعيش بعالمها المغلق دون أدنى محاولة منها في فهم ما يحدث لها من تغيرات، كان كل همها هو النقود وفقط، تستقطبها إليها وتدفع لها كأي رجل يدفع لفتاة ليل لتمتعه، كانت أمها تدفع لها لتمتعها بحبها وطاعتها والتمرد على أبيها، هي الآن تتمرد على كل شيء، العادات، التقاليد، الدين، الحلال، الحرام، الأسرة، المجتمع، تتمرد الآن على كل شيء حتى نفسها، يلقي بها فوق أريكة وثيرة في ركن الغرفة، يجذبها، يمزق ما يستر أجزاء جسدها، تستسلم له دون أي مقاومة، وكأنها تحاول الانتقام مما أجبرت عليه من أبيها وأمها، كانت تفعل

كل شيء بحياتها مجبرة، ستفعل الآن شيئًا جديدًا بالإجبار ولكن طواعية، معادلة غريبة تحسبها بداخل عقلها، تعلم أنها ستكون الخاسرة، ولكن خسارة أمها وأبيها ستكون أكبر من خسارتها وهذ هو ما تنشده.

ينهمك كريم فيما يفعله حتى يقاطعه أصوات عالية تأتي له من الخارج، يتركها ويقوم لرؤية ما يحدث، يرتدي قميصه ويخرج، يجد العديد من رجال الشرطة يريدون اقتحام المكان وتفتيشه.

- خير يافندم؟

- وانت مين بقى إن شاء الله؟

- أنا صاحب المكان أؤمر.

يخرج الضابط ورقة مختومة من جيبه ويمد يده مواجهًا كريم بها.

- ده إذن نيابة بالتفتيش، ادخل يا بني انت وهو فتش وملي كل المقاطيع اللي هنا دول ووديهم على البوكس.

تفيق تالا على فعلتها، كيف فعلت هذا الأمر، أين كان عقلها، تدرك الآن سوء ما فعلت، تدرك الآن نتيجة ما فعلت، تستر أجزاء من جسدها بقطعة ملابس وجدتها بجوار الأريكة، تركض للخارج، تفتح حقيبتها وتخرج منها ملبسًا محتشمًا، تحاول ارتدائه لتستر جسدها كاملًا، تشعر بالبرد الآن، ترتعد حين ترى وجوه رجال الشرطة المقتحمين للمكان، توبخها صديقتها على تركها لها بمفردها، تمسك بيد صديقتها وباليد الأخرى ملبسها المحتشم، تحاول الخروج بسرعة، ولكن رجال الشرطة يمسكون بهما، تصرخ تالا و تلطم الأخرى خديها، يتهدج صوتها وهي تقول:

- ماما هتدبحني، يا رب أموت قبل ماما ما تعرف.

تجلسان بداخل عربة الشرطة، مقيدتان بأصفاد حديدية ثقيلة على أيديهما الناعمة، تنوح صديقتها بينما تجلس هي بثبات ترتسم ملامح مختلطة على وجهها، ما بين خوف وتشفّي، ينظر كريم إليها متعجبًا كيف لها أن تكون بمثل هذا الثبات وهي منقادة إلى قسم الشرطة! فتاة بمثل موقفها كانت ستلطم خديها مثلما تفعل صديقتها التي لم تتوقف عن سبابها طوال الطريق، تتوقف الصديقة عن البكاء وتنظر بعين يائسة إلى الطريق الزاحف خلف مؤخرة السيارة المفتوحة، بحركة مباغتة تقوم من مكانها تجر تالا المقيدة معها ناحية المؤخرة، محاولة إلقاء جسدها المقيد بتالا من السيارة المسرعة، يمسك بها كريم وأحد العساكر الجالسين عند طرف المؤخرة المفتوحة، يسبها العسكري، وتنظر لها تالا بلا مبالاة:

- منك لله انتِي السبب، سيبوني أموت، أنا لازم أموت، ما ينفعش ماما تعرف، سيبوني أموت.

تنهار الفتاة وتفقد الوعي، ينادي العسكري الآخر بصوت عالٍ ويدخل لنهاية الصندوق يخبط الزجاج الخلفي لكابينة القيادة بيده:

- الحق يا باشا، البت أغم عليها.

يتوقف السائق، ويترجل الضابط من الكابينة، يحاول إفاقة الفتاة ساكبًا زجاجة من المياه على وجهها، تشهق وتفيق لتكمل صراخها، يصفعها الضابط قائلًا:

- انتِي هتموتيلنا هنا ولا إيه؟ كان من الأول قعدتي في بيتكم باحترامك بدل النواح ده، اترزعي جنب صاحبتك جتكم القرف.

تستمر تالا في رسم نظرة اللامبالية على وجهها في هدوء وثبات، لم تتأثر بصفع الضابط لصديقتها، لم تهتز لدموع تلك البائسة التي طاوعتها وذهبت معها لهذا المكان في مثل هذا الوقت، تتحرك السيارة مرة أخرى تجاه القسم تخلو من أي صوت إلا صوت نهنهات الفتاة.

***

يعود للمنزل بعد يوم عمل طويل، يجلس في شرفة المنزل مع هاتفه، لم يعد يجول الشوارع بسيارته كثيراً كما اعتاد، بات يجول صفحات الإنترنت وصناديق الرسائل، وجدها طريقة آمنة لممارسة هوايته بعيدًا عن خطر السرقة والقتل، هاتفه الجديد يوفر له محادثات صوتية وفيديو بصورة وصوت نقي، يمارس كل ما يريد دون التعرض لأي خطر، يفتقد فقط لذة اللمسة الدافئة، ولكن لا بأس فخياله يعمل بشكل جيد، الجو هادئ تلك الليلة، ونشوى لم تعد من مكتبها بعد، منة الله في غرفتها كعادتها، يتحدث مع إحداهن التي اعتاد الحديث معها، تخبره بتقدم عريس لخطبتها وأنها تود منه الحضور لخطبتها لأنها لا تحب الرجل الآخر:

- بس انتي عارفة إني لسه ماخلصتش دراستي.

- مش مهم بس تعال اتقدم وأنا هاقنع بابا وماما.

- يا بنتي ما ينفعش أتقدم وأنا لسه بدرس، هاقول لأهلك إيه بس؟ اصبري عليا كلها سنة وأتخرج وآجي اتقدملك.

- أهلي مش هيستنوا عليا سنة يا عزيز.

- ومايستنوش ليه انتِي لسه صغيرة.

- ماهو..

- ماهو إيه؟

- ولا حاجة، هما مستعجلين على جوازي وخلاص.

- وانا مش جاهز دلوقت وماينفعش أتقدم ولا أتجوز دلوقت، أنا لسه بعد التخرج قدامي جيش وحوار كبير، بصي يا بنت الحلال شوفي حالك، وماتربطيش نفسك بيا، أنا لسه قدامي سنين عقبال ما أعرف اتجوزك.

- بس أنا بحبك.

- وأنا كمان بحبك، بس الظروف أقوى مني ومنك، وماينفعش تربطي نفسك بيا السنين دي كلها، إنتِي الحياة قدامك وبيتقدملك ناس كتير، لو الراجل اللي متقدملك ده كويس اقبليه.

- كده يا عزيز؟ هو ده اللي قدرت عليه؟

- أيوه وماعنديش كلام غير ده، وأنا بعفيكي من أي حاجة، وبحذرك ما تحاوليش تتصلي بيا بأي طريقة أو تكلميني تاني عشان ما اضطرش أعمل حاجة تخليكي تندمي على اليوم اللي اتولدتي فيه.

يغلق الدائرة ويذهب لصفحتها ويقوم بعمل حظر لها؛ حتى لا تزعجه برسائلها مرة أخرى، فهو في غنى عن كل ذلك، الكذبة كادت أن تُكشف، بعدما ذهب مع محفوظ لمنزلهم، تعرّف عليها من الوهلة الأولى، حمد الله أنها لم تتعرف عليه، فهو لم يرسل لها سوى صورة واحدة وكانت لمحمود ابنه، أما هو فيحفظ تفاصيل جسدها قطعة قطعة، لم يخبر أحدًا بالأمر، فضّل أن يتمم زيجتها بمحفوظ على أن يفشي سرها لوالدها أو والدتها، هو يعلم أنها لم ترسل له صورها سوى بدافع الحب الذي أوهمها به.

يغلق الهاتف ووخز في ضميره يؤرقه، لم يكن من المفترض أن يهددها، ربما آذت نفسها، وهو لن يفعل شيئًا، ولكن يجب أن تخاف حتى لا تحاول الوصول إليه فينكشف كذبه، يدخل للصالة ويشغل التلفاز باحثًا عن أي شيء يلهيه، تفتح نشوى الباب، عائدة من مكتبها، متعبة جدًا، صامتة جدًا، وهادئة جدًا، تدخل وتجلس على مقعد قريب من الباب، تسأل عن منة الله ومحمود، تخرج منة الله من غرفتها:

- حمد الله على السلامة يا ماما.

- الله يسلمك يا حبيبتي أومال فين محمود.

- نزل يا ماما يقعد مع أصحابه شويه.

- الوقت اتأخر، هو نازل من إمتى؟

توجه حديثها إلى عزوز، فيلتف لها قائلًا:

- نزل الساعة 7، هو استأذني وأنا وافقت، قالي هيدخلوا سينما من 9.

- مش شايف إن عقبال ما حفلة السينما هتخلص هتبقى الساعة عدت نص الليل؟

- اه شايف وعارف بس محمود ما بقاش صغير، وده شاب ومن حقه يخرج مع أصحابه.

- بس مش لنص الليل يا عزوز.

- خلاص يا ستي ما تبقيش تخليه يخرج لوقت متأخر تاني، أقولك ابقي اربطيه جنبك واحبسيه في البيت.

- أنا ماعنديش دماغ للخناق دلوقت يا عزوز.

- ولا أنا بصراحة ممكن ننهي الحوار ده.

- ماشي، اتعشيتوا؟

ترد منة الله:

- اه يا ماما.

- حضرتك مش هاتتعشي؟

- لا يا حبيبتي مش جعانة، أكلت سندوتش في المكتب، ومليش نفس.

- ماشي يا حبيبتي، لو عوزتيني أنا في أوضتي.

تتركهما وتعود لغرفتها تكمل قراءة كتاب عن العلاقات كانت قد بدأته منذ يومين، لها عالمها الخاص المختلف تمامًا عن عالمهم، تشعر بأنها لوحة فريدة رسمها رسام في عصر النهضة الفنية وضعت بالخطأ في بدروم منزل مهجور بحي قديم، لا تهتم بالتكنولوجيا والهواتف الذكية، لا تعرف شيئًا عن العالم الأزرق ومحادثاته، حالمة لم يتلوث عالمها بعد.

تبدّل نشوى ملابسها، وتعود لتجلس بجوار عزوز على الأريكة أمام التلفاز، تنظر إليه كل دقيقة، تحبس كلمات كثيرة تود أن تنساب منها، تعلم أن فيضًا من دموع سيتّبع هذا السيل من الكلمات، الوقت مناسب جدًا، يجب أن تخبره بالأمر قبل أن تتخذ إجراءً قانونيًا، ففي النهاية هم في سن لا يسمح لهم بالوقوف أمام القاضي.

تستجمع شجاعتها، تنحي كل الكلمات والدموع جانبًا، تنطق بكلمتين لا ثالثة لهما:

- عزوز! طلقني.

***

وكأن دلوًا من ثلج سُكب فوق أم رأسه، جيش من نمل يسري بأوصاله، وخزات في مناطق متفرقة من جسده، ثِقَل في لسانه، يُمسك بجانبه الأيسر ناحية القلب، يخرج الكلمات من فمه بثقل كهل يصعد سلمًا رأسيًا، يحاول نبش الماضي بأطراف أنامله، يحاول استرجاع الحب الذي دُفن تحت طبقات من ثرى، يذكرها بأيامهما الحلوة، ضحكاتهما، يحاول إيقاف الزمن، لا يريد لشيء آخر أن يحدث، يقترب منها ويمسك يدها:

- انتِي بتقولي إيه يا نشوى؟

- بقول اللي سمعته يا عزوز، أنا عاوزة اتطلق.

- طلاق إيه يا نشوى؟ هو أنا عملت إيه؟

- هو انت كل ده مش عارف انت عملت إيه؟ بعد السنين دي كلها وبعد الخيانات دي كلها مش عارف انت عملت إيه؟ بعد إهمالك ورميك لينا أنا وولادك مش عارف انت عملت إيه؟ طب انت عارف بنتك عندها كام سنة؟ عارف تقديرها كان إيه؟ عارف هي أصلًا خريجة كلية إيه؟ عارف بتحب إيه وبتكره إيه؟ طب عارف محمود كان نفسه يدخل كلية إيه؟ عارف بيحب ياكل إيه ومابيحبش ياكل إيه؟ انت تعرف إيه عني أنا وولادي يا عزوز؟

- أنا...

- أقولك أنا، إنت ماتعرفش عننا حاجة، إنت يادوب معتبر البيت لوكاندة بتيجي تاكل لقمتك وتنام، فاكر الملاليم اللي بترميهالنا كل ما تقبض دي تكفينا وتغنينا عن وجودك في حياتنا، أنا ساكتة بقالي كتير ومش عاوزة اتكلم بس خلاص ما عادش ينفع أسكت وأرضى بالوضع ده تاني، أنا عاوزة أتطلق يا عزوز، طلقني.

تخرج منة الله من غرفتها وعلامات الخوف ترتسم على وجهها، خائفة من الحاضر والمستقبل، أن تشعر بالبرد أكثر من ذلك البرد الذي يحيط بأسرتهم، أن تتعرى في عدم وجود الأب، ربما لم يكن أبًا مثاليًا ولكنه كان هناك، يدفئ البيت بأنفاسه في الليل، يحميهم من عيون تتربص بهم في النهار، هي تعلم أن والدها رجل محبوب من الجيران، المعارف، والأقارب، لسانه الحلو يجعله كبيراً للكثير ممن حولهم، الكل يعمل له حساب والكثير منهم لا يتخطى وجوده بأي أمر يخصه، تقترب منهم وملامح الخوف تغزوها، تحاول إنهاء تلك المهزلة التي بدأها عزوز وتحاول نشوى أن تكملها:

- بابا! ماما! أرجوكم وقفوا اللي بيحصل ده، ما ينفعش تسيبوا بعض، ما ينفعش تسيبونا.

تقترب منها نشوى في حنان، تشعر بالذعر الذي يسكن قلبها، تربت عليها قائلة:

- محدش هيسيبكم يا منة، بس أنا وبابا ما ينفعش نكمل سوا، إنتِي مش صغيرة وماينفعش نضحك عليكِي بكلمتين زي الأطفال، إنتي متعلمة وواعية وقريب جدًا هايكون عندك بيت وأسرة تديريهم، وأكيد مش هتقبلي بوضع زي اللي أنا رضيت بيه بقالي سنين.

- يا ماما أرجوكِي إدي لبابا فرصة، وهو أكيد هيتغير، هو اتغير أصلًا من يوم ما وقع وتعب وعمل العملية، اتغير يا ماما صدقيني، حضرتك مش بتاخدي بالك إنه بقى يقعد في البيت كتير وبقى يروّح بدري ويجي يقعد معانا، عشان بس حضرتك قررتي تلهي وقتك بالشغل وبقيتي ترجعي متأخر مابقيتيش عارفة إنه بقى يرجع بدري، واتغير عن الأول.

- اسكتِي يا منة انتي مش فاهمة حاجة.

- لا يا ماما حضرتك لسه قايلة إني مش صغيرة، أنا فاهمة كل حاجة وعارفة بابا كان بيعمل إيه وازاي كان بيجرحك بتصرفاته، بس أرجوكِي اديله فرصة تانية عشان خاطري أنا ومحمود.

يضع عزوز وجهه في الأرض بعد كلمات منة الله، ابنته تعرف بخيانته، تعرف أنه رجل لا يؤتمن، لا يصلح أن يكون أبًا، ولكنها رغم كل ذلك تخاف انفصاله عن أمها، "أي شيء في الدنيا أسوأ من ذلك الشعور الآن ياعزوز!" يحدث نفسه في خجل، يلقي بجسده فوق الأريكة مواريًا وجهه بين كفيه، تنساب الدموع من

عينيه كطفل تلقى للتو توبيخًا من أمه، تأخذ نشوى نفسًا عميقًا، وتلقي بجسدها على المقعد المجاور له، بينما تقف منة الله غارقة في دموعها.

***

تراجع كل أحاديثها معه، كل كلمات الحب والشوق المتبادلة، كل حرف حمل مشاعر له، كانت تظن أنه يحمل جزءًا ولو ضئيلًا من الرجولة ولكنه لم يكن سوى وغدٍ آخر يعطي الكثير من الوعود ولا يفي بحرف منها، شهورٌ طويلة من المحادثات الممتلئة بالمشاعر الدافئة، والحروف الكاذبة، تقرأها حرفًا حرفًا، وتذرف الدمع ندمًا على سذاجتها وغبائها، كما تصور نفسها، وتعيش هذا الدور بإتقان، لم تذكر في داخلها كذبها عليه، بأنها أيضًا ماكرة ومخادعة، تراوغ ضميرها بعين بجحة، وحيدة بائسة، تشعر بالخوف من لقب عانس، أختها الصغرى تزوجت بينما لم يطرق بابها أحد سوى ذلك الرجل الخمسيني، يحق لها الحصول على رجل يدللها، يعانقها، يشعرها بأنوثتها التي كادت تفقدها قبل أن تجربها، الكثير من الأعذار الواهية تمنحها لنفسها كي تعيش دور الضحية على أكمل وجه.

تمرر أصابعها على وجهه في الصورة الوحيدة التي تملكها له، وسيم ذو ملامح هادئة، تتحدث معه وتوبخه عمّا فعله معها.

تمسح دموعها؛ فملكات العالم الأزرق لا تبكين، هناك الكثير يرتمي تحت قدميها مقبلًا ومتوددًا، تفتح صندوق الرسائل، تمارس عادتها بالتجول بين الرسائل واختيار شخص لائق تتحدث معه وتقضي الليلة في الحديث بدلًا من جلستها وحيدة، تنتقي أحدهم تسترسل في الحديث، تتبادل معه الصور والضحكات، أعادت أخطاءها بمنتهى الدقة، مقنعة نفسها بأنها لا تخطئ فهي تعرف هذا الرجل منذ عامين وأكثر على تلك الصفحة، يتخطى الليل انتصافه بقليل، تشعر

بالنعاس، تنهي الحديث مع ساكن مملكتها المختار بقبلة في صورة ساخنة، تغلق صندوق الرسائل، يرن هاتفها برقم غريب، تجيب في تردد لتجد محفوظ على الناحية الأخرى، يحاول جذب أطراف الحديث معها، كان النعاس يغلبها، ولكن لا بأس ببعض كلمات الغزل من زوج المستقبل القريب، كانت قد اتخذت قرارًا بالموافقة بعد خذلانها من عزيزها، ترى أنها ستنتقم منه بهذه الطريقة، سيعود بعد فترة يطلب منها السماح ليجدها قد أتمت خطبتها وأوشكت على الزواج، هكذا ستثبت له أنها مرغوبة بالفعل وأنها لم تكن تكذب عليه حين أخبرته بأمر العريس المتقدم إليها، سيشعر بالغيرة حينها ويتقدم لها، خطة مدهشة وضعتها بمنتهى السذاجة، وتنفذها بمنتهى الغباء، تمارس أنوثتها على محفوظ، الذي يتحول معها إلى صبي يسترجع ذاكرته القلبية، يسمح لنبضاته أن تزيد كمراهق في السابعة عشرة، يطلق عليها رجولته الكامنة خلف عمره الحقيقي، يمارس معها ما اعتاد أن يحرّمه ويمنعه عمن حوله، الحرية الكاملة سأمنحها لكِ هكذا أخبرها:

- مش هتقولي اقفلي الفيسبوك وماتدخليش تاني؟

بكذب مطلق يجيبها:

- لأ طبعًا مش همنعك من حاجة، أنا داخل حياتك عشان أسعدك وتسعديني، مش عشان ننكد على بعض.

- كلام جميل أتمنى يتحقق.

- هيتحقق، وهخليكي أسعد واحدة في الدنيا، بس برضه لازم تطيعيني، وماتعمليش حاجة تزعلني.

- طبعًا ده أكيد، ما تقلقش من الناحية دي خالص.

- مش عارف ليه يا آنسة عليا أنا حاسس بحاجات غريبة من ناحيتك.

- حاجات غريبة إزاي؟

- مش عارف كده، حاسس بمشاعر غريبة كده كان بقالي كتير مابحسهاش.

بحس امرأة تحمل الكثير من الخبرة في عالم الرجال، تشعر بزهو؛ فقد سقط الرجل في شباك حبها من المكالمة الأولى، فترد بدهاء:

- تقصد مشاعر حب مثلًا؟

- تقريبًا كده والله أعلم.

تضحك علياء، وتسأله:

- طيب ودي حاجة حلوة ولا وحشة؟

- حلوة طبعًا، حلوة جدًا.

- طيب ممكن بقى تبطل تقولي يا آنسة علياء؟ عشان أنا مش هاعرف أقولك يا أستاذ محفوظ.

- اتفقنا.

- تعرف محفوظ دي تقيلة قوي في الكلام، أنا هسميك محفوظي أو زوزي إيه رأيك؟

- رأيي إنك تقولي اللي انتي عاوزاه، أنا شايف إني بقيت محظوظ مش محفوظ.

تقهقه هذه المرة، تشعر بالألفة معه، لا بأس به كرجل في مثل سنه يحتفظ ببعض تفاهة الشباب، لم يكن يبدو كذلك حين رأته في المقابلة، كان رزينًا جدًا، عبوس الوجه، حاد الملامح، جاد الطباع، لم تعرفه لوقت كافٍ ولكنها استطاعت أن تحكم عليه من خلال تجاربها المتعددة، يسترسلان في الحديث، باتت تشعر بالراحة معه، وربما تركت كل شيء لأجله، يمنحها الطمأنينة والأمان عن بعد ومن

أول مكالمة ماذا إن بقيت زوجته وبات رجلها، حتمًا لن تحتاج لشيء آخر من الدنيا، يغمرها الأمان حتى شعرت برغبة في النوم تحت وطأة تلك الطمأنينة التي تلفها، لا تريد إنهاء المكالمة وترك هذه الليلة تنتهي، يرن هاتف محفوظ الآخر، ينظر للشاشة فيجد رقم إلهام، يتركها ويكمل حديثه الممتلئ بالحب مع علياء، تكرر محاولات اتصالاتها، في المرة الثالثة يعتذر محفوظ من علياء ليجيب على إلهام، تسمع علياء صوته يأتيها مذعورًا:

- إنتِي بتقولي إيه؟ أنا مش فاهم حاجة، مالها عائشة؟ طيب طيب أنا جاي حالًا.

يغلق الخط المفتوح مع علياء على عجل، تغضب لفعلته، تحاول الاتصال به ولكن دون جدوى، فهناك ما هو أهم منها الآن، تيأس من محاولات الاتصال، تدرك أن مكروهًا ربما قد حدث لابنته، تعذر فعلته، تهم بغلق الهاتف والخلود للنوم، كانت تتمنى النوم على صوته الحنون، ولكن الأمور لم تسر على ما يرام تلك الليلة، إشعار قادم برسالة من حساب غريب يود محادثتها، الحساب دون صورة، تفتح الرسالة في فضول لمعرفة فحواها قبل النوم، تتسارع ضربات قلبها بشكل لم تختبره من قبل، تشعر وكأنها عارية تمامًا يتطلع الناس إليها، هي حقًا عارية، تبرز أجزاء لا بأس بها من جسدها المكتنز، تبتسم بطريقة مثيرة، يرسل المجهول المزيد من الصور لتجد نفسها في كثير من الأوضاع المثيرة، مع رسالة تهديد بالفضيحة في النهاية إن لم ترسل له مبلغًا ماليًا ضخمًا أو المزيد من الصور سوف توزّع على أفراد عائلتها وأصدقائها التي تمتلئ بهم صفحتها، ترتجف رعبًا، لا تعلم ماذا يمكن أن تفعل! الفضيحة قادمة لا محالة، يجب أن تجد حلًا، عقلها مشلول، لا شيء فيها يعمل سوى قلبها الذي يضخ الدم بغزارة، صدمة كبيرة لتلك الضحية ولكنها لن

تكون أكبر من صدمة أمها الحاجة التي لا تترك كتاب الله من يدها، تقوم بحظر المرسل وتمسح جميع الرسائل، ترتجف يدها، المزيد من الرسائل من صفحات مجهولة كلهن هي عارية، كلهن فضائح، كلهن موت بطرق مختلفة.

***

يسير بمحاذاة النهر، يستقل قدميه ليصل إلى المنزل، لا يريد لشيء أن يمنع السماء عنه، يتحدث كثيرًا إلى نفسه، النهر، والسماء، يبوح بما لم يبح به من قبل، يعري نفسه أمام نفسه، يعترف بأخطائه، وعيوبه، وحبه لعنان، يدرك الآن أنه يحبها كما لم يحب أحدًا من قبل، حب من أول عناق غير مرتب، حب من أول صدفة، النظرة الأولى كانت تحمل أسهم كيوبيد التي لم تخطئ التصويب أبدًا، يسرع الخطى ويدع هواء الخريف يخترق جسده، يريد أن يتطهر من أخطائه، يعود مصطفى الطالب بالثانوية، الذي يحمل آمال أمه على كتفيه ويضع أمنياتها أمام عينيه، يرتاد كلية الحقوق ليعمل مع الأستاذة نشوى بالمكتب كما كانت تخطط له، شخصًا محترمًا يدافع عن الأبرياء، يمارس القانون لا يخترقه، ترتسم صورتها أمامه ممسكة بيده تحتمي وراء ظهره، يبتسم ويغضب، يعبر الجسر المعدني الذي يربط ضفتي النيل ببعضهما، ويربط قلبه بقلبها، لا يعلم إن كانت تحبه، لا يجزم أنها يمكن أن تحبه، ولكنه متيقن من النظرة التي رمقته بها أثناء خروجه من منزلهم، كانت نظرة مختلفة عن سابقاتها.

يصل لمنتصف الجسر، ينظر لمياه النهر المتدفقة بالأسفل، يراقب حركتها، دوامات كثيرة متقاطعة، يشعر بأنه يرى حياته الصغيرة بداخلها، الصراعات، الجري، الحشيش، أبيه، المخبر، أمه، نشوى، تهامي، كريم، عنان، المطواة، مقهى لاتيه، نباح الكلاب، سائق التاكسي الذي أوصله مع عنان، كلام ذلك الرجل كان

مؤثرًا جدًا بقلبه ومشاعره، عام وبضعة أشهر كانت كفيلة بتغيير كامل في حياته، وجعله شخصًا آخر غير الذي كان يحب، لو عاد به الزمن لتبرأ من والده ومن المعلم تهامي، ومن الشقاوة والإجرام، لو عاد به الزمن لتنصل من تجارة السم الملفوف بالسوليفان الأحمر يخفي خلف بهجة لونه ألمًا وعذابًا ومرضًا، لو عاد به الزمن لسمع كلام أمه.

يكمل سيره حتى يصل لنهاية الجسر، يقترب من منزله وحضن أمه سيلقي بكل ما يحمله تحت قدميها، لا يطيق الانتظار ليرى عينيها حين يعود إليها تائبًا نادمًا معتذرًا عن كل ما فعل، يخرج هاتفه من جيبه في لهفة، يطلب رقمها، ينتظر إجابتها في شغف، قلبه ينبض بسرعة حبًا، يشعر وكأن العالم يحتضنه مرة أخرى بعد لفظه له لسنوات، تجيبه أمه في لهفة لا تقل عن لهفته وكأنها تنتظر تلك المكالمة منذ شهور:

- إيه يا ضنايا إزيك؟

- الحمد لله ياما، إنتي عاملة إيه؟ كويسة يا حبيبتي؟

- كويسة نحمد ربنا ونشكره على نعمته.

- طيب أنا جاي أبيت معاكي تحبي تتعشي إيه؟

- أنا اتعشيت يا حبيبي.

- لا لازم تتعشي معايا، أنا عاوز آكل معاكي، أجيبلك كباب وكفتة؟

- طب إيه رأيك انت أطبخلك أنا.

- لا أنا مش عاوزك تتعبي أنا عاوز أريحك، هاجيبلك كباب وكفتة وفراخ إنتي بتحبي الفراخ.

- ماشي يا ضنايا، ما تتأخرش، وخد بالك من نفسك الليل سرى والمقاطيع بيملوا الشوارع.

- ماتخافيش عليا يا اما أنا مصطفى برضه، هاجيب الأكل وأجيلك على طول.

ينهي المكالمة ويحمل بداخلة طاقة حب يمكنها أن توقف جميع حروب العالم وشروره، يعدو ويقفز كالأطفال في طريقه إلى مطعم الحاتي، يتذكر طفولته حين كان يسير بجوار أمه في هذا الطريق ذهابًا وإيابًا من المدرسة، يمر بجوار مطعم الحاتي الذي تجذبه رائحة مشوياته الشهية عن بعد، يَمنّي نفسه بقطعة كباب، أو إصبع من الكفتة، بينما كانت أمه تقول أن الدجاج المشوي على الفحم شهي ولذيذ أكثر من أي شيء بالدنيا، يبتسم ويكمل طريقه، على بعد ناصيتين كانت إضاءة المطعم تنير الشارع، وصوت الأغاني الشعبية الصادحة من داخله تتجاهل سكون الليل وصمته، متسببة في أرق للمنطقة المحيطة.

نباح كلاب متواصل يصل أذنيه من الناصية الأولى المظلمة، صراخ فتاة، وأصوات متداخلة، يجري ناحية الصوت، شاب يقف أمام مجموعة من ثلاثة فتيان، وفتاة تحتمي خلف ظهره، يتذكر ما حدث منذ قليل، ولكن هذه المرة أحد الثلاثة هو من يشهر المطواة في وجه الشاب المدافع عن الفتاة التي تستمر بالصراخ، وتطلب منه أن ينجو بنفسه، ولكنه مصر على الوقوف لهم، يحاول أحد الفتية الإمساك بالفتاة فتزيد من صراخها، يتقدم الشاب ناحيته ممسكًا يده، يلمح مصطفى المطواة الثانية تُفتح وترتفع لأعلى، يعدو بأقصى سرعته، تنخفض المطواة بالقرب من رقبة الشاب، البعض يفتح النوافذ من المنازل المحيطة، صوت صرخات متفرقة يأتي من عدة نواحٍ، يلهث مصطفى وتتقطع أنفاسه، يريد أن يصل قبل أن يقع الأمر، هو يعرف هؤلاء الثلاثة، لن يتوانى أحدهم عن غرس المطواة في

جسد ذلك المسكين الذي لن يستطيع تفادي ضربته، مظهره يدل على أن الشارع لم يكن له دخل في تربيته كما رباه هو وهؤلاء الثلاثة، لن يشعر أيهم بأي تأنيب ضمير إذا أصابوا الشاب، المخدرات تفعل أكثر من ذلك، يكمل عدوه حتى يصل إلى خمستهم، يلمح دمعة فارة من عين الشاب الذي ما إن لمحه حتى استنجد به:

- الحقني يا مصطفى!

يرتبك عند سماع اسمه، الشارع مظلم لا يمكّنه من معرفة ملامح الشاب بشكل دقيق، ولكنه يعرفه - يعلم ذلك جيدًا - ذلك الوجه قد قاسمه مقعد خشبي واحد في الفصل طوال 6 سنوات، إلا أنه تغير قليلًا؛ طالت قامته واعرضّ جسده، ونما له لحية وشارب خفيفين:

- محمود!

صغيرة جدًا الدنيا، ما الذي جاء بك إلى هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل يا محمود، هل وجودك إشارة من الله، هل تقبّل مناجاتي فعلًا! قالها مصطفى لنفسه محاولًا إبعاد الفتية عن محمود، ولكن يده لم تعينه في الوقت المناسب، فقد هوى أحد الفتية بمطواة على رقبة محمود، تبعها بطعنات متفرقة في صدره وجسده، عدا الفتية الثلاثة بينما سقط محمود أرضًا حاول مصطفى اللحاق بالثلاث ولكنه لم يفلح، عاد مسرعًا نحو محمود الغارق في دمائه، الفتاة تجلس بجواره أرضًا تبكي عليه، تجمع الناس حولهم، وأصبح الشارع مزدحمًا، لا أحد يعلم من يكون هذا الشاب، يرتبك مصطفى لا يعلم ما يمكنه أن يفعل، يتصل أهل المنطقة بالإسعاف في محاولة لإنقاذ محمود، يخرج مصطفى هاتف محمود من جيبه ليهاتف والدته، ولكنه لم يستطع فتحه، يفكر فيما يمكن أن يفعل الآن! عقله مشلول.

***

سنوات العمر تمر أمام عينيها، شبابها الذي اقترب من النهاية، أطفالها الذين لطالما حاربت العالم من أجلهم، مراقبتها لهم وهم يكبرون، حتى أصبحا شابين يعتمد عليهما، عروس في عمر الزواج، وعريس في الجامعة ستطوى السنوات بسرعة حتى يصبح رجلًا تعتمد عليه في حياتها وتستند عليه في أيامها القادمة، الوحدة لم تكن يومًا اختيارًا جيدًا أو سهلًا، ولكنها دومًا الاختيار الأنسب حين تضيق بك الدنيا وتضغط عليك، تجد فيها ملاذك رغم خوفك منها، هي الوحش الحنون الذي يربت على قلبك، ويحميك من العالم السيئ، الصمت يخيم على منزلهم الآن، البرد يلفهم لفًا، عزوز مازال على جلسته ومنة الله تختبئ بغرفتها خوفًا من مارد الانفصال، وخزة تصيب قلبها، سكين تلمه تمزقه بلا هوادة، شيطان الخوف يراود عقلها عن هدوئه، أفكار جنونية تصيبها، تشعر برغبتها في سماع صوت صغيرها، تمسك هاتفها وتطلب رقمه، يأتيها صوت الجرس متقطعًا، وخزات متقطعة تتناسب مع صوت الجرس تصيب قلبها، لم يصلها رد من محمود فتعيد الكرة مرة واثنتان وثلاث، ولا يوجد مجيب، في المرة الرابعة أتاها صوت لاهث، وكأنه قد صعد توًا قمة جبل، يحمل خوفًا رهيبًا استطاعت أن تستشعره منذ الوهلة الأولى:

- أبلة نشوى!

- انت مين؟ مش ده تليفون محمود؟

- أنا مصطفى.

- مصطفى مين، وابني فين؟

- مصطفى يا أبلة نشوى ابن أم مصطفى اللي بتشتغل عندك في المكتب.

- مصطفى! وإيه جاب تليفون محمود معاك!؟

- أصل.. أصل، بصي إحنا في الطريق للمستشفى دلوقت وإن شاء الله يفوق ويبقى كويس.

- هو مين ده اللي يفوق؟ إنت بتقول إيه؟ إبني حصل له إيه؟ انطق رد عليا.

يفزع عزوز مما يسمع، يلتقط الهاتف من يد نشوى ويكمل المكالمة مع مصطفى، تخرج منة الله من الغرفة تلطم خديها تتساءل عما حدث لأخيها، تفقد نشوى اتزانها، تسقط أرضًا، يحاول عزوز مساعدتها على الوقوف، تدفع يده بعيدًا عنها، تنادي منة الله:

- تعالي يا بنتي ساعديني أغير هدومي.

يحاول عزوز التفاهم معها، تدفعه مرة أخرى:

- ابعد عن وشي يا عزوز، لو ابني جراله حاجة مش هاسامحك ليوم الدين، إنت اللي وافقت انه يخرج لوقت متأخر كده.

لا يسع عزوز سوى الصمت، لا يجد كلمات يمكن أن تعبر عن الحسرة هذه المرة، لو أصاب محمود سوءًا سيكون مسئولًا عنه بالتأكيد، لن يسامح نفسه أبدًا.

لم يقوَ على قيادة السيارة ولا نشوى استطاعت، استقلا سيارة أجرة، جلس بجوار السائق شاردًا، تذكر حديثه مع الشاب الذي ركب معه هو والفتاة في أول الليل، اكتشف تقصيره مع أبنائه متأخرًا:

- ليه يا رب خليتني أفوق متأخر، نجيه يا رب وأنا مش هغلط تاني، هاخد بالي منه ومن بيتي، أنا ندمت يا رب، ندمت وجايلك وأنا كلي يقين إنك هتستجيب، نجيهولي يا رب وحياة حبيبك النبي.

***

يعلم جيدًا أنها لا تملك شجاعة كافية للرد على مكالمته بعد اعترافها له بكم هذه المشاعر التي كانت تخفيها منذ سنوات، يكرر محاولات اتصاله دون رد منها، فيرسل لها رسالة قصيرة على الهاتف، المكان الوحيد الذي يمكن أن تستقبل رسائله عليه:

- ردي يا إلهام أرجوكِ، ده أنا لما صدقت تتكلمي.

تقرأ رسالته وتزداد نبضات قلبها، يزداد ارتجاف يدها مع اهتزاز الهاتف مجددًا، تطمئنها رسالته قليلًا، لن تحصل على خذلان ولن تضطر لإنهاء حياتها، ستعيشها كما تتمنى منذ سنوات، تستقبل المكالمة في تردد، لا تريد أن تظهر كشخص وجد الفرصة أخيرًا، بعض الدلال والرزانة لن تضر، تهمس له في خجل:

- ألو..

- بحبك.

- مكرم أنا..

- مش عاوزك تقولي حاجة، أنا عاوز أتكلم وتسمعيني، أنا بقالي سنين بتمنى وبحلم باللحظة دي، أنا بحبك، وما حبتش حد غيرك، كنت بحاول أقنع نفسي إني بحب وفاء، وبحاول أكون مخلص ليها، بس في الحقيقة أنا ما حبتش ولا هاحب حد غيرك يا إلهام، إنتي حب عمري اللي بتمنى أموت وأنا بين إيديها.

- وليه ما قلتش من زمان؟ ليه يا مكرم؟

- خفت، خفت تبعديني عنك، فضلت إني أفضل جنبك كزميل وصديق أحسن ما أخسرك للأبد.

- طب وهانعمل إيه دلوقت؟

- مش عارف يا إلهام، أنا مش عارف حاجة غير إني بحبك، ممكن ما نفكرش في أي حاجة دلوقت، ما تضيعيش جمال اللحظة دي أرجوكِي، كفاية قوي السنين اللي ضاعت مننا.

تصمت إلهام مقتنعة بكلام مكرم عن اغتنام اللحظة، تلك اللحظة التي حلم بها كلاهما، حلم طال زمنه، لم يكن في الحسبان أن يتحقق حتى اقترب من التلاشي، جنين كادت أن تجهضه بعد أن كبر ونما، شغف قارب على انطفاء بريقه في عيني مكرم، أشعلته إلهام في اللحظة المناسبة، قضيا الليلة في دفء لم يشعرا به خلال سنواتهما العشر الأخيرة، ذابت كل الحواجز وانهدمت كل الجدران، لم يبق في الكون سوى هو وهي وحبهما والدفء الناشئ بين ضلوعهما، لدرجة أنها نسيت تمامًا أمر صغيرتها التي لم تعد للمنزل رغم تخطي الليل منتصفه.

***

تقود علا سيارتها في جنون، تقلب الشوارع رأسًا على عقب، تبحث عن صغيرتها، لا تفارق سماعة الهاتف أذنها تحاول الاتصال بها علّها تجيب ويطمئن قلبها، تكرر الاتصال بإلهام ومازال الخط مشغولًا، تصل إلى منزل وفاء – ابنة خالتها – تستقل المصعد، تطرق الباب، وتضغط زر الجرس، تستيقظ وفاء من النوم مفزوعة، ويجري مكرم ناحية الباب، يفتح لها وإلهام مازالت معه على الخط:

- الحقني يا مكرم!

- في إيه يا علا مالك؟

- ريناد نزلت من بدري تحضر عيد ميلاد صاحبتها ومارجعتش لحد دلوقت وتليفونها جرس ومابتدرش، أنا خايفة يكون جرالها حاجة.

- طيب ادخلي بس واهدي وأنا هغير هدومي وانزل معاكي ندور.

تصل كلمات علا لأذن إلهام المنتظرة على الخط في الناحية الأخرى، تتذكر عائشة تخبط صدرها بيدها، وتلوم نفسها كيف نسيَت ابنتها! تبًا لحب سيتسبب في ضياع ابنتها، تغلق الخط وتجري ناحية غرفة البنت، وكأنها تريد أن تجدها قد عادت دون أن تلحظ، ولكنها لم تجد بالغرفة سوى الهواء البارد الناتج عن ترك عائشة للنافذة الخشبية مفتوحة، تجري إلهام لغرفتها تُغير ملابسها بسرعة، تقوم بالاتصال بعلا، تفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث للبنات، تجيبها علا وسط بكاء شديد:

- ما اعرفش، هي قالتلي كافيه في وسط البلد ما قالتش اسمه.

- ولا عائشة كمان قالت اسمه، أنا مش عارفة هاعمل إيه أبوها لو عرف هيبهدلني.

- كلمي أبوها يا إلهام وننزل ندور كلنا نقلب وسط البلد لحد ما نلاقيهم.

تجري إلهام ناحية سيارتها، تحاول الاتصال بمحفوظ، هاتفه مشغول هو الآخر، مع من تتحدث الآن يا محفوظ! ليس وقت مكالمات طويلة، تحاول مرة فالثانية فالثالثة، يجيبها محفوظ أخيرًا، تخبره بالأمر، يغلق الخط بوجهها بعد أن أخبرها بقدومه، تقود دون وعي، تصل بالقرب من منزل مكرم، تهاتف علا، تخبرها بمكانها يتحرك ثلاثتهم كل منهم بسيارته متجهين لوسط المدينة في رحلة للبحث عن البنات، في منتصف الطريق يهاتفها محفوظ تخبره بوجهتهم ليلحق بهم، يتفرق الأربعة بحثًا عن الصغيرات، تتلقى إلهام مكالمة من هاتف عائشة تلتقطها بسرعة:

- ماما! أنا في القسم، وبيقولوا إنك لازم تيجي انتِي وبابا.

تلف بها الدنيا، يكذّب عقلها ما سمعته للتو، تتمنى لو كان حلمًا سخيفًا ستفيق منه بعد الفجر، تركن سيارتها على جانب الطريق، تحاول تهدئة روحها:

- إنتِي فين يا عائشة؟ مش سمعاكِي يا حبيبتي.

- أنا في القسم يا ماما، مقبوض عليا.

ترد عليها عائشة بثبات عجيب، لا يتناسب نهائيًا مع موقفها، تحاول إلهام اكتشاف الخدعة التي تحاول عائشة نسجها عليها:

- يا عائشة ماتهزريش أنا هاتجنن، وما تخافيش مش هزعق ولا هعملك حاجة أنا بس عاوزة أطمن عليكِي.

- أنا مش بهزر يا ماما، أنا فعلًا مقبوض عليا، ولازم حضرتك تيجي إنتِي وبابا.

تقول عائشة جملتها الأخيرة وتغلق الخط، يرن هاتف إلهام برقم علا التي تخبرها بالمكالمة التي أتتها من ظابط شرطة اتصل بها ليخبرها بأمر القبض على ريناد التي خافت الحديث مع أمها.

تدرك الآن أن الأمر ليس مزحة ولا خدعة تقوم بها صغيرتها لتلافي العقاب على تأخيرها، تنساب الدموع من عينيها، وتشعر ببرد يثقل كاهلها، تهاتف محفوظ ليأتي إليها، فلم تعد قادرة على القيادة، تنتظر على جانب الطريق ككم مهمل في حياة تسير بلا مبالاة لها، لا يلحظ وجودها أحد ولا يهتم أحد لانتظارها، تبكي وتنوح على ما يحدث معها، تدرك الآن أخطاءها، العقاب أتى سريعًا جدًا، موجعًا جدًا، يقترب محفوظ بسيارته، تغلق سيارتها تجلس بجواره، صامتة لا تنطق بكلمة، فقط أخبرته بوجهتهما، إلى قسم قصر النيل.

***

قاعة كبيرة مهيبة، تتوسطها المنصة العالية تقف في شموخ وصمود منذ أن بنيت في مكانها منذ عقود، على يسارها قفص حديدي خانق، يحبس أبدان مرتجفة خائفة من مصيرها القادم، يحمل كل منهما عبئًا ثقيلًا من الدموع، ويلات حرب عاتية تعصف بكل منهم، أمام المنصة يجلس ذووهم في صفوف متراصة، يجلسون في صمت مطبق، الحسرة عنوانهم، الندم ملاذهم، يترقبون دخول القاضي الذي سيحكم في القضية رقم 545 جنايات الشهيرة بقضية "مقهى لاتيه" العديد من المراسلين الصحفيين، يملؤون القاعة، تحول القضية من قضية جنائية عادية إلى قضية رأي عام أثارت ضمير المجتمع، محطات التلفاز تتسابق بكاميراتها لنقل الحدث.

الحضور كثيف، القاعة ممتلئة عن آخرها، تجلس سماح إلى جوار عنان ومصطفى وأمه في مقعد قريب من المنصة، الهدوء سمتهم والحذر حليفهم، الخوف يتربص بقلب مصطفى وأمه، بينما الطمأنينة تتملك عنان، الحمد والرضا يبدوان واضحان على وجه سماح التي جلست ممسكة بيد ابنتها، يجلس خلفهم محفوظ وإلهام تحيطهما هالة من الندم والخوف من القادم، محفوظ مازال محتفظًا بقناعه الصلد، وإلهام مازالت تحاول التماسك، مالت كفة القدر وارتد لها ما لم تزرعه في صغارها على مدار عمرهم؛ الإيمان والرضا بالموجود، تفتقد

وجود حمزة ودفئه، كانت تود لو تستند عليه في مثل هذه الظروف، ولكنها لم تجد سوى كتف محفوظ الذي شعرت بميله ووهنه، فلم تقدر حتى على التفكير في الاستناد عليه، تجلس علا في المقعد التالي لهما تحمل حقيبة عمرها الفارغة، يمتلئ بيتها بالنقود، وتخلو حياتها من الأمان والحب، على وشك أن تفقد وحيدتها التي كانت تصبّرها على الوحدة، على وشك أن تفقدها رغم امتلاكها للكثير من المال، تجلس مدركة أن المال لن يستطيع أن يشتري لها بنتًا مصونًا غير التي أوشكت على الضياع، تجلس بجوارها وفاء، تحمد الله على بور رحمها، الذي منحها حياة تخلو من مشاكل الصغار العظيمة، تحاول أن ترى حياتها لو كانت بها ابنة مثل ريناد هل كان مكرم ليسامحها! تنظر لوجه مكرم العابس، تتأمل ملامحه الغاضبة، تتنهد بعمق مربتة على يد علا التي تنساب الدموع منها دون توقف.

على الناحية الأخرى تجلس نشوى متشحة بالحزن، تبدو أكبر من سنها بعشرات الأعوام، كهلة أوشكت روحها على التحرر، تحمل حقيبة ممتلئة بالأوراق، والخيبة والسنين الهاربة من تحت قدميها، تجاورها منة الله تحمل همًا لا يقل عن هم أمها وربما يزيد، تتدثر بشال أسود، تعانقه بذراعيها، تحتمي به من البرد، العديد من المعارف والأقارب، يجلسون بجوار الحاجة سليمة المتشحة بالسواد، لا تفارق السبحة يمناها ويسراها تقبض على كتاب الله، محاولة أن تستمد منه المدد والعون على تخطي تلك الفترة القاسية، الممتلئة بأحداث تزيدها عمرًا فوق عمرها، أسماء العروس التي لم تهنأ بفرحتها، تجلس إلى جوار أمها صامتة من الخارج، يعصف داخلها بالكثير، تعبث بهاتفها محركة الرأي العام عبر صفحة علياء بالعالم الأزرق.

ملامح الحزن تكسو وجوه البعض، بينما ملامح الغضب تكسو ملامح البعض الآخر، يدخل الحاجب وفي يده يحمل جدول القضايا التي ستنظر هذا اليوم، يقف الجميع بعد نطق الحاجب لكلمة "محكمة".

قاضٍ عادل هو كل ما ينشده ممثل ادعاء النيابة الذي يجهز بأوراقه التي تدين من بالقفص الحديدي، والذين سيطالب لهم بتوقيع أقصى العقوبة، لقيامهم بأعمال منافية للدين والعرف والآداب العامة، على اختلاف قضاياهم ودوافعهم.

يدخل القاضي يتبعه مستشاروه، يتخذ كل منهم مجلسه على مقعده المخصص له على المنصة، يشير القاضي طالبًا جلوس الحضور، يومئ للحاجب الذي يبدأ بالنداء على القضايا، ينتهي ممثل النيابة وممثلو الدفاع من مرافاعاتهم وتقديم مستنداتهم وأوراقهم التي تفيد موكليهم، يصل الحاجب إلى القضية رقم 545 جنايات، المتهم فيها كل من:

سلامة عبد الصبور حجازي "متهم أول" تهامي حسن عبد العزيز "متهم ثانٍ" كريم سلامة عبد الصبور "متهم ثالث" وآخرون حتى يصل إلى المتهم "الخامس عشر" عائشة محفوظ علي الدين سعد، والمتهم "السادس عشر" ريناد سعيد عبد التواب محمد، هرج ومرج يحدث بالقاعة، بعد نداء القاضي على أسماء المتهمين جميعًا، شهقات متواصلة من قلوب الأمهات المنفطرة على ما وصل إليه أبناؤهم وبناتهم، يخبط القاضي على منصته طالبًا الهدوء من الحضور، يكتم الجلوس أصواتهم، ويكتم الجالسون خلف القضبان صرخاتهم، يطلب القاضي من ممثل النيابة البدء في سرد وقائعه، يتلو على الجميع ملخص القضية التي

تتمثل في شقين أحدهما تجارة المخدرات والمتهمون فيها على الترتيب سلامة عبد الصبور، تهامي حسن، كريم سلامة وآخرون، والشق الثاني يتمثل في قضية منافاة الآداب العامة والمتهم فيها عائشة محفوظ وريناد سعيد وآخرون، يتلو ممثل النيابة مذكرته على القاضي والحضور، يلقي بكلماته كرصاصات تصيب قلوب الجالسين، وحوش آدمية تجلس خلف القضبان، عاهرات متمرسات تتوارى خلف ثياب الفضيلة، تجار سموم وأعراض، ينخرطون بالمجتمع ويبثون فيه سمومهم القاتلة، يعبثون بعقول الصغار، وأعراضهم، يثيرون شهواتهم، ويستغلون ضعفهم، شياطين صغار يستغفلون آباءهم، أجساد رخيصة مباحة لمن يدفع أكثر، أنهى ممثل النيابة ادعائه ملقيًا بالعديد من التهم فوق كاهل الجالسين جميعهم خلف القضبان وأمامها، يبدأ القاضي بالنداء على الشهود، الشاهد الأول يجلس في الصفوف الأمامية، مصطفى عيد الخشاب، يقوم ليحلف اليمين، يسأله القاضي فيرد بأنه المبلّغ عن مقهى لاتيه وما يحدث به، وأنه المبلّغ عن تهامي ولم يكن يعلم حينها أن العقل المدير لكل ذلك هو الرجل الذي ترتسم ملامح التقوى على وجهه، الرجل الذي لا يترك السبحة وكتاب الله من يده، لم يكن يعلم أن تحت قبة الحاج التي يسكن تحتها هذا الرجل بئر من التجارة الحرام، لم يكن يعلم سوى أنه يريد أن يتطهر مما كان يفعل، ربما كان سيتغاضى عن كل شيء، لولا أن آذاه الحاج سلامة بعد أن تم القبض على كريم متلبسًا بكمية ضئيلة من المخدرات والتي كانت ستجعل من قضيته مجرد قضية تعاطي، إلا أن ما فعله معه الحاج سلامة من أذى بتسليط بعض أعوانه لمحاولة قتله التي لم يكن لينجو منها لولا دعاء أمه ووجوده في المستشفى مع المسكين محمود الذي لفظ أنفاسه على يديه بعد أيام قليلة من محاولاتهم لإنقاذه، إلا

أن قدر الله كان محتومًا، ينهي مصطفى شهادته بعد أن أخبر القاضي والحضور بكل شيء يعرفه عن تلك القضية، تتابع الشهود واحدٌ تلو الآخر بعضهم ينفي والبعض الآخر يثبت، ينتهي ممثلوا الدفاع عن الشق الأول في القضية ويأتي دور ممثلي الشق الثاني فتتقدمهم السيدة نشوى الصياد بصفتها موكلة عن كل من كريم وعائشة وريناد وجميع الصغار الذين تم اقتيادهم ضمن هذه القضية، تقف نشوى أمام القاضي بزيها الأسود وملامح الكآبة تكسوها بالكامل، تطلب من القاضي سعة صدره ووقته وضميره الحي وعدالته التي لا تملك ذرة شك فيها، تقف أمامه تحمل مذكرة دفاعها وتضعها أمامه على المنصة قائلة في هدوء:

- سيدي القاضي، حضرات المستشارين أضع امامكم مذكرة دفاع مكتوبة بكل دقة وبصيغة قانونية تحمل الكثير من الثغرات لدرء هذه القضية والحكم ببراءة متهميها، سيدي القاضي ساترك هذه المذكرة وأتوجه إلى سيادتكم بقلب أم فقدت ابنها في ريعان شبابه قتله ثلاثة فتيان لمحاولته الدفاع عن صديقته التي كان يوصلها لمنزلها بعد أن تأخرا في العودة، وقام الثلاثة بالتحرش بها، أعلم أن في داخل كل منكم شيء يقول ومادخلنا نحن بمقتل ابنك، سيدي القاضي، أقف أمامك الآن كامرأة فقدت زوجها بعد فقدها ابنها بعدة ساعات، زوجها الذي شعر بالذنب تجاه ما حدث لابنه، ولكنه لم يكن يعلم أنه لم يتسبب في مقتل ابنه وحده، بل تسبب في مقتل أسرة كاملة كان هو عمادها، سيدي القاضي، هؤلاء الصغار الماثلون أمامكم، مذنبون بجرم مؤكد، وهو كونهم أفرادا في أسر لم تمنحهم الدفء المطلوب، مذنبون بكونهم صمتوا ولم يطالبوا بحقوقهم من ذويهم، لم يطالبوا بحق الاحتضان والاهتمام، لم يطالبوا يومًا بمعاملة تليق بأسرة هادئة، هؤلاء الصغار مذنبون في حق أنفسهم، بمحاولتهم الانتقام من

ذويهم في شخوص أنفسهم، سيدي القاضي، مات ابني بسبب الكبار، ومات زوجي بسبب أنانيته، ويقف أمامك هؤلاء بسببنا نحن، أنا وغيري وذويهم والمجتمع كله، سيدي القاضي تلك العائشة اتخذت لنفسها اسمًا كانت لتحبه كشابة وكانت أمها تحب أن تناديها به لولا تزمت الأب الذي رأى أن اسم أم من أمهات المؤمنين سيجعل منها فتاة متدينة تعرف الله وتعبده حق عبادته، متصورًا أن الدين متلخصًا في زي ولحية وتشدد وأوامر دون نقاش، تلك الفتاة ضحية أم رضخت لأهوائها، وسعت خلف مجدها الشخصي، متناسية أبنائها الذين يعتبرون مجدها الحقيقي، أم كانت ترى أن المتابعة البعيدة عبر دقيقة في الهاتف ستقي أبناءها من شرور أنفسهم ومن شرور المجتمع، أم سعت نحو النجاح ونحو الهوى فسقطت في الاختبار، وأنبتت فتاة تحمل الكثير من الكره لحياتها المنغلقة وحريتها المسلوبة، خرجت لتبحث عنها دون رقيب يقيها هجمات الشارع الحادة، أرادت الحصول على عناق دافئ لم تجده من أمها أو أبيها، فسعت له بين يدي الرجال الذين تغريهم بأنوثتها المزيفة، فسقطت ووقفت أمامنا الآن غير مبالية لشيء سوى أنها انتقمت ممن تسببوا في عُقَدِها.

سيدي القاضي ريناد الصغيرة يتيمة الأب الذي تركها هربًا من أمها وسوء عشرتها، سافر للعمل بالخارج منذ نعومة أظافرها، لم يعد سوى مرتين أو ثلاث قبل أن يقابل وجه ربه مغتربًا وحيدًا بعيدًا عنهم، لم يقوّمها أو يحتضنها، لم يشعرها بدوره كأب لا مجرد ماكينة صرف آلي، كان كل همه الابتعاد عن زوجة غيور، تسقيه النكد سقيًا، تطلب المال كطلبها للهواء، ريناد ضحية أم طامعة في سلطة وغناء فاحش، التهت عنها بالعدو وراء الثراء السريع، امرأة تحمل حقدًا وغلًا تجاه أي زوجين سعيدين، تحاول بشتى الطرق تكدير سلم حياة من حولها

ليصبحوا مثلها تعساء وحيدين دون سند في الدنيا، فلم تجد تلك البائسة سوى صديقتها المقربة لترمي معها في مستنقع مقهى لاتيه، الذي وجدتا فيه حريتهما المزيفة، ارتدتا ما كانتا تحلمان به وما حرمتا من ارتدائه في طفولتهما فأرادتا تجربته في مراهقتهما، دون رقابة من أم أو أب، أرادتا اختبار الأنوثة التي لم تجد أي أم من أمهاتهما ساعة واحدة لتفهّم صغيرتها معنى كونها أنثى.

سيدي القاضي، يقف أمامنا كريم، السيئ، القاسي، والأناني جدًا، للوهلة الأولى هو مجرم يستحق نيل أقصى عقوبة؛ شاب مستهتر غني، يتلاعب بالفتيات، يتعاطى المخدرات، التي يتاجر فيها أبوه دون علم منه، ولكن حين ننظر له من زاوية أخرى نجد أن الحاج سلامة، التقي ذا اللحية والسبحة، تاجر كبير للسموم - ومدان في قضية أخرى بالتحرش بفتاة من عمر ابنته الصغرى لا مجال لنا للحديث عنها هنا - مسئولًا عما وصل إليه كريم من استهتار وجرائم، فقد رد القدر له أفعاله وما حدث هنا ما هو إلا تخليص من القدر عن تجارته الحرام، سيدي القاضي عفوًا، ليس الحاج سلامة فقط هو المسئول عن جرم كريم، فالأم هي الأخرى مسئولة مسئولية كاملة عما وصل إليه هذا الشاب المسكين، الأم التي تمادت في تدليل الفتى، الأم التي كانت تعتبره إلهًا صغيرًا يقطن منزلهم، لا ترفض له طلبًا، لا تمنع عنه مالًا، لا تعاقبه على خطأ، أحلامه محققة، وطلباته أوامر واجبة التنفيذ، لا تبحث خلفه، لا تراقب تصرفاته، أم ملهاة فقط في البحث عن أزواج لبناتها، اللاتي فقدت إحداهما منتحرة خوفًا من الفضيحة بعد تهديد لص لها بصورها العارية التي كانت ترسلها لرجال تخدعهم ويخدعوها، عبر مملكتها الزرقاء، هذه الأم لم تشغل بالها بتربية هذا الشاب كرجل سوي سوف يكون له دورٌ في المجتمع يومًا ما، بل انشغلت بالصلاة والدعاء، متواكلة على

الله متناسية دورها الحقيقي في الحياة، سيدي القاضي! لن أقوم بالدفاع عن هؤلاء الصغار، بل أطالب سيادتكم بتوقيع أقصى العقوبة على المسئولين عنهم، توقيع أقصى العقوبة على كل أم لم تقم بواجبها في احتضان أبنائها، توقيع أقصى العقوبة على كل أب تسبب في تشوه نفسي لأبنائه، توقيع أقصى العقوبة على كل أم مستهترة وكل زوج خائن وكل متشدد لا يفهم من الدين إلّا قشوره الظاهرة، سيدي القاضي! أطالب بتوقيع أقصى العقوبة على مجتمع يحكم على الفتاة من شكل زيها، مجتمع لا يحاسب صاحب نفوذ على جرمه، أطالب بتوقيع أقصى العقوبة على القانون وواضعيه، الذين يحاكمون القتلة الصغار بقانون الأحداث، الذين يتركون مجرمين مهشمين نفسيًا يعيثون فسادًا بين أبنائنا، دون محاسبة ذويهم والمسئولين الأوائل عن سلوكهم وعدوانيتهم، أطالب بأقصى العقوبة على منتجي الدراما والسينما ومؤلفيها ومخرجيها وممثليها الذين يبثون سمومهم القاتلة عبر الشاشات ليخرجوا لنا جيلًا يحمل المطواة بدلا من الكتب والورود، سيدي القاضي! لا أجد من الكلمات المنمقة ما يستطيع أن يعبر عمّا أريده، وما أشعر به، فقط أترك المسألة لعدالتكم التي لا أشك بها أبدًا.

تنهي نشوى مرافعتها وسط تصفيق حاد من الحضور، وهمهمات ودموع ممن يجلسون خلف القضبان، يضع الآباء وجوههم بالأرض خجلًا، تخفي الأمهات وجوههن بأيديهن، وينظر الأبناء إليهم بحسرة معاتبينهم على ما وصلوا إليه بسببهم، يمسك القاضي بمرافعة نشوى المكتوبة، يقلب أوراقها على عجل، يغلق الملف قائلًا بصوت جهوري:

- الحكم بعد المداولة.

هيبة المنصة تدب في قلوبهم الرعب رغم خلوها من القاضي، يدخل الحاجب بعد ساعتين من الانتظار ليعلن عن دخول القاضي ليلقي بحكمه في قضية مقهى لاتيه قائلًا بصوت عالٍ.

- محكمة..

تمت،،

مروة الجمل

القاهرة

العاشر من نوفمبر ٢٠١٩

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007